



تاج المفرق

في تحلية علماء المشرق

تأليف:

خالد بن عيسى البلوي

الجزء الأول

مقدمة وتحقيق:

الأستاذ الحسن السائح

طبع هذا الكتاب تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة

تاج المفرق
في
تحلية علماء المشرق

تأليف:
خالد بن عيسى البلوي

الجزء الأول

مقدمة وتحقيق:
العلامة الحسن السائح

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحابته اجمعين

وبعد ، فان عظمة الامم تعتبر بافكارها التى يبدعها ابناؤها وعلمها الذى يتسلسل فى اجيالها ماضيا وحاضرا ومستقبلا .

وما الحضارة الا مظهرا حيا وترجمانا عمليا لهذه العظمة ونتائج مباشرة للافكار والقيم ، فاذا انطلقت الافكار والقيم والمعاني من منهج خلقي قويم ، وسلوك نظيف مستقيم ، شمخت عند الامة وقتها حضارة عالية اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي اكلها كل حين باذن ربها .

وان الكتاب والقلم لأعظم عامل في حفظ الافكار ونقلها من السلف الى الخلف ، ومن أمة الى أخرى عبر العصور والاجيال .

فاذا ضعفت الامة وخفت نجمها وبزها فى ميدان المجد والعظمة غيرها ، بقيت الكتب والاسفار أعظم مورد وأصدق شاهد على سابق الامة وماضيها .

وان الامة الاسلامية التي بقي لها من زاهر حضارتها ، وشامخ مجدها رصيد من الثروة الهائلة ومن المعاني والقيم والافكار بحيث نستطيع ان نجزم معه على ان امة غيرها لم توازها او تقاربها فى ذلك الميدان الرحب الذى ضاق عنه غيرها .

وان دورة التاريخ وعجلته السائرة حين تدفع العرب والمسلمين اليوم للنهوض وتحتم عليهم الجد والعزيمة لولوج حلبة التقدم والرقي لتوجب عليهم أن يستلهموا تراثهم العظيم ومجدهم العريق ، فلا بقاء لامة قطعت الحاضر عن الماضى ، وبنت دون أساس ضارب فى شعاب الزمن وارجاء الاصالة على الحاضر دون الماضي أو العكس .

ولهذا قامت في أرجاء العالم الاسلامي جهود فردية – غالبا – لبعث التراث ونشره ، واهتمت بعض الحكومات العربية بذلك مشكورة واولته العناية الخاصة .

وفي هذا الميدان عقد اتفاق هام – له ما بعده ان شاء الله – بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الامارات العربية المتحدة الغاية منه تحقيق ونشر بعض عيون هاتك الذخائر التي لا تقدر بثمن ، وكم يكون أبناء العربية وقراؤها سعداء اذا كان هذا الاتفاق نقطة انطلاق تحتذى للتعاون بين العرب والمسلمين .

والكتاب الذى نقدمه اليوم هو (الرحلة الحجازية المسماة تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق لمؤلفه خالد بن عيسى البلوى) يعد ثمرة من ثمار هذه الاتفاقية المباركة التي سيثمر ويستمر عطاؤها وانتاجها بحول الله وقوته .

وختاما نسال الله تعالى أن يرعى ملك المغرب الهمام جلالة الحسن الثاني وأخاه صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل النهيان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة اللذين رعيا هذا الفضل الجارى ، والنفع الدائم وأن يوفقهما في ميادين البر والاصلاح وخدمة الاسلام والمسلمين انه نعم المولى ونعم النصير وهو على كل شيء قدير ، وبالاجابة جدير والحمد لله رب العالمين .

صندوق احياء التراث الاسلامى
المشترك بين حكومة المملكة المغربية
وحكومة الامارات العربية المتحدة

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

اشتهر المغاربة والاندلسيون بتأليف كتب الرحلات ، ويرجع ذلك لبعدهم عن مكة المكرمة ، ورغبتهم فى أداء فريضة الحج ، والتطلع الى مراكز الثقافة الاسلامية ، ومن أبرز كتب الرحلات المشهورة فى الادب العربى ، رحلة البلوى المسماة بتاج المفرق ، لمؤلفها خالد بن عيسى البلوى ، أحد كتاب القرن الثامن الهجرى ، الذى يكاد مؤرخو الفكر المغربى والاندلسى أن يتفقوا على أنه كان قرنا خصب الفكر ، كثير الانتاج عميق البحث ، غير أن ما تبقى بين أيدينا من آثار مفكريه ضئيل جدا لا يكاد يذكر بالنسبة لما خلفوه من الانتاج الفكرى فى هذه الحقبة ، ومع ذلك فقد احتفظت لنا الخزائن المغربية بكثير منه وهذا برهان على مدى ما بذله المغاربة من نشاط علمى فى ميدان المعرفة ، وربما كان واجبنا الاول العمل على بعث هذه المخطوطات وابرازها ، لا لنزدهى بمآثر الاقدمين ، بل لان ذلك ضروري لبناء نهضتنا العلمية الحديثة على أساس متين ، وجعل النهضة التى نشيدها امتدادا طبيعيا لماضينا ، ووفاء صادقا لحضارتنا ، وهذا ما دفعنى لنشر ما يمكن نشره من مخطوطاتنا الكثيرة ، وللاسهام بنشر رحلة البلوي ، لانها تؤلف حلقة من سلسلة الرحلات التى عرف بها المغاربة والاندلسيون منذ فجر التاريخ الاسلامى ، فليست هذه الرحلة أقل شأنا فى جوانبها الجغرافية والتاريخية والادبية والاجتماعية من رحلات ابن رشد وابن بطوطة والعبدرى والعياشى وغيرهم ، بل هى فى بعض جوانبها من أقوى

الرحلات لان مؤلفها كتبها أثناء رحلته الى المشرق فوصف ما شاهد من الاقطار ، وتحدث عمن اتصل بهم من الرجال ، وقيد مذكراته ، وكتب مؤلفه هذا أثناء رحلته ، فلما عاد الى الاندلس نقحها وأطلع عليها رجال الفكر والثقافة ، ومن غريب الصدف أن يكون البلوى رحل فى السنوات التى رحل فيها ابن بطوطة ، وكان ابن بطوطة بغرناطة عندما كان المؤلف بلوشانة ، واذا كان ابن بطوطة لم يكتب رحلته أثناء رحلته وانما سجل ملاحظات ضاعت له فى سفره ثم أملى رحلته على ابن جزى من ذاكرته ، فان البلوى كتب رحلته بدقة متناهية وبذلك فقد جنبنا بعض الاغلاط التى وقع فيها ابن بطوطة ونستطيع بهذه الرحلة أن نمحص أقوال ابن بطوطة وما ذكره من رجال العلم والتصوف الذين اتصل بهم أثناء سفره ، وهكذا تعتبر رحلة البلوى محكا صادقا لرحلة ابن بطوطة .

ومن جهة أخرى فالكتاب يعطى صورة لصناعة النثر الاندلسى وتطوره فى القرن الثامن ، فالمؤلف أسلوبه الذى ينم عنه : وهو أسلوب يعتمد على الطريقة الفاضلية فى الشكل وأداء المعنى بأسلوب مزخرف ، وتكرار الجملة عنده لا يستوحيه السجع وانما يستوحيه الشرح والبيان ، وهو بالاضافة الى أسلوب ابن الخطيب المشرق ، وأسلوب ابن خلدون المحكم يعتبر أسلوبا له ذاتيته ومكانته .

وأيضا فقد اهتم كثير من المؤرخين بوصف الحياة الفكرية وتجلى عملهم فى تراجم الاعلام أما البلوى فأضاف الى هذه الناحية وصف الحياة الاجتماعية اذ هو يعرض لتجربته الخاصة ، واتصالاته برجال الفكر ، والرواية عنهم .

وأخيرا فقد أردت أن أسهم بتحقيق هذه الرحلة فى ذلك النشاط العلمى ، الذى تضطلع به جامعاتنا المتوثبة نحو احياء التراث . كما أننى اقتنعت بوجهة نظر مؤلف الرحلة فيما قصد اليه من التأليف ،

ورأيت من واجبى أن أنشر هذا المؤلف لتعم به الفائدة كما أرادهـا البلوى اذ يقول : (هذا تقييد ، أطلعه عون من الله وتأييد ، قصدت به ضبط موارد الرحلة الحجازية ، وذكر معاهد الوجهة المشرقية . وألممت مع ذلك بذكر بعض الشيوخ من العلماء الفضلاء ، الذين يطئون ذيول البلاغة ، ويجرون فضول البراعة ، ولهم كلام يتألق منه شعاع الشرق، ويترقرق عليه صفاء العقل ، وألمعت بذكر نبذ من فوائدهم ، واختيار طرف من أناشيدهم . . ثم يقول : دعوت الله أن ينفع بـــه كل من يلتمس النفع فى المطالعة أو الكتابة) ومما سبق نرى أن البلوي ذكـــر البلاد التى مر بها وتحدث عن حياتها الحضارية . ثم هو بعد هذا ، عمد الى التحدث عن مشاهير العلماء بالبلاد التى مر بها . وجالسهم ، واستمع اليهم واقتبس من آدابهم وعلمهم . وأودع كتابه كثيرا من آثارهم الادبية ، فالكاتب على هذا موسوعة تاريخية أدبية وجغرافية اجتماعية . تصف البلاد العربية وصفا صادقـــا فى حقبة معينة . لهذا كان خليقـــا بالنشر ، ولهذا لم أتردد فى اخراجه الى عالم النور عندما حانت الفرصة بتحقيقـــه ونشــــره .

منهجـــى فـــى النشـــر

كان مـــن الواجب على أن أقابل بـــين النسخ المختلفة علـــى نحو مـــا يفعل المحققون كافـــة ، ثم أعرض للتعريف ببعض الشخصيـــات التاريخية مستعينا فى ذلـــك بالمصادر الاصلية ، وأفسر الغامض فـــى المخطوط ــ قدر الامكان ــ من نحو وبلاغة ولغة لان المخطوط عريق فى الادب وفنونـــه .

ووجب أيضا أن ألفت النظر الى أن بعض الكلمات وأثبتها يما هى فى النسخ المنقول عنها حين تتفق عليها ، ولا شك أن القارىء سينتبه اليها بسهولة ، ولكنى اثبتها كما هى حفاظا على اتفاق النسخ ، لان الناسخين أخذوا عن النسخة الاولى التى اذا كانت بها هذه الهنات فهى تعطـــى صورة عن ثقافة حفيد المؤلف .

هذا وعندما كنت أحقق المخطوط خالجتنى عدة أفكار ، كتحقيـــق تراجم بعض الاعلام والكلام على بعض المؤلفات التى يشير اليهـــا البلـــوى ، وتعاليق عن الاجازات وأثرها فى طريقة التعلم فى المغـــرب والمشرق وموضوعات أخرى تتعلق بالاماكن التى زارها البلوى ، ولكنى لاحظت أن هذا سيؤدى الى اخراج الكتاب فى جزئين وسأشغل القارىء عن مسايرة الرحالة ، حيث أجره الى الدرس والتفكير بدل أن أدعه يتجول مع البلوى فى رحلته ، لذلك فقد اختصرت من التعاليق جهد الاستطاعة . .

أصول الكتاب

توجد عدد نسخ مخطوطة من كتاب رحلة البلوى ، منتشرة فى عدة بلدان عربية وأوربية ، كالمغرب والقاهرة وباريس ولندن واسبانيا .

أما النسخ التى بالمغرب ، فان (الخزانة العامة) بالرباط تتوفر على نسخ أربع جيدة ، وقد كان جل اعتمادى على هذه النسخ الاربع لا لانها فى متناول الباحث فحسب ، بل لاشتمالها على عدة مميزات ، اذ هى أكثر من سواها وضوحا ، وفصولها كاملة ، واخطاؤها قليلة . وقد دعانى واجب البحث الى الرجوع الى غيرها من النسخ فكثيرا ما رجعت الى نسخة جامعة القرويين كلما اعترضنى ابهام أو الشك بسبب ما ، ومن الضرورى أن أعرض بشىء من الايجاز لبيان بعض هذه النسخ الخطية ، مبتدئا بنسخ مكتبة الرباط .

فالنسخة الاولى من هذه النسخ الاربع ، التى نشير اليها فى البحث برقم (1) مكتوبة بخط مغربى حسن مجوهر ملون ، حيث نجد كل صفحة محاطة باطار زخرفى يحتفظ ببهائه ورونقه ، ولكن مما يدعو الى الاسف أن الارضة قد اعتدت على كثير من الاوراق ، وبهامش هذه النسخة تصحيحات قليلة ، ربما كانت من عمل الناسخ لتشابه الخط بين كتابة النسخة وكتابة هذه التصحيحات .

وطول الصفحة بهذه النسخة (220 مليمترا) وعرضها (175 ملمترا) ، وبكل صفحة 23 سطرا . وبكل سطر 14 كلمة تقريبا ، وتقع النسخة المذكورة فى 132 ورقة ولم يذكر بها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ .

والنسخة الثانية (وهى التى أشرت اليها برقم (2) مكتوبة بخط مغربى حسن ، ومجدولة بطغراء مذهبة ، وتجليدها جيد حسب فن التجليد المغربى التقليدي القديم ، وطول الصفحة بهذه النسخة (28ر0 مليمترا) ، وعرضها (22ر0 مليمترا) . وهى خالية من اسم الناسخ وتاريخ النسخ ، كما أن بها وثيقة مذيلة بابتياعها مؤرخة سنة 1297 هجرية ، ونرى بهوامش هذه النسخة تعليقات وتصحيحات قليلة وهى لغير الناسخ ورقمها بخزانة الرباط 65 .

والنسخة الثالثة (التى أشير اليها برقم (3) قد نقلت من الخزانة الكتانية ضمن مجموع من الكتب بالخزانة العامة بالرباط . وهذه النسخة تشتمل على 282 صفحة ، وبكل صفحة 24 سطرا وبكل سطر نحو 12 كلمة . وتمتاز هذه النسخة عن كثير من النسخ بوضوح خطها ووجود ترجمة للبلوى مختصرة ، من كتاب نيل الابتهاج .

ولم يذكر بها اسم الناسخ الذى ذكر أنه نقلها عن مخطوط يوثق به ممن انتصب لذلك سنة 1242 هـ والنسخة مكتوبة بخط مغربى مجوهر مما يدل على أن الناسخ مغربى ورقمها بخزانة الرباط 291 .

والنسخة الرابعة (التى أشير اليها برقم 4) مكتوبة بخط مغربى حسن مجوهر ملون وهى مجدولة بدون طغراء ومجلدة تجليدا مغربيا تقع فى 353 ورقة يشتمل كل منها على 26 سطرا اذ طول الورقة 210 مليمترا . وعرضها 130 مليمترا .

ومن النسخ الهامة لمخطوط هذه الرحلة تلك النسخة التى تحتفظ بها خزانة جامعة القرويين ، اذ أن هذه النسخة ـ على حد تعبير الناسخ ـ تمثل نسخة حفيد المؤلف التى عجز الباحثون عن الوصول اليها . ويقول الناسخ : (بلغت المقابلة ـ على قدر المستطاع ـ على نسخة حفيد المؤلف خالد بن أحمد الذى أكملها من نسخة جده فى اليوم الواحد والعشرين من شهر صفر سنة 819 هـ) . وهذه النسخة متوسطة الحجم

قد كتبت بخط مغربى على ورق سميك وفى أولها بتر ، ولم يذكر فيها اسم الناسخ . وربما كتبها أكثر من واحد لتغير مدادها وطريقة نسخها . ويشتمل هذا المخطوط على 124 ورقة وفى كل ورقة 23 سطرا وطول الورقة 275 مليمترا . وعرضها 210 مليمترا . وقد عرف « بروكلمان » هذه النسخة وتكلم عنها كما نوه بنسخة مكتبة باريس الاهلية .

كما توجد نسخة من هذا المخطوط بالمكتبة الزيدانية بمكناس قد كتبها كاتب يدعى الحسن بن على المصطفى بن المختار القرشى . وهو يذكر أنه نقلها من نسخة المؤلف نفسه تلك التى فرغ من كتابتها فى اليوم الخامس والعشرين من شهر صفر سنة 776 هـ والناسخ قد نقلها سنة 1269 هـ واذا صح ذلك كانت نسخة المكتبة الزيدانية ترجع اليها جميع النسخ التى ذكرناها لانها نقلت رأسا من نسخة المؤلف . اذا يذكر أغلب نقلها سنة 1269 هـ واذا صح ذلك كانت نسخة المؤلف . اذا يذكر أغلب النساخ أنهم نقلوا اما عن حفيد المؤلف واما عن نسخ قد نقلت عن نسخة الحفيد . وان الباحثين لم يعثروا على نسخة الحفيد حتى يومنا هذا ، تلك النسخة التى قد نقل عنها الناسخون ، ومن هنا كانت نسخة المكتبة الزيدانية المنقولة رأسا عن المؤلف ــ كما يذكر التاريخ ــ تعويضا لدى الباحثين عن نسخة الحفيد المفقودة الآن .

أما النسخة التى توجد بخزانة القصر الملكى بالرباط فيظهر أنها صورة طبق الاصل من النسخة الثانية الموجودة بالخزانة العامة بالرباط والتى ذكرتها آنفا . كما توجد نسخ شخصية لبعض المهتمين بالرحلات وبخزانة العياشى وغيرها ، وذكرها مؤلف كشف الظنون دون ذكر المؤلف مما يدل على أنها كانت معروفة بخزائن المشرق .

تلك هى بعض الجهود التى بذلتها فى سبيل الاطلاع والبحث والمقارنة بين نسخ هذا المخطوط الجليل الذى أرجو أن أكون قد وفقت فى نشره نشرا علميا جامعا لينتفع به كما انتفع بأصله .

مقدمة

ترجمة البلوي

الجانب التاريخي لرحلة البلوي

الجانب الأدبي في رحلة البلوي

الجانب الجغرافي للرحلة

الجانب الوثائقي للرحلة

معجم
بأسماء المؤلفين المغاربة في فن الرحلات

قبيلـــة البلويـــين .

من هو أبو البقـــاء ؟

نشـــأة البلـــوى وتنقـــلاتـــه .

دراســـــة البلـــــوى .

شيـــــوخ البلـــــوى .

تآليـــف البلـــــوى .

أخـــــلاق البلـــــوى .

شـــاعريـــة البلـــــوى .

المناصـــب التـــى شغلهـــا البلـــوى .

اتصـــالات البلـــــوى .

رحـــــلات البلـــــوى .

الرحلـــة الحجازيـــــة .

مصـــادر كتـــاب الرحلـــــة .

قبيلـــة البلويـــين

ينتمى خالد بن عيسى البلوي (1) مؤلف الرحلة الى قبيلة البلويين المنتشرة فى عدة بلاد اسلامية كجزيرة العرب والاندلس والمغرب وهى قبيلة عربية صميمة من قضاعة اليمنية (2) هاجرت من اليمن الى الحجاز قبل الاسلام ، وفى ظلال هذا الدين ناصرت الدعوة الاسلامية وكانت من أنصار الرسول عليه السلام وكتب لها شرف المشاركة فى عدة غزوات وكان منها الانصارى كعب بن عجرة بن عدى رضى الله عنه والمجذر بن زياد الذي أظهر بطولة نادرة يوم بدر وعبد الله بن سلمة والنعمان بن عمرو بن عبيد بن وائلة البلوي البدري .

ومن أعلام البلويين الاندلسيين أبو عامر محمد بن عامر البلوي الطرطوشى (3) صاحب كتاب الشفاء فى الطب ومنهم الاديب الشهير أبو يحيى البلوي الغرناطى الذي اتصل بلسان الدين بن الخطيب ، ومدحه بقصائد عدة منها لاميته التى مطلعها :

علونـــى ولو بوعـــد محـــال وصلونـــى ولـــو بطيف خيـــال

ورائيتـــه التـــى مطلعهـــا :

لا عذر بـــى عن خدمة الاعـــذار ولئـــن نأي وطنى وشـــط مزاري

ومنهم القاضى الخطيب على ابن أحمد بن داود البلوي الغرناطى الذي ارتحل الى تلمسان ثم الى المشرق فرارا من سوء حالة الاندلس فى تلـــك الحقبـــة .

---

1) البلوى : مفرد بلى كعلى ، والبلية الناقة يموت صاحبها فتشد الى قبره حتـــى تمـــوت .

2) ابن حزم (جمهرة انساب) العرب تحقيق برونفنصال (واللباب) فى تهذيـــب الانساب لابن الاثير ج 1 ص 144 .

3) توفى سنة 559 وهو غير ابى بكر محمد بن الوليد الطرطوشى المتوفى (520هـ 1126 م) صاحب كتاب سراج الملوك .

ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد اللـه البلوي ولد سنة 552 وتوفى سنة 623 ، نسبه ابن الآبار (1) الـى بلسنة ونسبه الرعينى (2) الى قرطبة وقال كان سلفه يعرفون فيها ببنى علي ، وكان عدلا موثقـا .

ومنهم أبو محمد عبد الصمد بن أبى القاسم عبد الرحمن بن أبـى الرجاء البلوي ولد سنة 534 وتوفـى سنة 619 (3) ومن مشاهيـر بيت خالد بن عيسى البلوى نفسه أخوه القاضى أبو بكر محمد بن عيسى البلوي والقاضى أحمد وحفيده القاضى على بن أحمد بن خالد الذي قام بجهد مشكور فى نسخ الرحلة الحجازية ومن مشاهر البلويين بالمغرب أبو بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوي الشاعر السبتى (4) وعبد الله الشبيبى البلوي القيروانى (5) وأبو الحسن علي بن عثمان البلـوي الملقب بالاشج المغربى (6) وقاضى الجماعة بتونس محمد بن عبـد الرحمان البلوي (7) والشاعر أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أبى زكى البلوى ، من رجال القرن الثامن ، كان صديقا للتجانى (8) .

---

4) التكملة لابن الابار ، ج 2 .

5) برنامج شيوخ الرعينى المتوفى سنة 666 طبعة دمشق وتحقيق ابـراهيم مشيوخ .

6) ابن الابار التكملة ج 2 ص 646 وبرنامج شيوخ الرعينى ص 153 .

7) روى ابن حزم فى طوق الحمامة انه كان يحتاز الطريق مع عبد الرحمن بـن سليمان البلوى الشاعر السبتى فانشد (اى السبتى) لنفسـه :
سريع الى ظهر الطريق وانـه … الى نقض اسباب المودة اسـرع

8) هو فتى القيروان القاضى عبد الله الشبيبى المتوفى سنة 782 هـ .

9) بابا التنبكتى : نيل الابتهاج ص 125 .

10) من الوضاعين فى الحديث الشريف ، وقد ادعى السماع عن على بن ابـى طالب توفى سنة 782 هـ .

11) رحلة التجانى ص 228 .

من هو أبو البقاء البَلَوي ؟

أبو البقاء البلوي شخصية فذة مشهورة لدى المؤرخين المغاربة والاندلسيين ، فقد ترجم له معاصره ابن الخطيب فى غير ما كتاب من كتبه ، كما ترجم له ابن القاضى فى الجذوة ، وذرة الحجال ، وترجم له أحمد بابا التمبكتى فى نيل الابتهاج ، ومخلوف فى شجرة النور الزكية ، فأحمد بابا التمبكتى قال عنه : (1) هو خالد بن عيسى بن أحمد بن ابراهيم بن أبى خالد البلوي الفتوري ، أبو البقاء علم الدين بالامام القاضى الفاضل قال عنه فى الاحاطة من أهل الفضل ، كثير التواضع والخلق الحسن ، جميل العشرة ، محب الادب قضى ببلده وغيرها وقيد رحلته فى سفره ووصف فيها البلاد ومن لقي وكتب بتونس عن أميرها قليلا وهو الآن قاض ببعض البلاد الشرقية من الاندلس . . ' ونقل أحمد بابا عن غير ابن الخطيب أنه ارتسم بديوان الكتابة بتونس عن أميرها زمنا يسيرا وكان يتشبه بالمشارقة شكلا ولسانا وصبغ لحيته بالحناء والكتم (2) . وقال عنه الحضرمى (3) هو صاحبنا الفقيه الاجل القاضى العدل الحاج المتخلق الحبيب الاديب المتفنن العالم الفاضل ، وقال عنه ابن القاضى (4) خالد بن عيسى بن أحمد بن أبى خالد البلوي صاحب الرحلة رحل ولقى أعلاما وأخذ عنهم . . ' ورحلته كانت سنة سبع وثلاثين وسبعمائة (737 هـ) أخذ عن الصغدى وغيره ممن يطول ذكره .

---

12) نيل الابتهاج ص (99) .

13) الكتم : الحناء .

14) أبو عبد الله الحضرمى ينقل عنه صاحب النيل وقال عنه مرة انه كان صاحب البلوى مؤلف الرحلة توفى سنة 747 .

15) أنظر درة الحجال فى أسماء الرجال . الجزء الاول ص 141 طبعة الرباط .

ووصفه الشاطبى بقوله : هو الشيخ الفقيه القاضى الاعـدل . وترجم له المقري (1) ونقل فقرات من رحلته ووصفها بقوله أنها (مشحونة بالفوائد والفرائد وفيها من العلوم والآداب ما يتجاوزة الرائد ، وقال عنه ابن مخلوف (2) القاضى أبو البقاء علم الدين خالد بن عيسى البلوي « القنطوري » الاندلسى العالم الكامل المتفنن الفاضل الكاتب الرحلة الاريب المطلع الاديب كتب بتونس شيئا يسيرا على أميرها وولـى قضاء الجهات بالاندلس ، أخذ عن والده وعبد العزيز الغورى وابـن رشيد وعبد المومن الجاناتى وعبد الرحمن الجزولى وابنه محمد وأبى موسى ابن الامام وأبى عمران المشذالى وأبى عبد السلام وابن هارون وابن بدال البراء ترجم شيوخه فى رحلته وأطال الثناء عليهم وغالبهم اجازه اجازة عامة وأخذ أيضا عـن ابن الستار وعيسى بن مخلـوف المغيلى وابن عمر وغيرهم مما هو كثير ، رحل وأفاد واستفاد مـن أعلام أهل المشرق والمغرب ، ألف رحلته المسماة تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق مشحونة بالفرائد والفوائد وفيها من الادب والعلوم ما لا يتجاوزه الرائد كـان حيا سنـة 755 .

وقال ابن القاضى (3) أن خالد بن عيسى بن أحمد بن أبى خالـد البلوي من أهل غبتورية من حصون وادى المنصورة ، وانه كان من أهل الفضل كثير التواضع قال فى بعض من تقاييده ومن خطه نقلت ، قرأت بفاس على عبد العزيز بن محمد الغورى الفقيه الصالح وعلى أبـى العباس بن شعيب الجزنائى وعبد المومن الجناتى وعبد الرحمن الجزولى كثيرا من الرسالة والتهذيب وعلى ابنه العالم محمد . . وأخذ بتلمسان

---

16) نفح الطيب ج 9

17) شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية « الجزء الاول ص 227 » (المطبعة الملكيـة) .

18) جذوة الاقتباس فى من حل من الاعلام مدينة فاس (ص 517) مخطـوط 5 رقم 1242 الربـاط .

عن أبي موسى بن الامام والقاضي منصور بن هدية ؛ وعن موسى المشارك والقاضي أبي عبد الله عبد النور قال سألني الاخ الاجل الناظم الناثر الابرع أبو جعفر أحمد بن زرقلة أن أذكر له من أشياخي الادلسيين فمنهم بغرناطة محمد ابن عاصم القيسي وكانت أكثر روايته عن جده لامه الامام الحافظ عبد المنعم ابن سماك وعن أبي اسحاق بن جابر وأبي القاسم بن محمد بن أبي العافية وأبي عامر ابن أرقم وأبي محمد بن الصائغ وأبي جعفر بن صفوان وأبي عبد الله بن العربي وأحمد بن قاسم الشهير بالبغيل وعن خطيب سبتة أبي عبد الله بن خميس . . وحج وقيد رحلته في سفره وصف فيها البلاد ومن لقي ، جلب أكثرها من كلام العماد الاصبهاني . وارتسم البلوي في تونس في الكتابة عند أميرها زمانا يسيرا وكان يتشبه بالمشارقة شكلا ولسانا ويصبغ رأسه بالحناء والكتم ولم أقف على سنة وفاته .

وتحدث ابن الخطيب عن البلوي في رحلته المسماة بخطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف التي كتبها في محرم سنة 748 هـ وهي رحلة الى الاندلس مع السلطان يوسف ابن الحجاج الى وادي آش وبسيطة وقالش ، وبرشانة والمرية ومرشانة ولورسانة وقدم لنا ابن الخطيب (1) صورة عن خالد بن عيسى بن ابراهيم بن أبي خالد البلوي فقال عنه : هذا الرجل من أهل الفضل والسذاجة كثير التواضع منحط في ذمة التخلق نابه الهيئة ، حسن الاخلاق جميل العشرة ، محبب في الادب قضى ببلده وبغيرها وحج وقيد رحلته في سفر وصف فيه

---

19) خطره الطيف في رحلة الشتاء والصيف : رسالة كتبها ابن الخطيب سنة 748 يصف فيها رحلة قام بها مع السلطان يوسف ابن الحجاج في محرم السنة المذكورة وزار فيها عدة مدن اندلسية مثل بسيطة ووادي آش والحامة ، وتالش ، وبرشانة ، والمرية ، ومرسانة ، ولورسانة وغيرها . وقد كتبه باسلوب مشجع جزل توجد نسخة منه بالاسكوريال المخطوط رقم 470 . انظر الاحاطة (ص 75) تحقيق محمد عبد الله عنان طبعة دار المعارف بمصر .

البلاد ، ومن لقيه بفصول جاب أكثرها من كلام العماد الاصبهاني وصفوان وغيرهما عن ملح ، وقفل الى الاندلس ، وارتسم فى تونس بالكتابة عن أميرها زمانا يسيرا ، وهو الآن قاض ببعض الجهات الشرقية وجرى ذكره فى الرحلة التى صدرت عنه فى صحبة الركاب السلطانى عند تفقد البلاد الشرقية فى فصل حفظه الناس وأجروه فى فكاهاتهم . ويروي ابن الخطيب (2) هذا الفصل قائلا : حتى اذا الصبح تبلج ، والفجر من المشرق تولج ، سرنا وتوفيق الله لنا قائد وكففنا من عنايته صلة وعائد ، تتلقى ركابنا الافواج ، وتحيينا الهضاب والهضاب والفجاج الى قنتورية .

فناهيك من مرحلة قصيرة كأيام الوصال ، قريبة البكر والآصال، كان المبيت بازاء قلعتها السامية الارتفاع الشهيرة بالامتناع ، وقد برز أهلها فى العديد والعدة ، والاحتفال الذي قدم به العهد على طول المدة ، صفوفا بتلك البقعة خيلا ورجالا ، كشطرنج الرقعة ، لم يتخلف ولد عن والد ، وركب قاضيها ابن أبى خالد ، وقد شهرته النزعة الحجازية ولبس عن خشن الحجازية ، وأرخى من البياض طيلسانا ، وتشبه بالمشارقة شكلا ولسانا ، وصبغ لحيته بالحناء والكتم ، ولاث عمامته واختتم ، والبداوة تسمه على الخرطوم ، وطبع الماء والهواء يقوده قود الجمال المخطوم ، فداعبته مداعبة الاديب والاريب وخيرته بين خطتين ، وقلت نظمت مقطوعتين أحدهما مدح والاخرى قدح ، فان همت ديمتك وكرمت شيمتك فللذين أحسنوا الحسنى ، والا فالمثل الادنى ، قال انشدنى لارى على أي أمر تبيت ، وافرق بين ما جنيتنى وما جنيت فقلت :

فالوا وقد عظمت مبرة خالد   قارى الضيوف بطارف وبتالد

---

20) انظر الاحاطة ص 340 ج 1 .

ماذا تممت بـــه ، فجئت بحجـــة   قطعت بكـــل مجـــادل ومجالـــد
ان يفتـــرق نسب يؤلـــف بيننـــا   أدب اقمنـــــاه مقـــام الوالـــد

وأمـــا الـثـــانيـــة :

فيكفى من البرق شعاعه ، وحسبك من شر سماعه ، وبسير التشبيه كاف عن التنبيه ، قال لست الى قراى بذى حاجة واذا عزمت فأصالحك على دجاجة ، فقلت ضريبة غريبة ومؤنة قريبة ، عجـل ولا تؤجل وان أضرم أمر النهار أسجل ، فلم يكن الاكلاولا ، وأعوانه مـن من القلعة تنحدر ، والبشير منهم بقدومها يبتدر ، يزفونها كالعروس فوق الرؤوس فمن قائل يقول أمها يمانية ، وآخر يقول أخوها الموجـه الى الحضرة العالية ، وأذنوا مرابطها من المشرب بعد صلاة المغرب ، وألحوا فى السؤال ، ونشبوا فى طلب السؤال ، فقلت يا بنى اللكيعة لو جئتم ببازي فبماذا كنت أجازي فانصرفوا ، وما كادوا يفعلون وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، حتى اذا سلت الى ذبحها المدى وبلغت من طول أعمارها المدى ، قلت : يا قوم ظفرتم بقرة العين وأبشروا باللقاء ، فقد ذبحت لكم غراب البين ، ولقد بلغنى أنه لهذا العهد بعد أن طـال المدى يتظلم من ذلك وينطوى من أجله على الوجدة فكتبت اليه ، وصل الله عزة الفقيه النبيه العديم النظير والتشبيه وأرث العدالة من عمه وابن أبيه فى عزة تظلله ، وبلاغة تتوج جاهه وتكلله (1) . وقال عنه فى ريحانة الكتاب (1) فايز من الابداع بمل مطلوب ، ومستميل اسماع وقلوب وفصيح بادية ، وفى البداوة حسن غير مجلوب ، قدح قريحته البرق ، وطلع بتلك الجهة الشرقية ولا ينكر النور على الشرق ، فتألق بذلك الافق تألق ، فشرف

---

21) ورقات مخطوط الريحانة خزانة (الحسن السائح)
22) تحقيق الدكتور احسان عباس . ج 1 ص 134 مطبعة دار الثقافة ببيروت .

فى قومه ، وأصبح فيه أمسه منافسا ليومه ، الى بلاغة تتحلى بها صفات المهارق ، وعفاف حتى عن الخيال الطارق ، ورحل فى هذا العهد القريب وقد أصبح بحسن ضرابيه عديم الضريب ، فاقتحم فرضة المجاز ، الى مثابة الحجاز ، فقضى وطره من تلك المشاهد ، وتبرك بلقاء من بها من عالم أو زاهد ، وقفل وقد دون رحلة سفره ، وزها بها زهو الجفن بغنجه والخد بخفره ، وأجاز بالبلاد الموحدية ، فدعته الى خدمة بابها ، وقلدته رياسة كتابها فأينع روضه وأثمر ، وحل بهالتها فأضاء وأبدر ، ولم يكن الا كلاولا ، حتى جذب الشوق برسنه ، وطار به الوجد الى وطنه ، فأسرع اللحاق ، وآثر على النور المحاق ، وعلى ذلك فقد ولى ببلدته قضاءها وتقلد انفاد الاحكام وامضاءها رحمه الله .

وقال عنه ابن الخطيب فى الكتيبة الكامنة (2) فيمن لقيناه بالاندلس من شعراء المئة الثامنة (التى ألفها فى جمادى الآخرة عام 774 (3) :

القاضى أبو يزيد خالد بن عيسى بن أحمد القنتورى البلوي : صاحبنا ، هذا الرجل كالجمل المحتمل يريبك مجموعه ، ويهولك مرئيه ومسموعه ، فاذا زمزم الحادى سالت من الرقة دموعه فظاهره جسم جسيم ، وللزرافة قسيم ، وباطنه فى اللطافة نسيم ، وروض يرتاده نسيم سكن البادية خيرا عفيفا ، ومن المؤن خفيفا ، يرتاح الى عقائل الآداب ارتياح قيس الى ليلى ، ويميل به الضبط الى الاغتباط ميلا ، وكلما ظفر بها يوما أو ليلا ، طفف كيلا ، وجمع ثريا وسهيلا ، ثم راح الى المشرق ، وعثا الى روحه المشرق ، مع اخضرار العود وسواد المفرق وغفلة من الزمان المطرق ، فحج وزار ، وطرح الاوزار ، واستسقى السحب الغزار ، ودون رحلته فأحسن وأطرف ، وحلى وعرف ، وقفل

---

23) مقدمة الكتيبة الكامنة للدكتور احسان عباس ص 15 .

24) انظر الاحاطـة

مغربا بتشريقه ، وكتب عن بعض الملوك الكبار بطريقه ، ثم ارتسم فى حزب القضاء وفريقه ، وأدبه مشتمل على نشر ونظم ، ولنثره على نظمه شفوف ، والى اللحاق بذى الاجادة خفوف .

أما المستشرقون فقد ترجم له هنرى دوكاستر فى ترجمة كتاب النفحة المسكيـة فى السفارة التركية (1) وذكره ضمن من أخذ عنه التكرورتى فى رحلته ، وبعد أن عرف بنسبته الى البلويين وهى — أسرة مجيدة فى اشبيلية . قال : ان المعلومات عن حياته ضئيلة والمقرى وحده هو الذى روى انا خبرا عنه مقرونا بتاريخ . فقد ذكر أنه كان بتونس فى العيد الكبير سنة 737 هجرية الموافق 1337 ميلادية (ولا يخفى أن هذا التاريخ مأخوذ من الرحلة وليس عن المقري) ويقول دوكاستري بأن وظيفة القضاء لم تمنعه من الاشتغال بالادب ومخالطة شعراء الاندلس الذين يقدرون لطفه ودماثته وقد حج وزار عواصم الشرق كما هى عادة المثقفين المغاربة الذين كانوا يقيمون بمراكز الثقافة ليتابعوا دراستهم عن الاساتذة المشهورين ، وبعد رجوعه الى بلاده كتب رحلة تاج المفرق حيث وصف الاقطار التى زارها . وترجم لمن اتصل بهم من العلماء فجاء كتابه خليطا من الادب والعلم والفقه وغير ذلك حسب الاسلوب المتبع فى تلك العصور وتحدث عنه
كما تحدث عنه بروكلمان

---

25) انظر النفحة المسكية ، ترجمة دوكاستري B. Decastre باريس 1929
26) انظر ص 330

نشأة البَلَوى وتنقلاته

لا نعرف شيئا عن طفولة البلوي ، وكل ما نعرف عنه هو أنه ولد بقنتورية (1) التى كان والده قاضيا بها والغالب أنه ولد حوالى سنة 713 تقريبا ، لانه عندما رحل الى بلاد المشرق سنة 736 كان شابا فى مقتبل العمر ، وقد تعود الرحالون المغاربة أن يغادروا مسقط رأسهم وهم فى فجر شبابهم ، فان الادريسى غادر سبتة وهو دون العشرين وابن رشيد رحل وهو ابن ست وعشرين سنة وابن بطوطة سافر وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، لذلك فالبلوي حين سافر الى

---

28) ويسميها ابن القاضى قبتورية (بالباء) و فى معجم البلدان لياقوت الحموى ان ان قتور جزيرة ينتمى اليها سعيد بن محمد بن شعيب الانصارى الاديب الخطيب بجزيرة قبتور كما فى ابن بشكوال ، وفى نسخة الاحاطة المطبوعة بالقاهرة انها قنتورية (النون) وقد علق على ذلك الاستاذ محمد عبد الله عنان بقوله : انها قنتورية المسماة بالاسبانية (كنطورية وهى بلدة صغيرة من اعمال ولاية المرية تقع على نهر المنصورة على مقربة من بلدة المنصورة . وقال فى مكان آخر (وادى المنصورة) : وهى المنطقة الواقعة على النهر الذى يخترق شمال ولاية المرية بين برشانة ومدينة المنصورة الواقعة على هذا النهر .. ويسميها ابن الخطيب فى معيار الاختيار قتورية بالتشديد كما فى مشاهدات لسان الدين للدكتور العبادى ص 36 ، ويقول دوكاسترى فى مقدمة (النفحة المسكية) انها هى المسماة اليوم كنطورية (Cantoria) من أعمال المرية على الضفة الشمالية ، وهى طبعا مسقط راس البلوي. واذا فقنتورية كما وردت فى سائر النسخ التى بين ايدينا عن الرحلة هى قتنورية كما يقول ابن الخطيب فلا يبعد انها كانت تكتب تارة بالنون وتارة بدونه . على أن ابن الزبير يسميها كبتورية كما فعل فى ترجمته لابن الاصبغ الكبتورى ، فكتبها بالكاف وهى من قرى اشبيلية ولا شك أنها هى (فتورية) ، وقد وهم احمد يوسف فجعلها من حصون وادى المنصورة بنواحى القيروان وهو خطأ ظاهر .

المشرق لم يكن الا فى هذه السن تقريبا ، جاوز سن الطلب إلى سن الاتصال بالعلماء والرواية عنهم ويدل على هذا أن رفيقه فى الدراسة وهو ابراهيم بن عبد الله بن الحاج االنميرى الذى رحل مثله الى الشرق ولد سنة 713 . كما أن ابن الخطيب قال عنه فى الكثيبة الكامنة : ثم راح الى المشرق ، مع اخضرار العود وسواد المفرق .

أما وفاته فقد جعلها بعض المؤرخين (1) سنة 765 هـ (1364 م) ويظهر أن ذلك غير صحيح لان المؤلف أتم كتابة رحلته فى اليوم الاخير من شهر ربيع الاول عام 767 ببرشانة ، واذا فقد عاش بعد هذا التقدير على أن من المحقق أنه توفى قبل 680 لان ابن الخطيب ذكره فى الريحانة التى ألفت سنة 680 وترحم عليه .

وقد نشأ البلوي فى أسرة علمية متدينة حيث تلقى تربية صالحة فأخذ عن والده بقتورية ، ثم رحل الى غرناطة ودرس بها وكان من أصدقائه بها الرحالة ابن الحاج النميرى الذى أصبح من كتاب الدولة المرينية كما كان من أصدقائه بالاندلس الكاتب أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الحضرمى (2) الذى وصف البلوي بالعلم والفضل وحسن الخلق وقد اهتم به وترجم له فى فهرسته وجاء فى كتاب فهرس الفهارس لدى ذكر ترجمته لعبد المهيمن الحضرمى المتوفى سنة 747 هـ بأن هناك حضرميا آخر يعرف بأبى عبد الله كان صاحب البلوي . ثم رحل

---

29) انظر قاموس الاعلام المزركلى ج 1 ص 67 .

30) حلاه المترجمون بالفقيه المحدث ويستفاد من قائمة كتبه انه كان اديبا ومن كتبه تأنيس أرباب الاستجمام بما قيد من الاشعار فى الحمام ، وكتاب فى مشكل اعراب الاشعار الجاهلية الستة فى سفر متوسط والدر النفيس من شعر ابن خميس . ازهار الرياض (ج 2 ص 81) وذكره بعض المترجمين فى ترجمة شمس الدين عبد الله محمد الراعى شارح الالفية لابن مالك وصاحب النوازل النحوية الذى اخذ عن الماتورى الشهير شارح مقدمة ابن اجروم عن الخطيب ابى جعفر احمد بن سالم الجذامى عن القاضى ابى عبد الله محمد بن ابراهيم الحضرمى عن مؤلفها ابى عبد الله ابن آجروم .

مترجمنا للدرس وتلقى العلم بغرب العدوة (أى المغرب الاقصى) حيث أخذ بفاس عن عدة علماء كما ذكر ابن القاضى وغيره ثم عاد الـى قنتورية وبعد ذلك رحل الى المشرق استزادة للعلم واستجازة للعلماء الكبار ؛ وبعد عودته الى الاندلس أصبح من رجال الفقه والادب ، فولى القضاء بمدينة قنتورية كما ذكر ابن الخطيب فى (الريحانة) وفى (خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف) (3) ثم انتقل الى القضاء ببرشانة التى أتم فيهـا كتابـة الرحلـة .

31) نفـح الطيب ج 7

دراسة البَلَوي

تلقى البلوي العلم بمسقط رأسه (قنتورية) فأخذ أولا عن والده (1) القرآن ومبادىء العربية ثم درس القراءات السبة عن اثنى عشر شيخا وكان الاندلسيون يولون عام التجويد عناية كبرى ، وذكر البلوي أن هذا العلم تسلسل فى سبعة من أجداده كما أخذ عن والده لامية حرز الامانى من نظم أبى القاسم بن فيرة الشاطبى وأخذ عنه أسانيد حديثية ، ومعلومات فى اللغة والعربية ثم أخذ عن أبى الحباب وأبى عبد الله بن عبد السلام وأبى عبد الله عمر كما تقدم ∴ وأخذ بغرناطة عن محمدبن محمد بن عاصم القيسى وغيره ، ودرس بالمسجد الاعظم بمالقة على ابن عبد الله محمد بن أحمد الهاشمى الطنجالى ، ويذكر أحمد بابا (2) أن أبا البقاء أخذ بفاس عن الشيخ عبد العزيز القورى وأبى العباس ابن شعيب الجزنائى وعبد المؤمن الجناتى ، ويذكر البلوي فى ترجمته لابن الصائغ أنه أخذ ببلاد المغرب كتاب التيسير عن كثير من العلماء ، وعن أبى عبد الرحمن الجزولى وأبى عبد الله بن عبد الكريم حيث سمع عن الجزولى كثيرا من الرسالة والتهذيب ، كما تلقى العلم على ابنه العالم أبى عبد الله محمد الجزولى ∴ وأخذ بتلمسان عن أبى موسى ابن الامام (3) وقاضى الجماعة أبى

---

32) لم يذكر البلوى تاريخ وفاة ابيه وانما ذكر ان ولادة ابيه كانت سنة 668 ولا شك ان وفاته كانت قبل الرحلة لانه اذا ذكره فى رحلته ترحم عليه كما ان والده كان على قيد الحياة سنة 730 لانه قرا عليه كتاب الصلاة من الموطأ فى هذا التاريخ .

33) نيل الابتهاج ص 99 .

34) احد الاخوين المشهورين بابنى الامام اصلهما بن برشك من اعمال تلمسان واسم الاكبر ابو زيد عبد الرحمن ، والاصغر ابو موسى عيسى ، انتقلا لتونس فى المائة السابعة واخذا عن ابن زيتون .

على منصور بن هدية ، وأبى عمران موسى المشدالى والقاضى أبى عبد النور (4) . . كما أخذ عن أئمة تونس وبالاخص ابن عبد السلام ، وابن برال وأخذ عـن علماء القاهرة والاسكندرية والقدس وجلهـم تأثروا بالدراسة التى انتشرت فى الشرق بعد تأسيس المدرسة النظامية (1) وكان البلوي حر التفكير يميل الى الاجتهاد كما ذكر فى ترجمته لابن هارون التونسى وزيادة على ثقافته الفكرية فقد كان يحسن السباحة ، فاذا اضطر لركوب أهوال البحر اعتمد على نفسه فسبح (بسبب مـا أنعم الله على من معرفة السباحة والعلوم (2) كما كان يجيد الفروسية حيث تعلم النزال والضرب وأساليب الحـرب .

شيوخ البَلَوي

ويحسن أن نتناول بايجاز ترجمة أعيان العلماء والادباء الذيـن أخذ عنهم البلوي واستفاد من علمهم بصفة مباشرة أو غير مباشرة ، وذكرهم المترجمون له بوصفهم أساتذته ، وأولهم أبو عبد الله محمـد محمد بن خميس الحجري التلمسانى الامام الاديب المتفنن خطيب سبتة المشهور كان من فحول الشعراء ، وأعلام البلغاء . وقد ذكره المقرى فى نفح الطيب كما ذكره فى أزهار الرياض وروى له قصيدته :

---

35) ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور من ندرومة ــ كان فقيها مشهورا (انظر التعريف لابن خلدون ص 47) .

36) التقى البلوى بمدرسى المدرسة الناصرية والفاضلية والقمحية فى مصـر والمدرسةالصالحية والافضلية والنحرية والميمونية فى بيت المقدس والمدرسة المنتصرة فى طرابلس التى بنيت على يد الفقيه ابى محمد عبد الحميد بن ابى البركات بن ابى الدنيا (عنوان الدراية ص 64 وتاريخ الزركشـى ص 34 ورحلة التجانى ص 253) .

37) انظر الاحاطة المخطوط ص 18 ــ (نفح الطيب الجزء الاول) والتعريـف ص 40 .

عجبـا لها أيذوق طعم وصالهـا   مـن لا يؤمـل أن يمر ببابهـا

وأثنى عليه ابن دقيق العيد وقد أخذ عنه محمد بن الفخار وتوفى قتيلا سنة 708 هـ .

ومن شيوخ البلوي عيسى بن مخلوف بن عيسى المغيلى ، وقد ذكره ابن فرحون . فقال انه كان من فضلاء المالكية وأعيانهم بمصر ، وأنه ولي القضاء بها فحمدت سيرته وكانت وفاته سنة 746 هـ وأخذ عنه البلوي بمصر حيث أجازه (3) وفى شجرة النوُر الزكية أنه أخذ عـن الناصر المشد الى وأخذ عنه ابن مرزوق وخالد البلوي .

ومن العلماء الذين أخذ عنهم البلوي محمد بن جعفر بن يوسف بن مشتمل الاسلمى البليانى قـال الحضرمى فى فهرسته هو شيخنـا الراوية القاضى أبو عبد الله من أهل الخير كان متمعنا فى التوثيق وولى قضاء غربى مالقة ولد سنة 668 هـ وتوفى سنة 736 هـ (1) .

ومن هؤلاء ابن عامر بن أرقم من أهل غرناطة وهو محمد بن عبد العظيم بن أرقم النميرى من أهل واد آش كان فقيها وشاعرا ، ولـه قصيدة فى مدح ابن العزفى يذكر ظفره بالاسطول ويشيد بما حازه من نصر على الاعداء توفى سنة 740 هـ (2) .

ومـن العلماء الذين أخـذ عنهم أبو محمـد بن الصائغ عـن علماء غرناطة ، وهو محمد بن عبـد الله بن محمد بن لب الأميـر ،

---

38) انظر النيل ص 0ق1 شجرة النور الزكية ص 220 .

39) انظر ترجمته فى الكتيبة الكامنة لابن الخطيب ص 67 .

40) انظر الاحاطة المخطوط ص 14 ج 7 .

ويعرف بابن الصائغ أصله من المرية . وكان طيب العشرة ، شاعـرا ملحنـا توفى سنة 750 هـ (3) .

ومن شيوخ البلوي أبو جعفر بن صفوان من علماء غرناطة وهو محمد بن أحمد بن حسين بن يحيى ابن صفوان كان فقيها شاعـرا ألف باشارة أبى الحجاج كتابا فى التصوف واصطلاحات القوم وتوفـى سنــة 749 هـ (1) .

ومنهم أبو عبد الله بن العربى من علماء غرناطة وهو محمد بن على بن عمر بن يحيى بن العربى الغسانى أخذ عن أبى العيش وأبـى جعفـر ابن الزبير وأبـى جعفر ابن الزيات ولـد سنة 682 وتـوفى سنــة 748 .

ومنهم أحمد بن قاسم الشهير بالبقيل (2) من علماء (غرناطـة) وفى الريحانة ذكر لابى جعفر المعروف بالبقيل من أهل المرية فهل هو هذا أم غيره ومنهم عبد العزيز بن محمد القوري من علماء فاس وهو فقيه من أصحاب الشيخ أبى الحسن الصغير قال المقرى هو أكبـر تلامذة أبى الحسن علما وأدبا وقال ابن مرزوق الحفيد أن تقاييـده على المدونة من أحسن التقاييد ، روى له ابن الخطيب القسنطى فـى رحلته قصة اصطدامـه الوعظى مع السلطان أبى الحسن المرينـى توفـى سنـة 750 .

ومنهم عبد المومن الجناتى (3) من علماء فاس وهو أبو فارس عبد المومن بن محمد الجناتى الفاسى الامام الفقيـه العالم ، الشيخ

---

41) انظر الاحاطة المخطوط ج 7 ص 39 ، والكتبية ص 88 .
42) انظر الاحاطة ص 167 ج 7 طبعة مصر والكتبية لابن الخطيب .
43) انظر الاحاطة ص 117 المخطوط ج 7 .
44) انظر نيل الابتهاج ص 156 .

أعلم الناس بالمدونة أخذ عن أبى الحسن الصغير وجلس مجلسه توفى سنـــــة 746 هـ .

ومنهم عبد الرحمن الجزولى من علماء (فاس) وهو فقيه لــه تقاييد مشهورة على الرسالة وحافظ كبير عاصر السلطان أبا الحســن المرينى الذي كان يقدره ويجالسه مات سنة (741) بعد رجوع أبى الحسن من موقعة طريــف (1) .

ومنهم القاضى شرف الدين يحيى بن مخلوف بن يحيى المغيلى أخذ عنه أبـى مرزوق وخالد البلوي مختصـر الجلاب توفى سنـة 746 هـ (2) .

وأبو العباس الجزنائى أحمد بن شعيب التازى الفاسى قال ابن ابن خلدون برع فى اللسان والادب ، والعلوم العقلية من فلسفة وتعاليم وطب وغيرهما وله شعر يسابق به فحول المتقدمين والمتأخرين ولــه الامامة فى نقد الشعر وقال ابن الخطيب (3) انه دخل غرناطة على عهد السابع من ملوكها الامير محمد فى بعض شؤونه وحقق له تغيير أمــر الادوية المنفردة . كتب لابى الحسن المرينى وتوفى بتونس سنة 750 .

ومنهم (محمد بن عبد الرحمن الجزولى) قاضى فاس وعالمهــا العالم الفقيه العمدة أخذ عن مشيخة بلده ودخل تونس وأخذ عن أبى عبد الرفيع وأبى عبد الله النفزاوى وأخذ عنه ابن خلدون والخطيب ابن مرزوق وأبو عبد الله الكرسوطى توفى سنة 758 (4) .

---

45) انظر النيــل ص 138 .

46) انظر الشجرة ص 220 .

47) الاحاطة ج 1 ص 28 ، والتعريف لابن خلدون .

48) النيــل ص 249 .

ومنهم محمد ابن عاصم القيسى الغرناطى والد ابن عاصم صاحب التحفة المشهورة الذى ولد سنة 760 هجريـــة .

ومنهم عبد المنعم بن سماك الغرناطى وهو عبد المنعم بن سالم ابن عبد الله بن سماك العاملى الوزير أخذ عن أبى الحسن سهل بن محمد بن مالك الازدى وقرأ عليه بعض كتاب الجواهر لابن شاس وعن عامر يحيى الاشعرى وله فهرسة . (أنظر الاحاطة المخطوط) والريحانـــة كذلـــك .

والقاضى محمد بن ابراهيم التميمى ، وضع خطه باجازته سنـــة 696 وقد كان حيا فى هذا التاريخ (1) وأبو اسحاق بن جابر الغرناطى وأبو جابر مشهور بكنيته توفى سنـــة 776 (2) .

وأبو القاسم بن أبى العافية وهو محمد ابن أحمد (ابن العافية) ، ترجم له فى الروض الهتون وهو المعروف بالاحول المكناسى كان عيبة نصح للشيخ القورى وانتفـع بـــه (3) .

ويحيى بن محمد بن يحيى بن عبد الله أبو زكرياء الصنهاجـــى وجيه الدين المالكى قاضى المالكية بالاسكندرية ذكره البلوي فى الرحلة واثنى عليه ، ولد سنة 667 هـ .

والقاضى منصور بن هديـــة منصور بن أحمد بن عبد الحـــق المشدالى ترجـــم له الغبرينى فى الرحلة وهو فقيه مفسر أصولـــى ووصفه العبدرى بأنه غير معتن بالرواية (4) توفى سنة 731 .

---

49) انظر درة الحجـــال ج 2 ص 40 .

50) نيـــل الابتهـــاج 277 .

51) انظـــر نيـــل الابتهـــاج .

52) انظر نيـــل الابتهاج 377 (والشجرة ص 764)

والقاضي أبو عبد الله بن عبد النور وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله قاضي فاس – وقاضي عسكر أبي الحسن المريني كان اماما مبرزا في الفقه على مذهب مالك تفقه على الاخوين ابني الامام وعنه أخذ جماعة من أعيان تونس حين قدم مع عسكر الامير المذكور وبينهم ابن خلدون توفي بتونس بالطاعون الجارف سنة 749 (5) .

وابنا موسى بن الامام وهما اخوان الاول أبو زيد عبد الرحمـن ابن محمد بن عبد الله ابن الامام التلمساني الحافظ وأكبر الاخويـن المشهورين بابني الامام ، رحلا معا لتونس وللمشرق ، وألفا شرح ابن الحاجب الفرعي وتوفي أبو زيد سنة 743 ، والآخر أبو موسى عيسى وهو خاتمة الحفاظ اصطفاه السلطان أبو الحسن معه الى تونس وأخذ عنه بها ابن خلدون توفي سنــة 749 هـ (1) .

ومنهم موسى المشارك وهو أبو موسى عمران بن موسى المشدالي حافظ محقق نقل الونشريشي كثيرا من فتاويه ولد سنة 670 هـ وتوفي سنــة 745 هـ .

وأذكر من بين العلماء الذين اتصل بهم البلوي وقرظوا رحلته :

محمد بن جعفر بن يوسف بن مشتمل ، قال الحضرمي في فهرسته شيخنا الفقيه القاضي الراوية الافضل أبو عبد الله من أهل الخير متمعنا في التوقيت ولي قضاء غربي مالقة وناب في شرقيها توفي عام 736 رجـب عـام 668 هـ .

---

53) النيـل ص 240 والتعريف ص 47 .

54) هما اخوان من اهل برشك من اعمال تلمسان ، اخذا عن ابن زيتون ، انظر التعريف ، وشجرة النور الزكية ص 220 وانظر ص 379 من اختصـار الاحاطة (مصور الاسكوريال) (النصف الثاني ، نسخة الخزانة العامة 1582 عن الاصل بالاسكوريال 1673) .

ومحمد بن عبد الستار أبو عبد الله التونسى قال الشيخ خالد فى فهرسته هو ثانى أبى الحسن المنتصر فى الفضل والولاية والعلم امام من أئمة الفروع وسراج يقتدى به ، انتهى الى أقصى أمده الى أن قال انه نيف على التسعين فما ضعفت له قط موارد العبادة ولا تعطلت مدرسته عـن دولتـه المعتـادة .

ومحمد بن محمد بن المنير الاسكندري ترجم له خالد البلوي وأخذ عنه تواليف منها أرجوزته الكبرى التى فسر بها القرآن وتراجم البخاري وأحكام السماع . . . والفقيه أبو القاسم ابن سلمون الكنانى الغرناطى كان قاضيا للجماعة بغرناطة وهو المنصب الذي يقابل قاضى القضاة فى المشرق والغالب أنه يضيف الى عمله فى القضاء الخطابة فى جامع الحمراء أو فى الجامع الاعظم ، ألف عدة كتب منها : العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من الوثائق والاحكام (2) .

وأبو حيان الغرناطى هو محمد بن يوسف بن علي ، ولد بغرناطة سنة 654 هـ وطاف بالمشرق وكانت وفاته بمصر سنة 745 هـ ـ 1344 م ، كان محدثا بارعا ومفسرا كبيرا ولغويا ماهرا وشاعرا ـ مطبوعا ، ترك عدة مؤلفات فى التفسير واللغة والادب وله ديوان شعر طبع حديثا فى العـراق .

---

55) انظر مختصر الاحاطة مصور الاسكوريال (النصف الثانى ، نسخة الخزانة العامة ص 1582 عن الاصل بالاسكوريال رقم 1673 ص 379) .

تآليف البـلَوي

ألف أبو البقاء الرحلة الحجازية المسماة بتاج المفرق فى تحليـة علماء المشرق ، وقد اشتهرت هذه الرحلة بالمغرب والشرق ، وتداولتها الايدي ، وكانت عمدة كثير من رجال التراجم والاعلام ، كما ألف أبو البقاء برنامج روايته الذي لم نعثر عليه ويذكر ابن القاضى فى الجذوة أنه نقل منه ويذكره البلوي فى الرحلة فى غير ما موضوع . وترك كذلـك ديوان شعر ضمنه قصائده ومقطوعاته يشير اليه فى الرحلة كذلك ، كما أن له تخريجا فى حديث الرحمة وكتابا عن أسانيد لثلاثيات البخـاري أشار له فى تاج المفرق كما أن له مجموعة منتقاة اختارها من أشعـار معـاصريـه . . . .

أخلاق البَلَوي

كان البلوى موفور الصحة ، ذا بسطة فى الجسم ، كما وصفه ابن الخطيب فى الكتيبة بقوله : « هذا الرجل كالجمل المحتمل يربيك مجموعه ويهولك مرئيه ومسموعه . . . » (ويقول ابن الخطيب أيضا) ظاهره جسم جسيم وللزرافة قسيم . على أنه كان عاطفيا ألوفا يصعب عليه أن يفارق الاصدقاء والاحباب ، يأنس الى كل من تعرف عليه ، فاذا حان وقت الوداع (تجرع من الفراق ما ليس بالعذب ولا بالسهل) واذا دخل مدينة لا يطيب له بها قرار حتى يربط علاقته بالفضلاء (ويجبر الوحشة بالايناس) فاذا فارقهم بكى حنينا وشوقا كما قال ابن الخطيب عنه (اذا زمزم الحادي سالت من الرفقة دموعه) ، غير أنه لم يكن شجاعا يدفع عن نفسه جور قطاع الطرق وانما كان جبانا يمثل الفقهاء والعلماء فى آخر عصور الاندلس حيث لم يعودوا كما كانوا من قبل يحتفظون بالفروسية والشجاعة والمقاومة وانما أصبحوا يعتمدون على العامة فى الدفاع عنهم وعن البلاد ، ولذلك عندما أغار قطاع الطرق على قافلة الحجاج نرى البلوي (أعدى من جام) . . . وتملك قلبه حب التنقل والاقتراب ، فأصبح محبا للاسفار ، سريع التنقل ، يألف بسهولة ويستطيع أن يندمج فى كل البيئات ، وهذه صفات الرحالة وكان يستعين على سفره الطويل بقصائد يمدح بها الحكام والامراء ، فينال اعطياتهم ، ويستطيع بذلك متابعة السير ، كما فعل ابن بطوطة من قبله وقد قدم لنا البلوى نموذجا من أصدقائه الذين كان يعجب بخلقهم وهو أبو العباس النقارسى الذي لقيه بتونس فهو رجل كما قال عنه : (لانت صعابه) و (يفحص المالك على الكمال ايثار للرتب المنيفة) و (كالحية الرقشاء الا أنه يستنزل الاروى اليه تلطفا)

في منزل واحد

وتأثر البلوي سلوكه قولا وعملا ، وأقام معه في تونس (لا يستأثر أحدهما بمقسوم ولا ينفرد عن الآخر بمكتوم) (1) ، وكان النقاوسي يعرفه بأكابر الناس ، وهكذا سار على نهجه واقتدى به في سلوكه والمرؤ على دين خليله ، وكان مثله كثير التنقل (كثير الاصدقاء ، لا يسكب دمعا على مترحل) وهذا التخلق قد اكتسبه البلوي من صديقه الذي لقنه علم السلوك ومعرفة الناس والاستعانة بمالهم ونفوذهم على تحقيق الآمال .

وانتهى البلوى الى نظرة للحياة متشائمة عبر عنها بقوله : فالليالى لا تجمع شملا الا شتته ولا تصل حبلا الا بتته ، من أطاعها عصته ، ومن أدناها أقصته ، فالبصير من يرفض الدنيا ويسأل الله فى أموره » ، كما أصبح صوفيا ويصرح فى ترجمته لشيخه ابن المصفى انه البسه خرقة التصوف ، وكان البلوي شديد الشفقة يؤلمه المنظر المخزن (فما رض ضلوعى وما فض دموعى الا الاطفال يضطربون بالبكاء ويستغيثون من العطش بالماء كما كان بارا بوالديه ، فقد زهد فى الوظيفة بتونس على قلة ذات يده رعيا لوجوب الرجوع الى وطنه ، ومعاينة والدته التى تركها وحدها فى الاندلس .

والبلوى صادق أمين ، لا ينافق ولا يخادع ، يثق كثيرا ويحسن بالناس الظن :

« وقد كان حسن الظن بعض مذاهبى
فأدبنى هذا الزمان وأهله »

وهو وان كان وديعا يتحبب الى العلماء والفضلاء وذوى الجاه ليستعين على سفره بجوائزهم ان كانوا أغنياء ، ويستفيد من علمهم

56) تاج المفرق .

ودعائهم ان كانوا متصوفين أو علماء ، فان ذلك لم يمنعه قط من أن يكون صريحا صادقا ، وقد برهن على هذا الخلق فى ترجمته لعماد الدين الكندى الذى لاحظ أنه لم يكن يذكره لدى اقامته بالاسكندرية لاول مرة ، وأنه عندما عرج عليه للمرة الثانية رأى من واجب العلم والامانة أن يقف ببابه ويتملقه حتى يتنازل ويعطيه من مروياته ، ولذلك يقـول البلوى (ثم رأيت أن اهمال ذكره اهمال لقدره ، واخلال به بين أهل قطره فشفعت فيه علمه ، واعلقت هذا الديوان اسمه ، وقد علم الله أنى لا أمين ولا أميل ، واعتبر الكثير القبيح اذا أتبعه النزر الجميل) . وهكذا يفصـح البلوي عـن شيمته الصادقة ، وغضه الطرف عـن الذين لم يحسنوا اليه فى غربته فهو بذلك يعد أمينا جديرا بالثقة والاعتماد على مرويـاتـه . . .

شاعرية البلوي

أولع أبو البقاء برواية الشعر العربى وحفظه وبالاخص الشعر الاندلسى ، وكتابه تاج المفرق ملىء بمحفوظاته فى هذا الباب ، وقد روى لنفسه كثيرا من القصائد والمقطوعات فمنها ما ارتجله بمصلى تونس فى عيد النحر من سنة 737 هجرية عندما اشتدت به الابابة (1) :

أتى العيد واعتاد الاحبة بعضهم ... ببعض وأحباب المتيم قد بانوا
واضحى وقد ضحوا بقربانهم وما ... لديه سوى جمر المدامع قربان

ومن شعره :

ولقد جرى يوم النوى دمعى دما ... حتى أشاع الناس أنك فانى
والله ان عاد الزمان بقربنا ... لكففت عن ذكر النوى وكفانى

وله قافية طويلة فى طبرق منها :

أيا ليلة جمعت بمرسى طبرق ... أجلى صباحك عن نوى وتفرق
ألفت بين مفرق ومجمع ... وجمعت بين مغرب ومشرق
ضحك الفراق لنا وقد عبس الدجى ... فبكيت فيه بدمعى المتدفق

---

(57) الابتهاج ترجمة البلوى ص 99 .

ومـن شعـره :

ومستنكر شيبى ومـا ذهب الصبا ... ولا جـف ايناع الشبية من غصنى
فقلت فراقـى للاحبـة مـؤذن ... بشيبىوان كنتابن عشرين منسنى

ومـن شعـره : (1)

بعثـت خيـالا والعواذل ضجـع ... فسرى ينـم بـه شذا يتضـوع
ودنا يعاطينى الحديث على دجى ... كأس الثريا فى يديه تشعشـع
وكأنمـا الاكليـل جام مذهـب ... بيواقـت الجوزاء فيه مرصـع
نادمت فيه أخـا الغزالة جـؤذرا ... يغـدو بأكناف القلوب ويرتـع
فى ليلة لا الوصل فيهـا بيننـا ... خجـل ولا قلب العفاف مـروع
رق الهواء بها ورق لـى الهـوى ... فمشـى موشى بيننـا وموشـع
يـا جيرة جار الزمان ببعدهـم ... لم يخل منكم فى فؤادى موضـع
لم تسكنوا وادي الاراك وانمـا ... قلبى مضيفكـم ودمعى المربـع
والله مـا ضحك الربيع بربعكـم ... الا وعـن عينـى بمـزن يهمـع
واذا شكـوت الى الصديق فانـه ... يسليـك أو يغنيـك أو يتفجـع
يـا بارقـا تنشق عنه سحابـة ... عن مثل مدمعى المسفـوح وتقلـع
أشبهت مـن أهواه حسن تبسـم ... فاصبـت الا أنـه هـو أنصـع
باللـه خذ عنى تحيـة نـازح ... لم يبق فيـه اليـوم فيما يطمع

---

58) الكتيبة الكامنة لابن الخطيب ص 138 تحقيق الدكتور احسان عباس .

واقرأ على الجزع السلام وسح من | قطرات دمعك حيث تلك الاربع
ما كان أطيب عيشنا الماضى بها | لو كان ذلك العيش فيها يرجع
أيام نغفر للصبا ذنب الهوى | ونشفع الوجه الجميل فيشفع
ما سرنى تبديد دمعى لؤلؤا | وعهدته بيد الحسان يجمع

ومن شعره الذى ارتجله بالاسكندرية :

شكوت هواه الى ردفه | وهل يسمع الموج شكوى الغريق
وأرخصت لؤلؤ دمعى به | ولم أدر كيف يباع العقيق

وله قصيدة رائعة أنشدها لما تراءت له المدينة المنورة شوقا وحنينا لزيارة قبر الرسول . كما أنه عالج الموشحات وكان له فيها شأن يذكر .

وكذلك كان البلوي حسن الخط يكتب بسرعة واتقان وقد وصف ابن نباتة خطه بقوله ، (يتنافس فيه البصر والسمع) وكما كان البلوى حسن الصوت يتملى الناس برنين انشاده وقد قال فيه ابن نباتة (يقرظ اذنا ببيانه وصوته) .

المناصب التي شغلها البلوي

كان البلوي قاضيا بقتورية ثم ببرشانة ، ومنصب القضاء من أهم الوظائف بالاندلس لا يشغله الا أكبار العلماء ، كما أهلته مواهبه الادبية ليكون كاتبا أيضا ، فاستكتبه السلطان أبو يحيى بن أبى زكرياء الحفصى بتونس سنة 740 هجرية ، وفى عهده زخرت تونس بالكتاب الكبار كابن خلدون والابلى واضرابهما واحترف البلوي التعليم فكان مدرسا بالاسكندرية مدة اقامته بمصر .

اتصالات البَلَوي

كان البلوي شغوفا بلقاء الادباء ورواية الشعر ، واستجازة العلماء والمتصوفة ، لذلك رحل الى الحجاز لاداء الفريضة والاتصال بالعلماء ورجال الفكر فى العالم الاسلامى ، ومكث فى رحلته خمسة أعوام الا شهرين اثنين وثمانية عشر يوما ، وقد أثرت هذه الرحلة الطويلة فـى سلوكه الشخصى ، فتمشرق كما يذكر عنه ابن الخطيب (1) فى الاحاطة (شهرته النزعة الحجازية فلبس من خشن الحجازية ، وأرخى مـن البياض طيلسانا وتشبه بالمشارقة شكلا ولسانا ، وصبغ لحيته بالحناء والكتم ولاث عمامته واختتم) والواقع أن أبـا البقاء البلوي كـان شخصية محبوبة كما يظهر من خلال رحلته التى لا تظهر ميزة أسلوبه المين واطلاعه الواسع بقدر ما تعبر عن نبله وجاذبيته وقوته علـى النفاذ الى قلوب العلماء والادباء حيث لا يكاد يمكث قليلا فى أية بلدة حتى يتعرف على رجالها فى سهولة ويسر . وصفه ابن الخطيب بأنه جميل العشرة ، ووصفه أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الحضرمى بالعلم والتخلق والفضل وهو صديقه الحميم ، واثنى عليه فى كتابه وكـان محترما بين علماء المشرق ، فقد عرفوا قدره وعلمه ومكانته لذلك فانه عندما سمع به ابن نباتة وهو من ألمع شخصيات الشرق أسـرع فى القيام ، وبادر الى اللقاء والى السلام ، (حتى خجل من فعله وعجب من فضله واستشهده شعره (2) ووصفه ابن نباتة أيضا بقوله : الشيخ الامام العالـم الكامـل .

59) الجزء ـ 7 ـ الاحاطة بمخطوط الرباط .
60) تـاج المفـرق : البلـوى .

رحلات البلوي

كان البلوي شغوفا بالرحلة والاسفار ، فقد رحل أولا الى فاس للدراسة بها ثم رحل ثانيا الى المشرق لاداء فريضة الحج ثم رحل ثالثا الى شرق الاندلس للتجول فى هذه الناحية تمتينا للاتصال بالعلماء وتبادل الرواية معهم ، أما الرحلة الاولى الى فاس فقد ذكر البلوي فى رحلته غير ما مرة أنه درس بالاندلس وبغرب العدوة ويعنى الاندلسيون بالعدوة بلاد المغرب كما ذكر القلقشندى (2) ، وقد ذكر فى فهرسته بعض تفاصيل عن هذه الرحلة فعسى أن نعثر عليها ، ولا شك أنها مشتملة على تراجم للعلماء الذين أخذ عنهم بفاس ، وقد كانت متداولة فى عصر ابن القاضي الذى ذكر شيوخ البلوي بفاس (3) ، والغريب أن البلوى لا يهتم كثيرا بالحديث عن شيوخه بفاس بينما يهتم بذكر شيوخه الاندلسيين مع أن من المحقق أنه رحل الى فاس قبل رحلته الى المشرق كما يستفاد من الرحلة .

وأما رحلته الثانية ، فكانت الى بلاد المشرق ، وهى التى ألف فيها كتاب تاج المشرق .

وأما الرحلة الثالثة فكانت تنقلات فى شرق الاندلس وفى غرناطة والمرية ويلش وغيرها .

---

61) كانت طريق الحج من المغرب الى مكة معبدة للحجاج ، بل ان بعض الفرق الصوفية اهتمت بتنظيم التنقلات الحجازية كما فعلت فرقة الامام ابى محمد صالح الماجرى المتوفى (سنة 631) كما فى (آسفى وما اليه) للكانونى ص 100 ج 2 . وكانت هناك تنظيمات دقيقة لسفر الحجاج وتشجيعهم ، فكان الركب السجلماسى ، والركب الفاسى ، والركب المراكشى ، والركب البحرى وقد كتبت منظومات لوصف طريق الحج كنظم الشيخ محمد بن محمد المرابط الدلائى المتوفى سنة 1099 ، والرحلة العامرية (راجع كتاب ركب الحج المغربى) .

62) القلقشندى : صبح الاعشى الجزء 5 .

63) ابن القاضى ، جذوة الاقتباس خزانة الرباط ص 517 رقم 1242 .

الرحلة الحجازية

هى رحلته التى قام بها من بلدة قيتورية قاصدا حج بيت اللـه الحرام وزيارة قبر الرسول عليه السلام ، وقد اكمل أبو البقاء هـذه الرحلة فى أول شهر ذى الحجة سنة 740 هـ وصف فيها تلك البلاد التى نزل بها وقام فيها . وفرغ من تأليف رحلته فى آخر يوم شهر ربيـع الاول سنـة 768 هـ .

ويظهر أن المؤلف كتب رحلته أولا وتناقلها الناس عنه ، ثم بـدا له أن يكتبها مرة ثانية وعرضها على أصدقائه من العلماء فقرظوها ، وهى التى احتفظ بها حفيده ونشرها من جديد تلافيا لكل الناس وهـذا هو سبب ما يظهر مـن عدم الاتفاق فى بعض النسخ ؛ وتعتبر رحلـة البلوي ذات قيمـة كبرى سواء من الوجهة التاريخية أو الادبيـة أو الاجتماعية أو العلمية فقد كان يسجل مذكراته بضبط تام وبدقة ولا يعتمد على ذاكرته ، وقد أتيح له بفضل ما أوتيه من لباقة ودراية أن يتصل بالاعلام ورجال الفكر فى أهم حواضر الاسلام فكان أول من حمل الى الاندلس والمغرب ديوان ابن نباتـة ومجموعة أشعار شهاب الدين ابن أبى الثناء الحلبى وعددا عديدا من الكتب وقد ذكر (معاهد الوجهة المشرقية وألم فيها بذكر بعض الشيوخ من العلماء الفضلاء الذيـن يجرون ذيول البلاغة) وكما قال فى رحلته . . .

. . . (وألمع الى ذكر نبـذ من فوائدهـم واختيار طرف مـن أناشيدهم ومزجت بما جرت اليه العبارة وحسنت اليه الاشارة من قطع الشعر المنافسة قطع النور المنتظمة من جواهر اللفظ) (1) . . وقد جاءت رحلته طبقا لما ذكره فوفق فيها توفيقا كبيرا . .

---

(64) تـاج المفـرق .

واتصل فى رحلته بالامراء والرؤساء الذين كانوا يعملون على توحيد العالم الاسلامى ليواجه الضغط المسيحى ، لذلك انتشر فى عهدهم الامن ، وتحسنت المواصلات ونقارب العلماء فاستقضى البلوى فى الاندلس فى عصر السلطان أمير المسلمين أبى الحجاج يوسف بن أمير المسلمين الشهيد أبى الوليد بن نصر ، وقبل ذلك استكتبه السلطان أبو يحيى أبو بكر ابن أمير المؤمنين زكرياء بن أبى محمد بن عبد الواحن بن حفص فتقلد الكتابة فى بلاطه سنة 740 هـ ، غير أنه حن الى بلاده فغادر تونس يوم الخميس 16 رمضان سنة 740 هـ ، وكانت تلمسان فى عهده تحت حكم المرينيين حيث كانت محلة السلطان أبى الحسن بن أبى سعيد بن أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى واحتضنته كما كانت مصر التى دخل حاضرتها القاهرة فى 13 رجب سنة 736 هـ تحت حكم الناصر محمد (ابن السلطان الملك المنصور) قلاوون فأقام بها مدة طويلة رحالة متجولا ، ويعتبر هذا العصر من ألمع العصور الاسلامية ، شاهدت فيه الاندلس فى عهد بنى نصر آخر مجدها ، وعرف المغرب فى عهد بنى مرين عهودا ثقافية يانعة كما عرفت القاهرة والشام فى عهد الناصر محمد بن قلاوون أمنا وتقدما علميا وأدبيا .

مصادر كتاب الرحلة

ان المصدر الحق لرحلة البلوي هى تجربته الشخصية ووقوفه بنفسه على المشاهد والآثار والاتصال بالعلماء مباشرة للرواية عنهم والبلوي لا يعتمد فى ذكر المدن التى زارها على وصف ما جاء فى كتب الرحال والمؤرخين الذين سبقوه وانما يعتمد على مشاهدته بنفسه ، وينقل الاستاذ محمد عبد الله عنان (1) عن بروكلمان (2) أن البلوى

65) نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ــ محمد عبد الله عنان ــ الطبعة 2 ص 449 .

66) بروكلمان « تاريخ الادب العربى » ج 2 ص 266

انتفع فى كتاب (تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق) بما كتبه ابن جبير عن المشرق .

والواقع أن البلوي لم يشر الى هذه الرحلة ولم ينقل عنها شيئا ، بل ان طريق رحلته فى بعض الاحيان غير طريق سلفه ، واذا كان تشابه الوصف يقع بين الكاتبين فذلك يرجع لتشابه الموصوف ، وبذلك فان قيمة رحلة البلوي تبدو فى طراوة كتابتها وحيوية كاتبها الذي لم ينقل فى هذا الموضوع عمن سبقه وانما تحدث عن المشاهد الحية كما رآها .

ارتسامات الرّحلة

سجل البلوى فى رحلته عدة ملاحظات أدبية وانطباعات شخصية ، فقد التقى بصديقه ابن الحاج النميرى الذى خرج قبله فاتصل به فى الاسكندرية ثم لدى أوبته فى بجاية « وقد أصبح من كتاب هذه الدولة » وكان لقاء مليئا بالمفاجآت العاطفية وتبادل الذكريات ، كما التقى بأخيه أبى بكر محمد الذي خرج من قيتورية لاداء فريضة الحج فى يوم السبت أول صفر سنة 735 هـ ، أى قبله بنحو سنة ؛ فلقيه عندما كان قافلا الى الاندلس ميمما شطر مصر وبقى معه مدة طويلة وكان البلوي فى أثناء سفره يتصل بالمغاربة والاندلسيين فى كثير من البلاد الشرقية ، فيحن بعضهم الى بعض ، وأشار ابن بطوطة فى رحلته الى عدد من المغاربة من ذوى المكانة العلمية أو ممن كانوا يشغلون الوظائف الهامة ، أو من السياسيين اللاجئين ، وكانوا يتعاطفون بدافع الحنين الى مسقط الرأس لا سيما فى ذلك العصر الذى كانت وسائل التنقل فيه متعذرة ووسائل العيش مضنية ، وقد عبر العلامة الشاعر أبو حيان لمترجمنا عن هذا التعاطف بقوله :

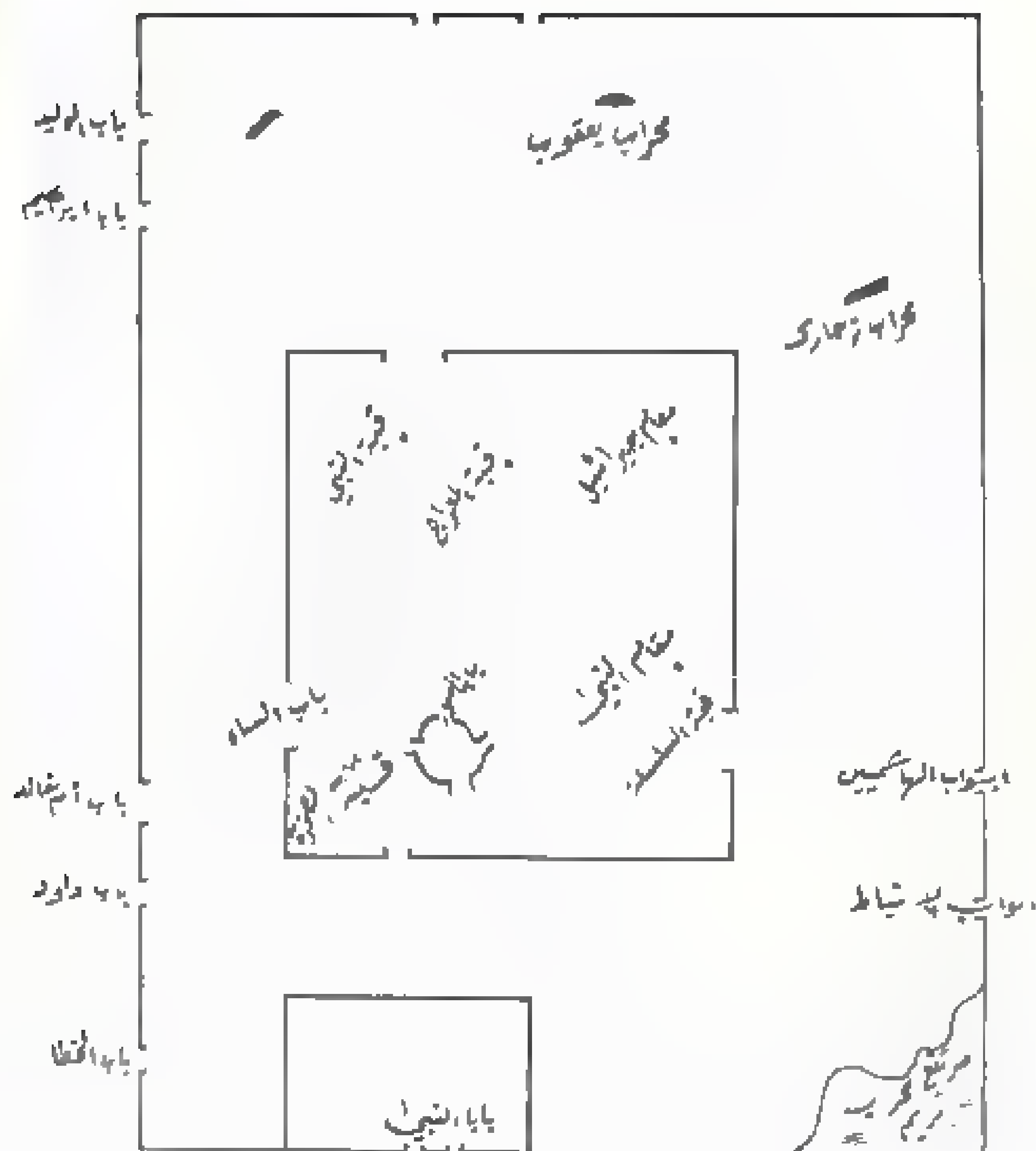
وبيننـــا نسب ترعى وان بعـــدت   لكوننـــا ننتمـــى فيهـــا لاندلس

ولكم دافع البلوي عن المغاربة والاندلسيين ، لان الشرقيين كانوا لا يعرفون الكثير عـــن الاندلس والمغرب ، كما عبر عن ذلك من قبـــل الصاحب ابن عباد ، لذلك نرى كثيرا من كتاب الاندلس وشعرائها يندون بذلك ، وكان ابن حـــزم وابن بسام (1) ممن دافعا عن قيمة الفكـــر الاندلسى ، وقاوما مركبات النقص عند بعض الاندلسين والمغاربة ، ومركبات الاستعلاء عند بعض المشارقة .

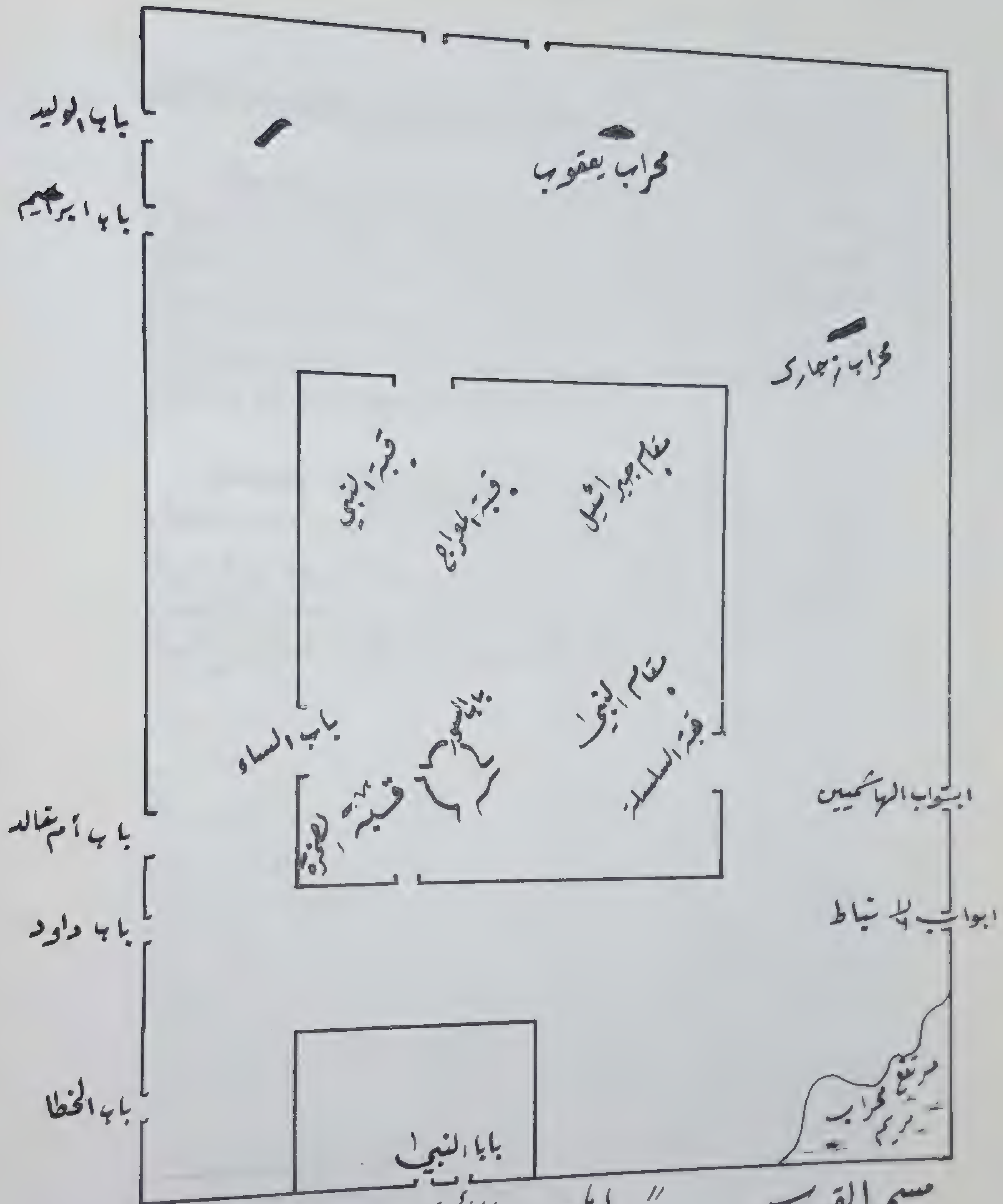
كما ينتقد البلوي ديوان الجمارك بالاسكندرية لتفتيش الصـــادر والوارد ، وقد سبقه الى ذلك ابن جبير الذى رفع قصيدة فى الموضوع الى صلاح الدين الايوبى ، وانتقده كذلك أبو عبد الله محمد بن رشيد والعبدرى الحاحى وابن بطوطة مما يدل على الجور الذى كان يعانيه الحجاج والمسافرون على يد الجمركيين فى القرن الثامن .

---

67) ابن بسام ــ الذخيرة ــ ج 1 ص 2 .



مسجد القدس "المسجد الأقصى"
كما صوره جغرافيو المسلمين القدماء



مسجد القدس "المسجد الأقصى (١)"
كما صوره جغرافيو المسلمين القدماء

الجانب التاريخي لرحلة البَلَوي

البلوي في رحلته المشرقية

الرحالة الاندلسيون والمغاربة في عصر البلوي

بين ابن بطوطة والبلوي

مقارنة بين أسماء الأعلام عند البَلَوِي وابن بطوطة

افريقيا الشمالية
في القرن التاسع الهجري

طريق رحلة البلوي

افريقيا الشمالية
في القرن التاسع الهجري

طريق رحلة البلوي

البلوي في رحلته المشرقية

تبدأ الرحلة بمقدمة ، وبعدها سرد عن خروج البلوي من قتورية الى المرية حيث ركب (غراب دار الصنعة) يوم الاحد 7 جمادى الاولى سنة 735 فوصل هنين وتلمسان والجزائر فبجاية فقسطنطينة فالعناب ، فبونة ثم وتونس التى غادرها فى 17 ربيع الثانى سنة 737 ﻫ الى قوسرة ، مالطة ، قبرص ، الاسكندرية فالقاهرة التى دخلها فى 13 رجب سنة 737 ﻫ فى عهد الناصر محمد قلاوون الذى كانت علاقته حسنة جدا مع الاندلس المغرب كما يظهر ذاك من رسالة أوردها المقري من انشاء الكاتب ابن الخطيب موجهة من الغنى بالله الى الناصر ابن قلاوون وقد خرج البلوي من القاهرة يوم الاثنين 28 رجب سنة 737 ﻫ الى غزة فمدينة الخليل ، فبيت المقدس ، فالكرك ، فتبوك ، فالعلاء فهدية فوادي القرى الى (المدينة المنورة) ثم خرج البلوي من المدينة فى 23 ذى القعدة الى (ذى الحليفة) (فوادى الصفراء) فرابغ ، فخليص ، فبطن مر ، الى (مكة) فدخلها فى 5 ذى الحجة سنة 537 ﻫ ، ثم قفل راجعا الى وادى العقيق فالمدينة فى 23 ذى الحجة عام 737 ﻫ ، فالينبوع ، فعقبة ايلية ، فوصل اليها فى 16 محرم 738 ﻫ) ثم واصل السير الى القدس ، فالرملة ، فغضة ، عسقلان ، فقاطية ، فمصر ، فغوة ، فالاسكندرية ، فالغمارى . وامتحن فى دشار الغماري التى بلغها مع أخيه محمد فى ربيع الاول سنة 738 ﻫ ثم رجع الى الاسكندرية وغادرها فى أول شوال سنة 738 ﻫ مارا بطبرق وتونس (سنة 740 ﻫ) وباجة والعناب وقسطنطينة ، وبجاية ، وجبل الزاب ، والجزائر ، وتلمسان ، وهنين ، حيث ركب منها قرقورة الى (المرية) ومنها الى مجاقر بضفتي نهر وادي المنصورة وأخيرا بلغ قتورية ولكنه لم يكد يستقر فى بلدته

حتى أخذ يطوف بالمدن المجاورة لبلاه حيث قرظ رحلته بعض علماء المرية وغرناطة كما نرى فى آخر الرحلة .

وكانت رحلته الى المشرق جميلة وممتعة ، (استفاد منها وأفاد ، وتبادل الانشاد) ، كان محترما اينما حل ، وارتحل ، بل لقد شغل فى تونس وظيفة سلطانية سامية ، حيث استكتبه أبو يحيى أبو بكر ابن زكرياء الحفصى ولكنه حن الى بلده فقدم استقالته معتذرا كما عرف البلوي فى رحلته عدة محن ، منها محنته عند عودته الى المغرب بعد خروجه من الاسكندرية حيث تآمر عليه صاحب المركب ، ففر تاركا أبا البقاء وأخاه فى العراء فتكبدا شقاء مريرا وجوعا مؤلما حتى رجعا الى الاسكندرية ، ومنها محنته بعد خروجه من بجاية التى كانت تحت امرة أبى زكرياء يحيى بن يحيى بن أبى بكر حيث اعترض قافلتهم عربان جبل الزاب ، فوقعت معركة انهزم فيها أعداؤهم ، وسلم الله أبا البقاء . . . وعكف المؤلف بعد عودته على مراجعة رحلته التى وضعها أثناء حجه فأكملها (ببرشانة بوادي المنصورة) فى اليوم الاخير من شهر ربيع الاول عام 767 هـ وأضاف اليها تقريظ العلماء والادباء الذين أطلعوا عليها ثم أخرجها حفيده خالد بن أحمد بن خالد المؤلف بعد أن انتسخها من مبيضة جده واتمها ببرشانة فى الحادي والعشرين من شهر صفر سنة 819 هـ .

الرحالة الاندلسيون والمغاربة في عصر البلوي

يعسر أن نتتبع رحلات الاندلسيين ، والمغاربة الى المشرق (1) فى عهد البلوي لنقارن بينها جميعا ، ويظهر أن هناك رحلات مدونة ولكن لم يصل الينا كثيرا منها على أن أشهرها رحلة صديقه الحميم الكاتب

---

68) اقدم رحلة نسج على منوالها كتاب هذا الفن ، هى رحلة ابى بكر بن العربى الاشبيلى المتوفى سنة 543 .

ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم النميري الذي ولد سنة 713 هـ وتوفى سنة 768 — 1467 م ، وهو صديق ابن الخطيب ، كما ورد فى الريحانة ، نشأ بغرناطة وترسم فى كتابة الانشاء سنة 734 هـ ، ثم رحل الى المشرق فأدى الفريضة ، واثناء عودته أقام ببجاية حيث خدم بعض ملوكها ثم رحل الى المغرب فاستكتب فى دولة بنى مرين ثم رجع الى الاندلس فاشتغل بالسفارة وولى القضاء بمرية قرب غرناطة ، وقد وفد فى سفارة الى السلطان أحمد بن موسى صاحب تلمسان فركب البحر من المرية سنة 768 هـ واستولى الافرنج على المركب وأسروه واضطر السلطان أن يفديه بمال كثير ، وترك عدد كتب نخص بالذكر كتاب المسألة والمسامحة فى تبيين طرق المذاعبة والممازحة وكتاب تنعيم الاشباح فى محادثة الارواح ، وفيض العباب وقداح الآداب فى الحركة الى قسطنطينة والزاب .

ومنهم أبو اسحاق الساحلى ، وهو شاعر أديب ترك بلاد الاندلس الى مصر والشام والعراق واليمن والحجاز واستقر بها ، على أن أشهر الرحال فى هذا العصر هو ابن بطوطة بلا جدال . . ويلاحظ أن الرحلات الحجازية ضعفت فى القرن الثامن والتاسع بسبب دعوة العلماء الى الجهاد وايثاره على الحج . وفى كتاب الاستقصا للناصرى ذكر لفتاوى العلماء ومنها فتوى للامام ابن رشد لتقديم الجهاد على الحج (أنظر الاستقصا ج / ص 8 .

بين ابن بطوطة والبلوي

يحق لنا أن نقارن بين ابن بطوطة والبلوي من بعض النواحى ونفارق بينهما من نواحى أخرى ، فقد سافرا معا فى وقت متقارب ، اذ بينما دخل ابن بطوطة تلمسان سنة 725 دخلها البلوي سنة 736 هـ ، وبينما وفد ابن بطوطة على مكة للمرة الثانية سنة 732 هـ دخلها البلوي

سنة 737 هـ ، وفى هذه السنة كان ابن بطوطة يتجول فى الهند ، ولما وصل الى فاس سنة 749 هـ كان البلوي يتجول فى الاندلس ، وعندما كان قاضيا ببرشانة وزارها ابـن الخطيب سنة 748 هـ كان ابن بطوطـة بغرناطة . واذا فقد رحل كل من البلوي وابن بطوطة فى وقت واحد ، ولم يكتب ان يتصل احدهما بالآخر ، وعلى الرغم من أن ابن بطوطة وصل الى غرناطة سنة 750 هـ — 1350 م واتصل بأساتذة البلـوي كمحمد بن عاصم القيسى (69) ، وتعرف بأحد الرحالين الشرقيين (70) فانه لم يتصل بالشيخ البلوي بينما لقى ابن الخطيب فى نبلة ببستـان أبى قاسم ابن عاصم ، وكان بهذا المجلس ابن جزى الذى كتب الرحلة لابن بطوطة فيما بعـد .

وقد سلك كل من البلوي وابن بطوطة طريقا واحدا من افريقيا الى تونس ، حيث سافرا معا عن طريق تلمسان ومليانة والجزائر وبجاية وقسطنطينة وبونة وتونس ، ثـم افترقا حيث سافر البلوي الـى الاسكندرية بحرا عن طريق جزيرة قوسرة فمالطة فاقريطش فجزيرة أشغرباطة فقبرص فالاسكندريـة على حين يتابع ابن بطوطة طريـق سوسة فصفاقس . . . الخ ، وكان سلطان تلمسان فى عهد ابن بطوطة أبو تاشفين عبد الرحمن موسى بن عثمان بن يغمراس بـن زيان أمير بجاية من قبل الموحدين فى عهد ابن بطوطة هو محمد بن سيد النـاس الحاجب الذى وصفه ابن بطوطة بالظلم ، بينما يذكر البلوي أنهـا كانت تحت نفوذ أبى زكرياء بن يحيـى .

وكان سلطان تونس فى عهد ابن بطوطة أبو يحيى أبى زكرياء بن أبى حفص الذى مدحه ابن بطوطة وتكلم عن عنايته بالعلم ، وذكـر بعض من عاصره من العلماء وهو نفس السلطان الذى استكتب البلوي

وقد اتفق كل من البلوي وابن بطوطة فى وصف منار الاسكندرية وعمود السوارى بها رغم أنها استولى عليه الخراب لما عاد ابن بطوطة الى الاسكندرية فى طريقــه الى المغرب سنة 750 هـ .

أما مصر فقد كانت فى عهد ابن بطوطة تحت حكم الناصر محمد بن قلاوون وفيها من كبار العلماء شمس الدين الاصبهانى وغيره ، واتفــق البلوي معه فى الثناء على هذا السلطان والاشادة بالامن الذي ساد بلاده، ويلاحظ البلوي مشاهد بالقاهرة ، أن المراكب المعدة للصيد والركوب يبلغ عددها مائة ألف مركب ، ما عدا الزوارق الصغار ، وقد أخبره شمس الدين الكركى أن الجمال الداخلة الى القاهرة فى كل يوم بلغت مائتى ألف جمل عدا البغال والحمير والسقائين الذين بالزقوق ، وأحصى دكاكين السقائين المعدة للسقى فبلغت ستين ألف دكان عدا السقائين الذيــن يسقون بالاكواب والاكواز فى الطرق والاسواق ، وأخبره من يثق به أنهم أحصوا المراكب المعدة لا يساق الزرع فالفوها تنيف على مائــة ألف مركب ماعدا الزواريق الصغار التى تستعمل للصيد والركوب وغير ذلك ويكتمل فى المارستان العظيم فى القاهرة فى كل يوم من المرضى الداخلين اليه والناقهين الخارجين منه أربعة آلاف نفس وتارة يزيدون وينقصـــــون .

ويذكر ابن بطوطة ان بمصر من السقائين اثنى عشر ألف سقــاء وان فيها ثلاثين ألف مكار وان بها من المراكب ستة وثلاثين ألفا .

ويقول فريسكو بالدي الذي زار مصر سنة 1384 أى بعد نحو 60 سنة بعد رحلة ابن بطوطة أن عدد الجمال والحيوانات التى تنقل الماء تقدر بمائة وثلاثون ألفــا ، « أنظر الروائع » (ابن بطوطة) .

ولم يعط الرحالة الايطالى عدد المراكب فى النيل ، وانما استعظمها وقــال : لو جمعت المراكب التى شاهدها فى جنوى والبندقية وانكونا

بصرف النظر على المراكب ذات القنطرتين لما بلغت ثلث عدد المراكب التى شاهدتها بمصر .

ويختلف أبو البقاء مع ابن بطوطة فى تقدير مساحة المسجد النبوي ، فبينما يذكر البلوي أن طول المسجد 780 ذراعا وعرضه 450 يذكر ابن بطوطة أن طوله 752 دراعا وعرضه 435 ذراعا ، كما أن البلوي يذكر أن عدد أبواب المسجد النبوي الشريف تبلغ خمسين بابا ، ولم يشر ابن بطوطة لعدد أبواب هذا المسجد .

ويذكر البلوي مشهد قبر رابعة العدوية ، اما ابن بطوطة فيذكره كذلك ويزيد أنه لا ينسب الى رابعة المشهورة وانما يعزى الى البادية .

ويتفقان معا فى وصف الاماكن المقدسة ومكة المكرمة ، وقد شغف كل منها بملاقاة الرجال ، غير أنه بينهما يبحث البلوي على كبار علماء الحديث والادب ويتعرف عليهم ويتصل بهم فيأخذ منهم ويروي سندهم وينتسح كتبهم اذ بابن بطوطة يعنى بمعرفة أسمائهم واحيانا يزورهم فى منازلهم زيارة تخلو من الحنين الى الارتواء بعلمهم وتمكين السند ، فقد لقى ابن بطوطة عدة علماء ذكر أسماؤهم والقابهم ، غير حافل باختصاصاتهم وانما يتبرك بهم ، وخصوصا اذا كانوا من المتصوفة ، وربما سمع باسم العالم فذكر اسمه فى الرحلة ولو أنه لم يتصل به اتصالا شخصيا كما فعل فى تونس حين ذكر من أعلامها ابن الغماز الذي لا شك أنه لم يتصل به لانه توفى سنة 693 هـ وانما اتصل بخلفه الربعى الذي ذكر له اسم شيخه فاثبته فى الاعلام المعاصرين .

أما البلوي فيذكرهم بأسمائهم والقابهم ونعوتهم وتآليفهم مع تاريخ ولادتهم ، ثم يأخذ عنهم السند وينتسخ كتبهم ، وهذا فارق عظيم

بين رجل علم ورجل رحلة ، ثم من كان يسجل بدقة لغاية علمية عظيمة ، بينما كان ابن بطوطة مغذا فى سفره يمسح المعمور ثم يذكر مشاهداته فيما بعد ليسجلها ، ومن وجوه المفارقة بينهما أيضا أن ابن بطوطة كان رحالة قوى الملاحظة ، ذا ذاكرة قوية يلتقط المشاهد كلها فيثبتها فى رحلته ويقل اتصاله بالعلماء والمحدثين ، وانما يرغب فى زيارة الصوفية ليستدر بركتهم ، واما البلوي فقد كان لا يهتم بالمشاهد المألوفة ولا يسجل الارتسامات ويولى عنايته للاتصال بالعلماء والادباء ليستجيزهم ويروي لهم من أدب الاندلس ، والبلوي لا يحفل بالاثار كجغرافى أو العوائد كرحالة اجتماعى بل يذكر ذلك فى رحلته ذكرا عابرا ينقصه الوصف الدقيق وهو يمزج موضوعاته بما حفظ من الآثار النبوية والنصوص الحديثية ليبدى غزير علمه فى الموضوع .

وبينما نجد ابن بطوطة يبحث فى الاسكندرية عن الشيخ الكندى وأبى العباس المرسى وأبى الحسن الشاذلى نجد البلوي يتصل بيحيى بن محمد بن يحيى ابن الامان وشهاب الدين ابن عطاء الله والسيوري وابن البناء والهراوي ويتصل فى القاهرة بالشيخ تقى الدين على السبكى وعبد الله القلعى وابن فتوح .

ومن وجوه المفارقات ، ان ابن بطوطة لم يسجل رحلته وانما املاها من ذاكرته مما عرضه لكثير من الاخطاء ، اما البلوي فقد سجل رحلته فى اثناء اسفاره ، ولم يقع فى أي أخطاء جغرافية أو غيرها . . .

ويبدو أن البلوي قد أطلع على كتب الجغرافية بخلاف ابن بطوطة، فانه لا يتعرض لشىء من هذا بل يرتكب أغلاطا جغرافية تدل على عدم اطلاعه على كتب هذا الفن ، وانما تدل على مشاهدته للاماكن التى زارها فحسب .

وقد تعرض قطاع الطريق للبلوي عند عودته بحصن دشار الغماري ، ببرقة ، كما تعرضت لابن بطوطة طوائف العرب محاولة الايقاع به فى (سرت) ببرقة .

وركب البلوي الى الاندلس فىقرقورة فى مركب صغير سافر عليه ابن بطوطة من اللاذقية وغيرها ، كما أنهما شغلا بعض المناصب خارج بلدهما حيث تقلد البلوي الكتابة ببلاد تونس وتقلد ابن بطوطة منصب القضاء بمدينة (المهل) فى الهند ، ويلاحظ أن ابن بطوطة رحل قبل البلوي ، غير أن رحلته كتبت فى زمن متأخر عن رحلة البلوي الذى دون رحلته أيام تنقلاته ، وفى أثناء سفره الذي أتمه سنة 740 هـ وأكمل مراجعتها والحق التقاريظ بها سنة 768 هـ بينما دونت رحلة ابن بطوطة فى سنة 755 هـ — 1365 م .

مقارنة بين أسماء الأعلام عند البلوي وابن بطوطة

مقارنة بين أسماء العلماء والمتصوفة الذين اتصل بهم البلوي أثناء رحلته فى الذهاب والاياب والذين اتصل بهم ابن بطوطة فى رحلته . .

العلماء والمتصوفة الذين اتصل بهم البلوي :

فى الاندلس :

1 — أبو عبد الله بن الحباب .

2 — أبو عبد الله بن عبد السلام .

تلمسان :

أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن رشيد .

بجباية :

1 ـ المحدث أبو عبد الله محمد بن جعفر .

قسطنطينة :

1 ـ أبو الحسن على بن عبد الله .

2 ـ أبو الحسن بن عبيد الله .

تونس : (للمرة الاولى) :

1 ـ أبو الحسن على بن المنتصر الصدفى ـ توفى سنة 742 هـ (أنظر الزركشى) .

2 ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الستار التميمى امام جامع الزيتونة المتوفى سنة 742 هـ .

3 ـ أبو عبد الله بن فران .

4 ـ أبو عبد الله بن الحباب (توفى سنة 749 هـ كما فى الزركشى)

5 ـ أبو عبد الله بن عبد السلام (أنظر الزركشى) .

6 ـ أبو عبد الله بن عمر .

7 ـ أبو عبد الله بن حريز .

8 ـ أبو العباس النقارسى .

الاسكندرية : (للمرة الاولى) :

1 ـ يحيى بن محمد بن يحيى بن عبد الله ابن الامان بن خليفة بن أبى أرضية بن يقين بن تامشت بن على بن رجاء بن عبد المؤمن ابن ذي حى الصنهاجى ولقيهَ ابن بطوطة كذلك ويسميه الشيخ خليفة ولد سنة 667 هـ .

2 ـ أبو البركات محمد بن الشيخ فخر الدين أبى بكر محمد بن الشيخ شهاب الدين أبى محمد عبد الكريم ابن عطاء الله .

3 ـ أبو العباس أحمد بن الحسن بن على بن عبد العزيز بن عبد الله الكنانى الشافعى الشهير بابن المصطفى .

4 ـ أبو عبد الله بن عز الدين ابن القاسم عبد الرحمن بن شهاب الدين ابن محمد عبد الوهاب بن أبى عبد الله محمد ابن جمال الدين عطية المشهور بابن عطية .

5 ـ محمد بن أحمد ابن أبى بكر بن عوام الربعى الشافعى سبط أبى الحسن الشاذلى (تدمج معه بالاسكندرية) .

فى القاهرة : (للمرة الاولى) :

1 ـ شمس الدين الكركى .

2 ـ تقى الدين صالح بن مختار بن صالح بن أبى الوراس ولد سنة 642 هـ باعزاز من أعمال حلب .

3 – أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن على بن يوسف النفزى الاندلسى (توفى سنة 745 هـ) كما ورد فى كتاب الزركشى .

4 – برهان الدين ابراهيم بن نور الدين على المالكى .

5 – ابن مخلوف المغيلى .

6 – تاج الدين عبد الله بن على القلعى الاطفيجى .

7 – تقى الدين أبو الحسن بن عبد الكافى السبكى الشافعى .

8 – أبو عبد الله محمد بن أحمد بن فتوح المصغونى .

مدينة الخليل والقدس :

1 – شمس الدين محم دبن كامل الشافعى .

2 – أبو الحسن على الواسطى .

3 – أبو عبد الله محمد بن على بن ابراهيم الاموي القرشى الشافعى .

4 – شمس الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن عبد الناصر الكنانى الشافعى قاضى بيت المقدس .

5 – الخطيب أبو البركات زين الدين عبد الرحيم بن بدر الدين أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن جماعة الشافعى .

6 – صلاح الدين خليل بن كبكلدي بن عبد الله العلائي الشافعي .

7 – على بن أيوب منصور المقدسي .

8 – شمس الدين محمد بن على بن محمد بن منبت الخولاني (الاندلسي) .

9 – محمد بن محمد بن الحسين بن أبي الحسين بن صالح ابن طاهر بن نباتة صاحب الخطب الشهيرة .

في المدينة المنورة :

1 – أبو محمد بن عبد الله بن أسعد بن على اليافعي اليمني الشافعي .

2 – جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف الخزرجي المضرى السعدي العبادي .

في مكة :

1 – محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر المكي المشهور بخليل .

2 – أحمد بن ابراهيم الشافعي .

القاهرة : (للمرة الثانية) :

1 – أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف القرشي الحجازي (الصوفي) .

2 – أبو القاسم بن عبد الله بن أبى القاسم الشافعي (الخطيب)

فــى الاسكندريــة (للمــرة الثانيــة) :

1 ــ محمد بن الشيخ وجيه الدين أبى بكر بن عبد المنعم بــن علــى بن ظافر ابن مبارك الشافعــى .

2 ــ نجم الدين أبو الحسن على بن زين الدين محمد بن أبى القاسم هبة الله ابن الانصاري الخزرجى الملكــى .

3 ــ فخر الدين أبو محمد بن الحسن جمال الدين اسحاق بن ابراهيم الغنمى الانصــاري .

4 ــ شرف الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عز الدين بــن الكهــف القرشــى الشافعى .

5 ــ عماد الدين ابن الحسين بن أبى بكر الكندري .

6 ــ معين الدين محمد بن جمال الدين أحمد بن فتوح بن أربى الذكــر .

7 ــ تاج الدين عبد الوهاب بن هبة الله بن أحمد المقدسى .

8 ــ أبو العباس أحمد بن محمد بن أبى الفضل بن عاصم .

9 ــ جمال الدين محمد بن شرف الدين بن محمد المنير لــه .

10 ــ محمد بن الشيخ محيى الدين الزمانى المالى الشهيــر بابــن حاغــى .

الاسكندريــة (للمــرة الثالثــة) :

1 ــ علماء المدرسة السراجية (المنسوبة الى سراج الدين) .

2 ــ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ابن السروج عيسى بن أبى الحسن على بن أبى العلاء عبد الله الكنانى الشافعــى الشامــى الاسكنــدري .

3 – عز الدين أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن حباسة .

4 – شهاب الدين الساروردي (وهو غير صاحب كتاب عوارف المعـــارف) .

5 – جمال الدين أبو الفرج محمد بن محمد بن عبد الرحمـــن البلـــوي القضاعى المالكـــى .

6 – محيى الدين أبو عبد الله محمد بن عمرو بن عبد الوهاب ابن خلف العلامى الشافعـــى .

بعض العلماء الذين اتصل بهم ابن بطوطـــة

(تـــونـــــس) :

1 – أبو يحيى أبو زكرياء يحيى ابن أبى اسحاق بن ابراهيم بن أبى زكرياء عيسى بن عبد الواحد بن أبى حفص (سلطان تـــونـــــس) .

2 – أبو العباس أجمد بن محمد الخزرجى البلنسى ابن الغماز (أنظر الزركشى) توفى سنة 693 هـ قبل ابن بطوطة وخلفه الربعـــــى .

3 – ابراهيم بن حسن بن عبد الرفيع الربعـــى .

4 – عمر بن على بن قداح الهواري (ترجم له الزركشى) .

الاسكنـــدريـــــة :

1 – عماد الدين الكندي (امام من أئمة اللسان) .

2 — سلطان افريقيا المخلوع زكرياء أبو يحيى بن أحمد بن أبى حفص المعروف بالحبانى (وحاجبه) أبو زكرياء بن يعقوب (ووزيره) أبو عبد الله بن ياسين .

3 — فخر الدين الربعى .

4 — ياقوت الحبشى تلميذ أبى العباس المرسى .

5 — وجيه الدين الصنهاجى .

6 — شمس الدين ابن بنت التنسى وهو غير أحمد بن محمد بن عطاء بن عوض الزريري المشهور بابن التنسى (بفتح التاء والنون وكسر السين) 740 — 801 .

7 — أبو عبد الله الغاسى .

8 — برهان الدين الاعرج .

9 — أبو عبد الله المرشدي .

10 — بدر الدين ابن جماعة قاضى الشافعية (مصر) .

11 — شمس الدين الاصبهانى .

12 — (سلطان مصر) فى عهد ابن بطوطة الملك الناصر أبو الفتح محمد بن منصور .

13 — سيف الدين قلاوون الصالحى والى السلطة فى مصر (فى عهد ابن بطوطة) .

14 — عبد الله المنوفى .

15 — شرف الدين الزواوي .

16 — برهان الدين ابن بنت الشاذلى .

17 ــ برهان الدين الصفاقسى مؤلف اعراب القرآن أخذ عنه الخطيب بن مرزوق المولود سنة 710 . (أنظر التعريف ص 54) .

18 ــ ركن الدين بن القوبع التونسى (المعقولى) .

19 ــ قوام الدين الكرمانــى .

20 ــ شمس الدبن بن عــدلان .

21 ــ بهاء الدين بن عقيل ، عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل القرشى الهاشمى 698 ــ 769 ألف تفسير القرآن .

22 ــ أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف حيان الغرناطى .

23 ــ تاج الدين ابــن حنــاء .

24 ــ مجــد الدين الاقصرائــى .

بجــايــــة :

1 ــ أبــو عبد اللــه الزواوي .

2 ــ الامير محمد بن سيد الناس الحاجب (من عمال الموحدين بتــونس) .

تــــونــــس :

1 ــ محمد بن أحمد بن محمد بن حسن الانصاري الخزرجــى البلنسى (المعروف بابن الغماز) .

2 ــ الخطيب ابراهيم بن حسين بن على الربعــى .

3 ــ أبو على عمر بن على بن قداح الهواري .

العلماء الذين اتصل بهم البلوي فى تونس لدى عودته :

1 ـ أبو العباس أحمد بن عبد الله الانصاري الرصافى .

2 ـ أبو عبد الله محمــد هارون .

3 ـ عبد الله بن محمد أبى القاسم ابن البــرا التنوخــى .

4 ـ محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن يوسف الادريسى .

5 ـ أبو عبد الله بن عمر (توفى) وخلفه البلوي فى المنصب .

قسطنطينة :

1 ـ الامير عبد الرحمن بن أبى عبد الله محمد بن يحيى بن أبى بكــر .

الاعلام الذين اتصــل بهــم ابــن بطوطــة

فــى بيــت المقــدس :

1 ـ محمد بــن سالــم الغــزي .

2 ـ عماد الديــن النابلسى .

3 ـ شهاب الديــن الطبري .

4 ـ محمد بــن مثبت الغرناطــى .

5 ـ حســن المحجــوب .

6 ـ كمال الديــن المراغــى .

7 ـ عبد الرحمــن بن مصطفــى .

فـــى مكـــة :

1 ـ محمد بن الامام محيــى الديــن الطبــري .

2 ـ بهــاء الدين الطبــري .

3 ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المشهور بخليل .

4 ـ عبد الله بن أسعد اليمنى المشهور باليافعى .

وفـــى المدينـــــة :

1 ـ أمير المدينة كبيش بن منصور بن جماز .

2 ـ أبــو العباس أحمد بن محمد بن مرزوق .

الجانب الأدبي في رحلة البَلَوي

عنايــة المغاربة بفــن الرحلات وعلم الجغرافية

فــن الرحــلات فــى الاب المغربــى .

رحــلات مشرقيــة ومغربيــة .

نقــد الرحـــلات .

الرحــلات فــى أدب الملحــون .

الرحــلات فى أدب الموريسكــو .

رحلــة البلوي بين الرحــلات المغربيــة .

الاسلــوب الادبــى لفــن الرحــلات .

الاسلــوب الادبــى فــى رحلــة البلــوي .

رأي ابــن الخطيب فى كتاب تــاج المفــرق .

أهميــة رحلــة البلــوي الادبيــة .

المؤلفون المغاربة والأندلسيون في فن الرحلات

معجم بأسماء المؤلفين المغاربة فى فن الرحلات

ورد فى مقدمة كتاب الرحلة ذكر لعدد كبير من الذين ألفوا فى فن الرحلات ، وأذكر فى هذا المعجم بعض المشهورين ممن ألفوا فى هذا الفن ، أو اكتفوا بكتابه دراسات فى موضوع المناسك أو صنفوا فهارس بأسماء العلماء الذين تعرفوا بهم أثناء حجهم . . .

معجم بأسماء المغاربة والاندلسيين الذين كتبوا فى المشرقيات والرحلات :

ابراهيم السوسى العينى ــ المتوفى عام 1199 هـ ، 1784 م ، له رحلة الى الحجاز فى مجلدين ، وقف على نصفها بخط المؤلف فى مجلد المرحوم المختار السوسى ، وقد اختصرها محمد بن مسعود المعدرى ووقف على الاختصار كذلك الشيخ المختار السوسى وهو مبتور كالاصل .

وابن أبى عسرية أحمد الفاسى الفهري ــ 1137 هـ ، 1724 م ، له رحلة حجازية نقل عنها صاحب « نشر المثانى » فى ترجمة ابراهيم ابن محمد الشاوي السريفى .

وأحمد بن محمد أبو محمد اسحاق الخزاعى المعروف بابن الازفى الفاسى له « تاريخ مكة » ، نسخة بخزانة بألمانيا الشرقية عدد 1705 .

وابن جزي محمد بن أحمد ، 741 هـ 1340 م ، له فهرست كبيرة اشتملت على كثير من رجال المشرق ومن بينهم شيوخ الحجاز .

ابن رشيد السبتى المتوفى سنة 721 هـ له ملء العيبة .

ابن جعفر محمد بن ادريس الكتانى 1345 هـ ؛ 1926 م ، لـه « الرحلة السامية للاسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية » ألفها فى رحلته الاولى عام 1322 هـ ، 1904 م ومات دون اتمامها .

وابن حسون أحمد بن العربى الوزانى ، له « الرحلة الوزانيـة الممزوجة بالمناسك المالكية » فى 8 كراريس ، رحل الى الحجاز عـام 1269 هـ ، 1852 م .

وابن سعيد المغربى ، 685 هـ ، 1286 م ، له « النفحة المسكية فى الرحلة المكية » بالاضافة الى رحلته « عدة المستنجز » .

وعبد القادر ابن سودة ، ولد عام 1301 هـ 1883 م ، له « الرحلة الكبرى فى اخبار هذا العالم برا وبحرا » رحل الى الحج عام 1327 هـ 1909 م ، وهى تقع فى أربعة أجزاء طبع الاول والثانى منها بالطبعة الجديدة بفـاس .

وابن طوير الجنة أحمد المصطفى الصحراوى الحميرى الشجيطى له رحلة قام بها بعد عام 1245 هـ ؛ 1829 م وهو غير ابن الطوير عمر المـراكشـى .

وابن الطيب محمـد الصميلى الشرقى المتوفى بالمدينة المنـورة 1170 هـ ، 1756 ، له ثلاث رحلات منها رحلة قام بها عام 1139 هـ ، 1726 م توجد نسخة فى خزانة ليبسيـك .

وابن عثمان محمد المكناسى وزيـر السلطان المولى سليمـان ، 1202 هـ ، 1787 م . له « احراز المعلى والرقيب فى حج بيت اللـه الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب » ، نسخة لابن زيدان ضمت الى المكتبة العامة بالرباط .

وابن العربى المعافرى أبو بكر محمد بن عبد الله ؛ 543 هـ ، 1148 م ، له رحلة توجد نسخة منها فى مكتبة (الكتانى) التى ضمت الى المكتبة العامة بالرباط وهى فى أسفار ذكرها الناصري فى رحلته .

ابن مليح محمد بن أحمد له رحلة اسمها « أنس السارى والسارب » حققها الاستاذ محمد الفاسى .

وابن ناصر محمد بن عبد السلام 1239 هـ 1823 م ، مؤلف « الرحلة الكبرى » فى سفرين رحل عام 1196 هـ 1781 م اختصرها المراكشى فى الاعلام 193 ، 233 توجد نسخة فى خزانة تامكروت ونسخة بالمكتبة العامة بالرباط عدد 2327 ، وله رحلة صغرى قام بها عام 1211 هـ ، 1776 م .

وأبو رأس محمد بن أحمد بن عبد القادر الناصري المعسكري 1239 هـ ، 1824 م لـه « عجائب الاسفار » .

وأبو القاسم بن يوسف التجيبى السبتى رحل الى المشرق عام 696 هـ ، 1295 م . له رحلة وقف عليها ابن حجر ، كما فى « الدرر الكامنة » ، فى ثلاثة مجلدات ضخام حذا فيها حذو ابن رشيد الذى رحل قبله بعشر سنوات وزاد تضمين الرحلة مشيخته مستوعبة .

وأحمد الشيخ بن عبد العزيز بن الرشيد الهلالى ؛ 1175 هـ ، 1761 م ؛ له رحلة الى الشرق .

وأحمد بن عبد القادر بن على القادري عاش سبع سنوات فى القاهرة وتوفى بفاس 1133 هـ 1721 م ، له رحلة سماها : « نسمة الاس فى حجة سيدنا أبى العباس » ، أي أحمد بن معن الذى رافقه الى الحج عام 1100 هـ ، 1689 م .

وأحمد بن على بن محمد دينية الرباطى 1282 هـ ، 1864 م ، له رحلة الى الحج 1267 هـ ، 1850 م ، ذكرها حفيده فى كتابه « النسمات النديــة » ، طبعة الرباط 1936 .

وأحمــد بــن محمــد الهشتوكى لــه رحلــة « هدايــة الملــك العلام الى بيت الله الحرام وزيارة النبى عليه الصلاة والسلام » ، توجد بخط المؤلف بخزانة تمكروت بالصحراء رقم 276 ، وقد شرع فى هذه الرحلة عام 1096 هـ ، 1684 م .

وادريس بن عبد الهادي الشاكري 1331 هـ ، 913 ام . له رحلة حجازية فى كراستين توجد نسخة منها فى المكتبة العامة بالرباط عــدد 1115 د .

والحسن اليوسى له رحلة جمعها ولده محمد قام بها عام 1101 هـ 1689 م .

وعبد الرحمن المدعو رحو الغنامى الشاوي ، له رحلة أشار اليها صاحب « صفوة من انتشر » ونقل عنها فى « نزهة الحادي » .

وعبد السلام بن محمد بن المعطى السرغينى العمرانى .

وعبد الله بن أحمد أبو مدين الرودانى الدرعى ، له رحلة حجازية ينقل عنها ابراهيم العينى فى رحلته ، نسخة بخزانة تمكروت فى مجلد .

وعبد الله بن محمد الوردي المراكشى كان حيا عام 999 هـ ، 1590 م له رحلة حجازية ذكرها ابن القاضــى فى درة الحجال ج 2 ص 342 .

وعبد الله بن محمد بن محمد بن أبى بكر أبو سالم العياشــــى 1090 م ، 1679 م له رحلة اسمها « ماء الموائد » فى مجلدين طبعت

بفاس عام 1316 هـ . 1898 م اختصرها محمد بن الحسن بنانـــى ، ورحلة أخرى سماها : « تعداد المنازل » ألفها لتلميذه أحمد بن سعيد المكـــلاتـــــى .

وعبد المجيد بن على الزبادى المنالى الفاسى 209 هـ ، 1794 م له رحلة سماها « بلوغ المرام بالرحلة الى بيت الله الحرام » توجد نسخة منها فى المكتبة العامة بالرباط رقم 1808 د ، فى 184 ورقة ، وقد تضمنت قصيدة رائية فى 129 بيتا جامعة لمراحل الحجاز من مصر الى مكة مع مناسك الحج عليها شرح اسمه « اتحاف المسكين الناسك ببيان المراحل والمناســك » .

وعبد الواحد بن الصنهاجى السوسى 1135 هـ ، 1722 م لـــــه رحلة ذكرها الشيخ الحضيكى فى الطبقـــات .

والعربى بن على المشرقى المعسكري المتوفى أوائل العشر الثانية من القرن الرابع عشر لـــه « الرحلة العريضة فى أداء الفريضة » يوجد طرف منها فى الخزانة السودية بفـــاس .

والعربى بن محمد الدمناتى ، له رحلة ذكرها أبو عيسى المهدي ابن سودة فى ترجمته من فهرسته وقد رحل قبل 1244 هـ ، 1828 م وهى تعد مفقودة .

ومحمد بن أحمد بن عبد الله الحضيكى له رحلة حجازية ، نسخة بالمكتبة العامة بالرباط عدد 896 وأخرى بالمكتبة الملكية عدد 0405 .

ومحمد بـــن الحسن السبعى له رحلة قام بهـــا عام 1310 هـ ، 1892 م ، توجد نسخة منها بمكتبة الكتانى الملحقة بالمكتبة العامـــة بالربـــــاط .

ومحمد بن سعيد الرعينى الفاسى 778 هـ ، 1376 م . «ه رحلة تنظم فيها مراحل الحجاز جذوة الاقتباس ص 147 .

ومحمد بن سليمان بن دواد الجزولى 863 هـ ، 1458 م له رحلة ذكرها ابن القاضى فى « لقط الفرائد » ومحمد الاسافى المتوفى 1150 له رحلة كانت بها الاميرة السيدة خناثة بنت بكار .

ومحمد بن عبد الله الولاتى الشهير بمولاي الشريف 1101 هـ ، 1689 م له رحلة حجازية رحلة المشرفى المسماة « الرحلة العريضة لاداء الفـــريضـــة » .

ومحمد بن على الرافعى النطوانى له الرحلة الشرقية الحجازيـــة تاريخ تطوان ج 1 ص 312 .

ومحمد بن على الطرابلسى المعروف بزغوان ، له رحلة اسمهـــا « النفحات القدسية فى الرحلة الحجازية » ـ توتد نسخة بالمكتبة العامة بالرباط عدد 1836 د .

ومحمـد بـن علـى المعروف بالعياشـى ، لـه رحلـة حجازية ذكرها عبد المجيد بن على الزبادي المنالى فى رحلته حيث وقف عليهـا فى مجلد بخط المؤلف بخزانة رواق المغاربة بالازهر .

ومحمد بن محمد المرابط الدلائى الفاسى ـ 1099 هـ ، 1687 م له الرحلة المقدسة ـ 136 بيتا ـ ذكر فيها منازل الحج من فاس الـى المدينة المنورة راجع (البدور الضاوية لسليمان الحوات) .
ومحمد بن محمد التامراوي ـ 1285 هـ ، 1868 م . له رحلـة قام بها عام 1242 هـ أوردها بنصها المرحوم محمد المختار السوسى فى كتابه المعسول ـ ج 8 ص 198 ، 213 ، حلـة استيراد المؤلـف لكتب كثيرة بخط مشرقى .

ومحمد بن منصور العامرى ــ المتوفى حوالى 1176 هـ ، 1756 م له « الرحلة العامرية » وصف فيها المراحل من تازا الى الحرمين والشام وهى همزية نظمها فى 335 بيتا عام 1152 هـ .

وأحمد بن عبد الله الغربى الرباطى ــ 1178 هـ ، 1764 م ــ رحل الى المشرق عام 1140 هـ ، 1727 م وطار صيته فى الحجاز .

ومن العلماء الحجاج ممــن صنفوا فى « مناســك الحج وآداب الزيارة » أحمد بن قاسم جسوس ــ 1331 هـ ، 1912 م ــ الذي توجد مخطوطة كتابه فى المكتبة العامة بالرباط عدد 1821 ــ

وسليمان بن أحمد الطنجى المتوفى قبل 440 هـ ــ 1048 م كما فى (جذوة المقتبس ص 208) وهو من المغاربة الذين جاوروا فــى الحجاز وطافوا المعمور .

وموسى بن ابراهيم أبو هارون الاغماتى المحدث المشهور ــ 516 هـ 1122 م ــ الذى التحق بعد أن أقام فى الحجاز بمصر وخراسان وما وراء النهر وأقام بنيساتور كما فى طبقات السبكى ومعجم ياقــوت الحموي ــ .

وعلى بن عتيق بن عبد الرحمن الفاسى الاصولى ــ كان حيا عام 726 هـ ، 1325 م ــ .

ومحمد بن موسى المكى الذى سمع من شيوخ مصر ثم رحل الى الشام والقدس واليمن حيث ولى مدرسة الناصر وقام بها الى أن توفى عام 823 هـ ، 1420 م .

ومحمد بن محمد العقاد المكى 1030 هـ ، 1620 م الذي مدح المنصور لدى خاقان ملك الاتــراك .

ومحمد المجيدري اليعقوبى المغربى الذي كانت كانت له جولات فى الحجاز وسائر أقطار الشرق .

وعبد اللـــه السوسى الاديب الشاعر الذى أقام بتونس وفـــاق أقرانه ثم توجه الى الشرق وخاصة الحجاز واستفاد من علمائه وعاد الى افريقية حيث نقلـــه الامير على الى تونس (عيون الاريب عمـــا نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب للشيخ محمد النيفرج 2 ص 20 طبعـــة تونس 1351) .

ومحمد بن خليفة المدنى الرحالة الشاعر الذي تـــوفى بمكناس 1313 هـ ، 1895 م .

ومحمد الفاطمى بن الحسين الصقلى الشاعر المحاضر دفين المدينة المنورة 1311 هـ ، 1893 م ، له تاريخ فى علماء عصره ، كما فى الاعلام للمراكشى ج 6 ص 157 ، مخطوط .

ومحمد بن أحمد بن سالم الصباغ المكى الذي توفى فى رحلته الى المغرب 1321 هـ ، 1903 م له « تحصيل المرام فى أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام » الاعلام للزركلى ج 6 ص 247 .

عناية المغاربة بأدب الرحلات وعلم الجغرافية

كان الحج الى مكة سببا فى تأصل فن الرحلات عند الاندلسيين والمغاربة ولذلك اهتموا بتدوين الرحلات وتخصصوا فى هذا الفن ، وفرعوه الى رحلات جغرافية ورحلات أدبية ، ومن النوع الاول ما كتبه الوراق والبكري وأبو حامد الغرناطى ، والادريسى والاوديى وشهبون من المتأخرين . ومن النوع الثانى ما كتبه البلوى وابن بطوطة وغيرهم كابن رشيد والنميري . وغيرهم كثير ويرجع الاهتمام بالتأليف فى الجغرافية عند الاندلسيين الى عصر الخلافة الاموية الاندلسية ، فقد كتب محمد بن يوسف الوراق المكنى بأبى عبد الله وبالملقب بالتاريخى (291 — 362) كتابا فى مسالك افريقيا وممالكها والوراق نشأ بالقيروان ، ثم دخل الاندلس ، وأقام بها الى أن توفى بقرطبة وكان ذا حظوة فى عهد حكم المنتصر وقد اعتمد عليه البكرى فى كتابه ، وترك لنا الوراق كتابا عن أفريقيا — وأخبار ملوكها وحروبها ، كما ألف كتابا عن أخبار تيهرت ووهران وتنس وسجلماسة ونكور والبصرة ثم جاء الجغرافى البكرى المولود بقرطبة سنة 432 والمتوفى سنة 487 الذي نشأ فى ولبة ثم خرج الى قرطبة بعد سقوطها واتصل بالمؤرخ ابن حيان ، ويرى دوزى أن البكرى أعظم جغرافى أنجبته الاندلس وقد ألف كتاب المسالك الذى ترجم (كاترمير) الجزء الخاص منه بالمغرب وأتمه دي سلان ، كما ألف معجم ما استعجم الذي وصفه دوزي بالدقة والوضوح ، وبعد البكري جاء عبد المنعم الحميرى المتوفى سنة 866 هـ صاحب الروض المعطار فى خبر الاقطار الذى ينقل عنه المقرى فى نفح الطيب والذى اختصره المقريزى ونشره لفى بروفنصال، ومن جغرافى الاندلسى أبو حامد الغرناطى (ت 564) الذى كتب عن صقليه ومصر وآسيا الوسطى وخوارزم وبغداد وألف للوزير

يحيى بن هبيرة (المغرب من عجائب المغرب) ؛ وأشهر كتبه الجغرافية (تحفة الاصحاب ونخبة الاعجاب) ويتألف من مقدمة وأربعة أبواب ، الاول فى وصف الدنيا وسكانها والثانى فى عجائب البلدان والعمران . والثالث فى البحار والحيوانات والرابع فى الحفائر والقبور .

وتفوق المغاربة على الاندلسيين فى فن الرحلات ويرجع ذلك لما فطر عليه المغربى من جدية فى الاستقصاء وصبر على الترحال ، وساعدهم على ذلك الاستقرار والامن وبناء الربط ومنازل الاستراحة وهى حسبما ذكره القرطاس تقع ما بين السوس الاقصى الى (سويعة بنى مطكود) وما كان بالبلاد من تكسير بلاد افريقية من برقة الى النول ومن سوس طولا وعرضا بمقياس الفراسخ . . . ومن أشهر كتب الرحلات الادبية كتاب المعجب ، وهو كتاب هـــام فى الجغرافية والتاريخ ختمه مؤلفـــه عبـــد الواحد بن على التميمى المراكشـــى (581 – 618) بنبـــذة عن اقليم المغرب والاندلس وجغرافيتهما العامة ، وأبو الخطيب سهل بن القاسم زغبوش المكناسى مؤلف تاريخ مكناس ، وهو من مصادر بن غازى مؤلف الروض الهتون ، وأبو يحيى ابن المعلم الطنجى معارض الشقندي فى تفضيل المغرب على الاندلس ، ومؤلف الاستبصار فى عجائب الامصار الذى كان فى عصر عبد المومن بن على (سنة 587) ثم أبو على المراكشى المشهور بأبحاثه الرياضية (660) ، وابن فاطمة المغربى الذى ينقل عنه ابن سعيد فى (المغرب) ، وقد قام بجولات بحرية فى جنوب افريقيا حيث غرقت السفينة التى كان بها عند الرأس الابيض بعد أن تعرف على الساحل الافريقى المغربى . ومن هؤلاء الجغرافى عبد الرحمن بن هارون المغربى الذي تكلم عنه الحافظ ابن الجوزي المتوفى سنة 751 ، واهتم المرابطون والموحدون بصفة خاصة بعلم الجغرافية ، وكان بعض الخلفاء والامراء ذوى عناية واهتمام بدراستها ونقل صاحب نفح الطيب أن الخليفة يوسف ابن عبد المومن سأل أبا عمران موسى بـــن سعيد عن قرطبة فقال أبو عمران ما كان لى أن أتكلم حتى أسمع مذهب

أمير المؤمنين فيها فأخذ الخليفة يحدثه عن قرطبة وديارها ، وشوارعها ومياهها ونهرها وهوائها وموقعها الجغرافى وضواحيها وفلاحتها فتعجب منه ، وكان الخلفاء الموحدون يباهون بجمال بلادهــم ويروى صاحب نفح الطيب أيضا أن تاج الدين السرخسى سأله يعقوب المنصور عن رأيه فى بلاد المغرب وموازنتها بالبلاد الشامية فلم يجد جوابا الا فى أن البلاد المغربية تنسى الاوطان اما هو فقد أبان عن معرفته بها ، وقد نتج عن اهتمام الخلفاء بالجغرافية ان أخذ الكتاب يدونون رسائــل جغرافية فى المفاضلات بين المدن ، كرسالة الاديب أبى بحر صفوان بن ادريس التى أهداها الى الامير عبد الرحمن بن يوسف بن عبد المومن ورسالة ابن المعلم الطنجى ، وذكر مؤلف نفح الطيب أن الامير الموحدى أبا الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المومن أرسل الى ملك السودان بغانة ينكر عليه تعويق التجار ويعرفه بضرورة الحرية التجارية ويهدده بأن فى وسعه أن يضيق على تجار بلاده الخناق ، ولكنه لا يقبل ذلــة لانه لا ينهى عن خلق ويأتى بمثله ، ولا شك أن تحسن التنقلات البحرية وتقدم بناء السفن فى عهد الموحدين كان من أشد العوامل أثرا فى ازدهار الرحلات وتقدم علم الجغرافية اذ بذل العلماء جهودا فى تحديد البلدان والمواقع وعام حركات الافلاك ومقاييس الطول والعرض وتحديد السمت واستغلال البرصة البحرية . فكان ذلك ذا أثر لا ينكر فى تقدم علم الجغرافية بصفة خاصة وينقل المؤرخ سديوفى تاريخ العرب أن أبا الحسن المراكشى كان راصدا بصيرا جال فى أوائل القرن الثالث عشر المسيحى جنوب اسبانيا ، وكثيرا من افريقيا الشمالية فأبان عن ارتفاع القطب فى احدى وأربعين مدينة واقعة بين افران على المحيط الاطلانطكى وعاصمة مصر أى ما تعدل مساحته تسعمائة فرسخ من الشرق الى الغرب .

وعن ولوع المغاربة بالسياحة والتجوال فى مشارق الارض ومغاربها يقول الاستاذ برانشفيك فى مقدمة كتاب (رحلة عبد الباسط) بأن من الطبيعى أن ينتج المغرب الاسلامى مؤلفى الرحلات بوفرة عظيمة وينبغ بــه

عدد من الرحالة لان المغاربة والاندلسيين كانوا يشعرون بدافع شديد ينزع بهم الى كتابة ذكرياتهم وتسجيل ما يختلج بأنفسهم عن رحلتهم الى الشرق بقصد طلب العلم وأداء فريضة الحج ، أو دوافع أخرى ذات أصل دينى كنشر الدين فى البلاد الافريقية ، وما يتبع ذلك من رباط

وجهاد أضف الى ذلك ما ذكر الادريسى فى نزهة المشتاق عن ثروة أهل أغمات المكتسبة من تجارتهم مع السودان حيث كانوا يدخلون بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الاموال من النحاس الاحمر والملون والاكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من زجاج وأصداف وأحجار ، وضروب الافاويه والعطر وآلات الحديد ، وتطورت التنقلات فى المغرب فى الحج الى سفريات منظمة فى (الركب الحجازي) كركب أبى محمد صالح المتوفى سنة (631) وقد أورد تفاصيل عنه الكانونى فى كتابه (اسفى وما اليه) . وكان أتباعه يبنون المنازل للحجاج فى طريقهم الطويل التى تبتدىء من بلاد حاحة الى الاسكندرية . وتأسيس مراكز لايواء الحاج المغربى و عرف المغاربة طريقا صحراويا عن سجلماسة كما عرفوا طريقا بحريا وساحليا . . . وتعود المشارقة رؤية هؤلاء الحجاج فحتفوا بهم فى طريقهم لاداء الفريضة . ويروي ابن جبير أن صلاح الدين الايوبى جعل مسجد ابن طولون مأوى الغرباء من المغاربة يسكنونه وأجرى عليهم الارزاق فى كل شهر كما صنع نور الدين نفس الصنيع مع المغاربة فى دمشق .

وكانت المعلومات الجغرافية التى انتهت اليها المدرسة المغربية نزاعة الى العلم المعتمد على التجربة والاختيار لا الى الرواية والحكاية . ولذلك فقد حققوا كثيرا من الآراء والاقوال وعرفوا عدة حقائق ويذكر مؤلف عقود الجمان أن المهدي ابن تومرت كثيرا ما كان ينشد :

ومن أعجب الاشياء انك قاعد
على الارض فى الدنيا وأنت تسير

وسيـــرك يـــا هـــذا كسيـــر سفينـــة
بقـــوم قعـــود والشـــراع تطيـــر .

وقال ابن عربى الحاتمى فى الفتوحات أن الارض تدور حول نفسهـا وان حركتها خفية عند وسطها لانها كرة كما أن له آراء فى الاثير لا تخلو من طرافة . وابن عربى تلقى دراسته بالاندلس والمغرب وهو انما يروى أفكار معلمية ، كما نقل ابن خلدون عن ابن رشد الفيلسوف قوله بـــأن ما وراء خط الاستواء فى الجنوب بمثابة ما وراء الشمال فيعمر منه مـــا عمر فى هذا ، ويقص الشريف الادريسى خبر الاخوة المغرورين الذين وصلوا الى جزر الانتيـــل .

ولعـــل معرفة المغاربة الدقيقة بمجاهل افريقيا وتعرفهم علـــى نهر النيجر وروافده ، ثم معرفتهم بالديار المصرية ونهر النيل ، حفزهم الى البحث عن ينابيع هذا النهر فكان لهم الفضل فى اكتشاف أصله ، وقد ألمع الشريف الادريسى فى النزهة الى ينابيع النيل وأوضح ذلك فى خريطته وصورها فى بحيرات عند خط الاستواء ، وقد نقل جرجى زيدان هـــذه الصورة الفريدة عن خريطة بمتحف (سان مرتين بغرنسا) ، بل ان مؤلف مسالك الابصار يروى عن شرف الدين عيسى الزواوى بأن الامير أبـــا دبوس بن أبى عبد المومن حدثه أنه وصل الى البحيرة التى ينبع عنهـــا نيل مصر أيام هربه من بنى عبد الحق المرينـــى .

وأبدع المغاربة فى ميدان الجغرافية الرياضية فذكر ابن الطفيل فى رسالة حـــى بن يقظان بأن الشمس ليست حارة بذاتها ، وانها كرويـــة الشكل ، وأعظم من الارض بكثير ، وأن الارض كروية مثلها وان الجزء الذي يستضىء منها أبدا بالشمس أعظم من النصف الآخر ! .

ويذكر مؤلف (تاريخ العرب العام) أن ابن رشد ذكر أنه رأى كلفتين على وجه الشمس وأثبت ذلك فى مختصر المجسطى ، كما أبدع المغاربة فى المزاول الشمسية ، لمعرفة الاوقات ومدارات الشمس ورسموا صورتها على رخامات ضخام فى أغلب المساجد المهمة ، واهتموا كذلك بالساعات المائية وتفوقوا فى الربع المجيب والاسطرلاب ، وشاع تعليم الجغرافية فى المغرب القديم ، فكانت تدرس بجانب التنجم والحساب فى جل المعاهد العلمية وغزت مصطلحاتها الفنية لغة الكتاب والشعراء .

فن الرحلات في الأدب العربي

لعل أول رحلة مطولة شبه موسوعة جغرافية نعرفها فى تاريخ هذا الفن هى التى كتبها أرنيمذورس الرهاوى ، أحد جغرافى اليونان وقد عاش فى بداية القرن الاول قبل الميلاد ، وطاف بايطاليا واسبانيا ، وسواحل المحيط الاطلسى ، وتأثر بمن سبقه من الجغرافيين والمؤرخين اليونانيين كـ (تيموستينوش) واراتوستينس ، وأغاترخيذس ، وبوليبوس . . . ويشمل كتابه أحد عشر سفرا خص السابع ، بوصف أحوال البربر ، وقد كان يعتنى بذكر البلاد ووصفها وبيان نظام الحكومات والاسفار ، ونقل عنه سترابون فى كتابه التاريخى المشهور كثيرا من المعلومات على أن من أشهر الرحالات اليونانية القديمة ، رحلة هلاكس اليوكانى فى القرن الرابع بعد الميلاد ورحلة حنون القرطاجنى حول القارة الافريقية ، ورحلة عملقون الى سواحل أوربا الغربية .

وكانت (شرشال) عاصمة علمية فى عهد يوبا الثانى المتأثر بالثقافة الهلينية ، فكانت بها حركة علمية تاريخية ، كما كانت بها جامعة لدراسة الطب ظهر فيها عدة علماء وأطباء ورحالة مؤرخين من البربر أشهرهم

القديس أوغستينيس ، وترتوليانوس ، ومرونتـــووس القرطبـــي ، ، وأوريليوس ، وأولوجيلوس ، وأوبوليوس مؤلف رواية الحمـــار الذهبي الذى تناول الحياة المغربية العامـــة بوصف دقيق مستعرضا ذكر عـــدد من الشخصيات المغربية فى عصره كما كان بها فلوروس المؤرخ البربري الذي عاش فى العصر الرومانى فى المغرب وهو أشبه ما يكون بابن خلدون ، فكلاهما فيلسوف باحث اجتماعى وراوية ، وكلاهما كان رجلا سياسيا فى عصره خدم الاول القياصرة وراسلهم شعرا ونثرا ، فخبر تاريـــخ الشعوب والحكومات ، وهو الذى قسم الدولة الى أربعة أعصر وتبعه ابن خلـــدون فى ذلك (2) .

ولما بلغت الدعوة الاسلامية الى المغرب تسابق سكانه الى اعتناقها ايمانا بمبادئها الصادقة وتحريرا لهم من ظلم الوندال والرومان ، وأعانت فريضة الحج على الهجرة والرحلة الى المشرق حيث عرف المغرب أعلام التاريخ والرحلات لما يوجبه الاسلام من حج وما استلزمته الفتوح من دراسات جغرافية ، اذ بعد الفتح الاسلامى اضطرت الادارة العربية الى تكليف العمال والموظفين بالتقارير الجغرافية عن الامصار ، والاقاليم التى كان المسلمون قـــد فتحوها وبذلك نمت معارفهم الجغرافية عـــن جزيرة العرب والشام والعراق وبلاد العجم وبلاد التتار وجنوبى روسيا والصين والهند وكان ذلك بداية علم الاقاليم كما ذكر ذلك مؤلف (التنوع بما هو مطبوع) (ص 47) ويذكر مؤلف صناجة الطرب فى تقدمات العرب (ص 419) أن الخلفاء فى صدر الاسلام أمروا أمراء جيوشهم وعمالهم ليرسم كل منهم خططا للبلاد التى فتحوها واستولى عليها ، وفى (كتاب التواريخ المصرية) تقرير جغرافى كتبه عمرو ابن العاص لعمر رضى الله عنه جاء فيه « مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر يخط وسطها نهر ميمون

---

2) انظر كتاب البربر ، للاستاذ عثمان الكعاك .

الغدوات ، مبارك الروحات ، يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له أوان ، تظهر به عيون الارض وينابعها حتى اذاعج عجيجه وتعظمت أمواجه لم يكن وصول بعض أهل القرى الى بعض الا فى خفاف القوارب وصغار المراكب فاذا تكامل فى زيادة نكص على عقبه كأول ما بدأ فى شدته وطمى فى حدته فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه (أعالى الارض وأسافلها) يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب حتى اذا أشرق وأشرف (ظهر وبان) سقاه من فوقه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فعند ذلك يدر حلابه ويغنى ذبابه فبينما هى يا أمير المؤمنين درة بيضاء اذا هى عابرة سوداء ، واذا هى زبرجدة خضراء فتعالى الله الفعال لما يشاء ، الذى يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنها فيها ويتقبل قول خسيسها وان لا يستادى خراج ثمرة الا فى أوانها وان يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها فاذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل ، وقال مؤلف (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) المطبوع بليدن سنة 1850 مسيحية فلما ورد هذا الكتاب على عمر بن الخطاب قال (لله درك يابن العاص لقد وصفت لى خبرا كأنى أشاهد) وتقرير عمرو بن العاص اهتم به المستشرقون وترجم الى عدة لغات (أوستاف أوزان) فى مجلة (الفيجارو) . وقالوا عنه علمات تقدير واعجاب .

رحلات شرقية ومغربية

ظهر أدب الرحلات كفن مستقل فى بلاد المشرق حيث بدأ بما كتبه العلماء عن رحلاتهم العلمية للدراسة والتعليم والتفقه ، وكانت رحلة الامام الشافعى العلمية (205) أول أثر معروف لدينا فى هذا الباب كما كانت رحلة الخطيب البغدادى المتوفى سنة (463) فى طلب الحديث أكثر افادة وشرحا من سابقيها ، ويذكر حاجى خليفة عدة كتب تدخل فى

اعداد هذا الصنف ، منها رحلة تقى الدين أبى عمر عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح الشهرزورى ورحلة بدر الدين بن رضا الدين الغازى المتوفى سنة 984 وأخبار الهند والسند والصين من تاريخ الاسلام للذهبى ورحلة جلال الدين السيوطى المتوفى 911 هـ المسماة بالرحلة الفيومية المكية الدمياطية ورحلة ابن نباتة ورحلة السرخسى للاندلس والمغرب وفى الباب الخامس من نفح الطيب تعريف بمن رحل من الاندلس الى بلاد المشرق كما فى الباب السادس تعريف بمن رحل من المشرق الى المغرب . وهذه الرحلات كلها تتناول الموضوع عن الاتصال بالعلماء وأخذ السند من غير اهتمام بالمدن ووصف الحياة الاجتماعية والبيئة فهى تبت أعلام ، وهذا النوع من الرحلات شاع فى المشرق والمغرب ، ولم تختص به بلد من البلاد الاسلامية بل لم يشع هذا الصنف من الرحلات فى الاندلس والمغرب وانما شاعت بها (الرحلات الحجازية) واختص فيها المغاربة وتفوقوا فيها ، ولعل أول أثر عربى فى هذا الموضوع هو ما كتبه أحمد بن فضلان الذي أوفده الخليفة المقتدر المتوفى سنة 332 بلدايا الى أمراء بلغار (الفلجا) فكتب رحلة عن مشاهدة نشرت فى ترجمة المانية سنة 1827 وحققها من المتأخرين الدكتور سامى الدهان (3) وزار أبو حامد الغرناطى سنة 564 هـ 1473 م مصر وبغداد وخرسان وسوريا ودون رحلته عن هذه الزيارة ، كما كتب عن المغرب تاج الدين الحموى السرخسى سنة 573 الذى زار الاندلس والمغرب سنة 593 وألف رحلة استفاد المقرى منها فيما كتبه ورحلة الحميرى الجغرافية ورحلة ابن هارون الاغماتى وما كتبه المراكشي وابن دحيه ، وتجول بعد ذلك ابن الخطيب فى الاندلس حيث كتب (خطرة الصيف ورحلة الشتاء والصيف) ، كما ألف ابن الحاج النميري المولود 713 رحلة فبض العباب واجالة فدح الآداب »

---

(3) ذكر ياقوت الحموى فى معجمه رحلة ابن فضلان لدى كلامه على بلغار ، وله ايضا رحلة اخرى فى خوارزم ساق ياقوت نبذة منها لدى كلامه على خوارزم وكذب المؤلف فى مواضيع منها .

وكتب المقرى روضة الآس العاطرة الانفاس فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس وألف ابن الطيب الشرقى الافق المشرق بتراجم من لقيناه بالمشرق ، وبجانب هذه الرحلات ظهرت (الرحلات السفارية) فقد كتب فى هذا أبو الحسن على بن محمد التمكروتى الذي سافر الى عاصمة العثمانيين ، ومحمد بن عبد الوهاب الغسانى المعروف بالوزير مؤلف رحلة الوزير فى افتكاك الاسير وهى عن سفارته الى اسبانيا من طرف المولى اسماعيل وكتب الغزال فى عهد محمد بن عبد الله رحلته الى اسبانيا لعقد صلح مع شارل سماها نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد .

ولابى قاسم الزيانى المتوفى سنة (1249 هـ — 1833 م) رحلة الترجمانة الكبرى ، ولابى عباس أحمد بن عبد القادر الكردودي رحلة الى اسبانيا فى عهد المولى الحسن الاول اسمها التحفة السنوية للحضرة الشريفة الحسنية بالمملكة الاصينيولية فى 15 شعبان سنة 1302 وكان بجانب هذه الرحلات السفارية رحلات الى أوربا للبحث عن تقدمها وتطورها ألفها كتاب استهواهم الفضول العلمى والبحث عن مظاهر التقدم الغربى ومن هاته الرحلات ما كتبه محمد السائح عن رحلته الى باريز المسماة الرحلة الباريزية .

على أن فن الرحلات الذى توفق فيه المغاربة هو الرحلات الى الحجاز (1) ويرجع ذلك للحنين الى مهبط الوحى والارتواء من معين الينابيع الاسلامية والاخذ عن علماء الاسلام المشهورين ، وقد امتازت بأسلوب خاص فى العرض والعمل اذ غالبا ما يستخير الرحالة قبل العزم ، ويكون الخروج من بلده يوم الخميس كما يهتم فى كتابه بذكر تاريخ الوصول وتاريخ الخروج من كل مدينة ويعطى الكاتب معلومات واضحة عن المدن والقرى والاودية والحياة الاجتماعية والعوائد والادارة والتجارة والفلاحة

وعن العلماء الذين اتصل بهم ، ويهتم بوصف مساجد المدينة ومنابر أكابرها كما يتكلم عن عدد السكان ، ومراحل السفر ، ومراكز الماء وكانت الطريق اما على الساحل أو فى البحر أو مخترقا الصحراء وعندما يصل الرحالة الى الحجاز يتحدث عن مناسك الحج ، ثم بعد أدائه للغريضة يتوجه الى أهم عواصم الاسلام ولا شك أن دراسة هذه الرحلات يقدم لنا صورة حية عن المجتمع الاسلامى وحالته السياسية والاقتصادية كما أن دراسة تاريخ الرحلات يعرفنا بمدى تطور العالم الاسلامى وتقدمه ، أو تأخره وانحطاطه وأسباب ذلك .

ومن أشهر الرحلات الحجازية رحلة العبدري 688 ورحلة أبى الحسن محمد أحمد ابن جبير (540 — 614) الذى عاصر ابن رشد الذي عصره من أبهى عصور الثقافة الاسلامية . وتعتبر رحلة أهم ماصنف فى هذا الفن ، ورحلة أبى عبد الله بن رشيد سنة658—711 التى تقع فى عدة أجزاء يوجد أغلبها فى الاسكوريال ، ورحلة ابن سعيد المغربى (605 — 685) المسماة بالنفحة المسكية فى الرحلة المكية . ورحلة أبى العباس أحمد بن الحسن ابن قنفد القسطنطينى المولود سنة 770 موافق 1345 م — المتوفى 809 وهى رحلة بها عدة تراجم ، ورحلة التجانى المسماة بالرحلة التجانية ، ورحلة الرعينى السراج من أعيان أواسط القرن الثامن ، ورحلة البلوى فى أواسط القرن الثامن ، ورحلة زروق فى أواخر القرن التاسع وهى رحلة ذات طابع فقهى .

ولاحمد بن عبد الله بن أبى محلى السجلماسى المتوفى سنة 1023 هـ رحلة (الاصليت الخريت فى قطع بعلوم العفريت النفريت) ، ولابى على الحسن بن مسعود اليوسى المتوفى سنة 1102 هـ ، ورحلة حجازية لم تكن تعرف له ، وانما كان الظن أن الذي كتب الرحلة هو ولده أبو عبد الله محمد وقد حج معه ، ويطلق أحيانا اسم الرحلة على كتاب المحاضرات له ، وهى غيرها .

ولعبـد الرحمن بن أبى القاسـم الشاوي الغنامى المعـروف برحو الشاوى رحلة حجازية (رحلة القاصدين ورغبة الزائرين) قام بها المؤلف سنـة 1141 هـ .

ولمحمد بن عبد السلام الناصري المتوفى سنة 1239 هـ ــ 1823 م رحلة الحجازية الكبرى وهى من أهم ما كتبـه المغاربة فى هذا الفن وقـد فرغ من كتابتها فى التاسع والعشرين من جمادى الاولى 1199 ، ولم يذكرها ليفى بروفنصال ولابروكلمان (6) .

غير أن التدهور الذي أصاب المغرب الاقصى والنهاية المؤسفـة التى انتهت اليها الاندلس أديا الى تقلص العصور الذهبية للثقافة العامة وظهرت رحلات أقل أصالة مما كان من قبل وأصبح التصوف السلبـى يطبع أدب الرحلات وبذلك ظهر فى الرحلات نوع مهلهل يعتمد على السرد وعدم الوحدة فى معالجة الموضوع والاعتناء بالتوافه والاهتمام بالفتاوى التى لها موضوع آخر غير أدب الرحلات ولكن مع ذلك فقد كتبت رحلات أو فصول منها ذات طابع مشرق كرحلة المقرى فى مقدمة نفح الطيب وكـرحلـة أبـى العبـاس أحمـد أفوغـاي (1598 م ــ 1638 م) ورحلـة الشهـاب الـى لقـاء الاحبـاب ورحلـة أحمـد ابن محمد بن داود بن يعقوب الجزولى الهشتوكى المسمـاة هداية الملك العلام الى بيت الله الحرام ورحلة بن المليح فى القـرن لحادى عشر المسماة أنس السارى والسارب فى أقطـار المغـارب (1) 1042 هـ) 30 ــ 1633 م) ــ 1633 ميلاديـة ، ورحلة العياشـى (1090 ــ 1137) ورحلة أبى العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعى ورحلـة الورثليانـى ، ورحلـة أحمـد القـادري 1640 ؛ 1721 المسماة نسمة الآس فى هجرة سيدنـا أبى العباس وهى ترجمة

---

6) تاريخ الفكر الاندلسى ص 522 .

7) راجع مجلة الدراسة العربية سنة 48 ، للحاج صادق محمد .

(1) نشرها الاستاذ محمد الفاسى .

أبـي العباس أحمد بن عبـد الله معن ، ورحلة محمد بن الخطيب الصميلـي الشركـي أستـاذ الشيـخ مرتضـى ، والرحلـة البنانيـة لمحمد بناني سنة 1141 ، ورحلـة الحضيكـي ، المسماة بلوغ المرام الى بيت الله الحرام ، ورحلة العلامة الرودانى ، ورحلة أحمد الهـلال ، ورحلة عبد القادر الكوهن ، والرحلة الفاسية للشيخ الطيب ابن كيران ، ورحلة محمـد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسـي المسماة الرحلة الابريزية الى الديار الانجليزية 1276 هـ 860 م ورحلة محمد السائح المسماة الرحلة الحجازية ، رحلة الهواري المسماة بالرحلة الحجازية ، وقد ظهر فى الشرق أيضا ، هذا الفن فى أسلوب جديد حيث كتب البتنونى رحلة قيمة الى الحجاز سنة 1909 وذاعت رحلة مرآة الحرمين فى العالم العربى ، كما كتب الدكتور حسن هيكل منزل الوحـي وبعده كتب الدكتور عبد الوهاب عزام رحلته الحجازية فى أسلوب شيق وملاحظات دقيقـة .

وكذلك اهتم الكتاب المغاربة بنقد الرحلات ، فانتقد ابن الخطيب رحلة ابن بطوطة كما انتقدها ابن خلدون فى المقدمة ، يذكر الزيانى فى الترجمانة الكبرى أنه عرض على علماء الهند ، الذين اجتمع بهم فى مكة ما جاء فى كتاب ابن بطوطة عن الهند فانكروا كثيرا مما فيها من أخبار ملوكهـم وأبطلوا قضاءه ومصاهرته . . وكما يذكر الزيانى أن ابن بطوطة لما عاد من رحلته وذكر ما لقيه من الملوك ومصاهرته لملك الهند وولاية القضاء وأنه قد حصل بذلك على أموال عظيمة ، ريفه الناس وكذبوه ، وانه لمـا عاد للعدوة لم يتصل بالسلطان أبى عنان المرينى بل فى رحلته للسودان أخفق فى سعيه . ولما بلغ خبره للسلطان المرينى كتب له واستقبله وعندما اجتمع به عاتبه على عدم الاجتماع به لما قدم من الاندلس لفاس ، وكان أبو عنان فرغ من تشييد المدرسة المتوكلية فاعتذر ابن بطوطة بأنه لمـا رجع لفاس ورأى المدرسة المتوكلية لم ير لها نظيرا فى الشرق الادنـى وأوربا والشرق الاقصى وبلاد الاسلام كافة وأراد أن يتـم رحلته فى

أفريقيا ليتأكد من عدم وجود ما يضاهيها فى العالم ، فأكرمه أبو عنان وأمره أن يؤلف رحلته ويذكر فيها مدرسته التى زعم أنها لا نظير لها فى المعمور ، وقد علق الزيانى على قول ابن بطوطة مؤيدا لنقد ابن الخطيب والبلوي (9) لابن بطوطة ، وقال أنه دليل على ما لمزه به فقهاء الاندلس ، لما فى عدة بلاد أخرى كمصر والشام والعراق من المدارس والمساجد ما هو مثلها وأعلى منها . ويذكر الزيانى أن أحد الطلبة كان يسرد لسيدى محمد بن عبد الله العلوى سلطان المغرب رحلة ابن بطوطة ولما وصل الى ما ذكره ابن بطوطة عن ابن تيمية من آرائه فى الاستواء والنزول وانه نزل من محل جلوسه وقال كنزولى هذا قال له السلطان أطو هذا الكتاب وبعه فى السوق وكل ثمنه لحما ، فهذا رجل كذاب من أهل التجسيم كمن نقل عنه ، ووالله لو حضر بين يدى لاضرب عنقه ، ويقول عنه الزيانى أنه تحقق عنه بما وسمه به أهل الاندلس من الكذب سيما وهو من أهل البدع ، وينقل الزيانى عن الاحاطة نقلا عن شيخ ابن الخطيب أبى البركات البلفيقى أن عبد الله اللواتى الطنجى كان رجلا له مشاركة فى الطب ، ورحل الى المشرق وتزى بزى الصوفية وجال فى بلاد العجم والسند والهند والصين وعاد لبلاده طنجة وجاز البحر للاندلس وبلغ غرناطة واجتمع مع فقهائها فى دعوة وكان يحدثهم عن رحلته يومه وليله فاستغربوا أخباره واستبعدوها . وفى سلسلة الروائع نقد لابن بطوطة وذكر لاغلاطه فى رحلته كما بسطت ذلك فى كتابى عن ابن بطوطة .

الرحلات فى أدب الملحون

نجد فى الشعر الملحون المغربى قصائد طويلة تدخل فى فن الرحلات ، ولكنها رحلات خيالية لان الشاعر كان يصور أنه يوجه

(9) ولم اجد نقدا لابن بطوطة فى رحلة البلوى .

طائرا لزيارة مكة والمدينة شوقا الى البقاع المقدسة وقبر الرسول ، فيصف الطائر المراحل التى قطعها . . . وأحيانا يوجه الطائر الى حبيبه البعيد فيصف ما وجده فى طريقه من البلاد وتسمى هذه القصائد فى لغة الملحون بالورشات والحمام ، والمراحل المطلعة . ويعنى الشاعر فيها بوصف البلاد ، واحياء المدينة الى يتخيل أن المعشوقة تركت عند حبيبها (حليـا) أو (خلخـالا) أو « دمليجـا » 1 أو « دواحـا » (10) أو (سالفـا) (11) . . وللشاعر المدعري قصيدة مشهورة وكقصيدة الطرشون لابن علـــى (12) .

رحلة البلوي
بين الرحلات المغربية والاندلسية

تعتبر رحلة البلوى رحلة أدبية لما فى أسلوبها من نثر محكم وتعبير بليغ وعبارات منتقاة ، وقد استوفت شروط الرحلات الادبية لاهتمام المؤلف بقضايا الفكر ، وترجمة الأعلام الذين اتصل بهم ، وأخذ عنهم ، وذكر الكتب العلمية والدواوين الشعرية الذائعة فى عصره ، بل يعتبرها كثير من رجال الرحلات والمؤرخين والمترجمين نموذجا يحتذى ، لذلك فلا بدع أن نرى رحلة البلوى مرجعا هاما عند علماء التراجم وكتـاب الرحلات وأن نراهم جميعا يذكرونها ، وينقلون عنها فى ثقة وتقديـر لمؤلفهـا .

10) سوار
11) ضفيـرة شعـر .
12) انظر هسبيريس : عدد 66 — 17 .

الرحلات في أدب الموريسكو

ظل أدب الرحلات شائعا فى الاندلس حتى بعد سقوط غرناطة وفيها رحلة تسمى (رباعيات حاج بيوىء منسون)
Coplas del Al Hichante du pney Monçon

وهى رحلة الى مكة قام بها حاج موريسكى فى القرن السادس عشر الميلادي ، ونظمها فى شعر قشتالى يتركب من مقطعات Coplas
رحل صاحبها الى الحج من يلنسبه الى تونس ، وزار مصر والحجاز . . ووصف الديار المقدسة . . وقد وجد نصها الاسبانــى مكتوبا بحروف عربية صعبة القراءة ، وغير واضحة ونشرها المشترق ، (مريانـا دي بانـو) بحروف لاتينية .

الأسلوب الادبي في رحلة البلوي

يعتبر أدب الرحلات فنا مستقلا بذاته لم يخضع بعد لدراسة تحليلية عن نشأته وتاريخه ومميزاته وتطوره ، وان كان من البديهى أنه عمل فنى من الفنون النثرية التى تظهر عادة متأخرة عن الشعر فى مختلف الحضارات ، كما أنه من فنون الكلمة المقرؤة التى تدخل فى نوع القصص السردى الادبى الذى يقرأ وينسخ كالملحمة والرواية والقصة والاقصوصة والمقالة ، وادب الرحلات له صلات بعدة فنون أدبية وعلمية أخرى تجعل هذا الفن المزيج من هذه الانواع فنا مستقلا بذاته .

فللرحلات صلة بالرواية الادبية بمفهومها القديم الذى يعنى سرد التجربة الغنية بالصور والمفاجآت كرواية ألف ليلة وليلة فى الادب العربى وأقاصيص ديكاميرون وقصص بكشيو الايطالى وقصص المغامرات الفرنسية التى ازدهرت فى القرن السابع عشر ، الا أن الرحلة لها طابع الصدق فى السرد والامانة فى الرواية ولا دخل لعنصر الخيال فيها ، أما بمفهومها الحديث الذى يعنى بتصوير صراع الانسان فى مجتمعه مصورا لنفسيته وبيئته ، فان الرحلة لها صلة ضئيلة به فالرحالة عادة يتحدث عن نفسه ويتحدث عن المجتمع الذي يعيش فيه ، وهو وان لم يعن بتصوير النفسيات فان فى وسعنا أن نعرف نفسية الرحالة ونفسية المجتمعات التى يتقلب فيها من خلال ذكره لعلاقته مع مختلف البيئات وتأثره بذلك ، ويرى بعض المتأخرين أن أدب الرحلات يمثل الناحية الرومانتيكية فى الادب العربى .

واذا كان كثير من النقاد يقرنون نشأة أي فن أدبي بظاهرة اجتماعية ويلاحظون أن الرواية نشأت بعد ظهور الطبقة الوسطى وسيطرتها وانتشار الطباعة ، فان أدب الرحلات نشأ نتيجة لظاهرة اجتماعية أيضا هى التهاب العاطفة الدينية فى نفسية المسلم الذى يحن دوما الى زيارة البقاع المقدسة للتملى بمنزل الوحى والاتصال بعلماء المسلمين فى المؤتمر الاسلامى (الحج) ، كما كانت نشأته نتيجة لظاهرة اسلامية هي استقلال شخصية الفرد المسلم ، والتقرب بعلمه وأداء رسالته الاجتماعية والانسانية والتعبير عن واقعه الثقافى والاجتماعى. ولم يظهر هذا اللون فقط من الادب السردى عند العرب بل ظهر فى الادب العربى أيضا أدب روائى فلسفى كقصة حى ابن يقظان ، لابن طفيل وأدب روائى خيالى كألف ليلة وليلة ، وسيف بن ذي يزن وجازية ، وأدب روائى كلامى لم يهتم الا بالاسلوب البلاغى كقصص المقامات وأدب روائى واقعى كأدب الرحلات الذى نحن بصدده .

ولادب الرحلات خصائص أسلوبية وعلمية ، فهو يمتاز بسهولة الاسلوب ووضوح التعبير وأمانة النقل ، كما يمتاز بالعناية بتقويم البلدان وتراجم الشخصيات واثارة مباحث دينية وتسجيل مجموعة من الملاحظات بطريقة موضوعية ، ولذلك يصبح من هذه الناحية شديد الشبه بأدب المذكرات مع فارق وحدة العمل الذى يتطلبه أدب الرحلات .

الأسلوب الادبي في رحلة البَلَوي

يلاحظ كثير من نقاد الادب العربى أن رجال الفكر كانوا يأنفون من الصراع السياسى أو لا يعنيهم فيلجأون الى القصور مهما تغير حكامها ، فكان هؤلاء الحكام يستفيدون من تجربتهم وخبرتهم وينافسون بهم غيرهم من الامراء والملوك ، أما الادباء فكانوا يستغلون هذه الحياة الهادئة فيكتبون ويؤلفون وينتجون ، ولذا تنقل الكتاب والادباء والعلماء فى معظم البلاد العربية والاسلامية ، وبذلك وحدوا نماذج الادب تقريبا

وبما أن البلاد العربية والاسلامية كانت تسهم فى الانتاج العلمى والثقافى والادبى متأثرة عواصم البلاد الاسلامية الاخرى ، فقد توحد الاسلوب الادبى وشاع أتباع أسلوب موحد للبحث العلمى أو أسلوب الكتابة الادبية ، ظهرت مكانة أئمة مذاهب كما ظهر مقلدون وأتباعيون ، وبذلك كانت الامة جمعاء تسهم فى البناء الثقافى ، وتأثر العلماء والادباء بقادة الفكر المشهورين فى مراكز الثقافة بالبلاد الاسلامية حيث كان هؤلاء يتوجهون دائما الى هذه المراكز العلمية ليحظوا بالتشجيع المادى والادبى (2) ، فلا عجب اذا كانت الاندلس والمغرب تعد تأثرا بالانتاج الادبى المشرقى فى بعض الفترات ، من تاريخهما ، ولكنه تأثر لا يلبث أن يمحى ويصبح انتاجا محليا كما يظهر فى النماذج الادبية والآثار الفكرية . والذي يعنينا من هذه المقدمة أن نذكر أن النهضة الادبية فى المغرب بدأت الاندلس قبل بلاد المغرب فى عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم حيث ظهر ابن عبد ربه وأبو على القالى وابن حزم وابن شهيد المتوفى سنة 426 هـ وابن زيدون المتوفى سنة 463 هـ وظل الاندلسيون والمغاربة يقلدون المشارقة فى معالجة الشعر والنثر على السواء ، واذا كان المشارقة قد عرفوا مذاهب النثر الثلاثة المعروفة وهى مذهب الصنعة ومذهب التصنيع ومذهب التصنع ، فان الاندلس والمغرب عرفا (3) هذه المذاهب كذلك ، وكان آخر ما استقر فى الاندلس مذهب القاضى الفاضل المتوفى سنة 596 هـ وزير صلاح الدين الايوبى ، وهى طريقة مؤسسة على مدرسة ابن العميد مع المبالغة فى الجناس والسجع المتكلف مع طول الجملة وكثرة التوريات والجناسات والطباق والاقتباس والتضمين، واندمج العصر الايوبى متأثرا بأسلوب القاضى الفاضل وبأسلوب الكاتب عماد الدين الاصبهانى الذى كان مع القاضى الفاضل من مؤسسى مدرسة

---

2) الفن ومذاهبه فى النثر العربى (للدكتور سوقى ضيف) وبالاخص ص 239 و ص 254 .

3) نفس المصدر

التصنع ، وعيب هذه المدرسة أنه لا يمكن أن يحسنها الا المتفوقون من الكتاب ، أما متوسطو الثقافة فينزلون بالاسلوب ، وهذه الطريقة تعرض الفكرة للضياع وتعرض الكتاب لسوء فهم الاسلوب فيعتقدون أنها الالفاظ دون المعانى (4) ، وعند حكم الموحدين للاندلس ازدهرت بها الحركة الفلسفية والفقهية وضعف الادب ، ولا نعرف الا آثارا نثرية باهتة دون النثر الاندلسى المعهود كآثار ابن خاقان وابن بسام وغيرهما (5) . وأصبح التعبير بأساليب محفوظة متواترة . . . وفى نهاية عصر الموحدين وبداية عصر بنى النصر ظهر كتاب كبار من المعهم ابن الخطيب (713 – 776 هـ) الذى كان له أسلوب مطبوع قليل السجع كثير الاطناب ، تطول جملته فتتكرر المعانى ، انتقده المقرى وقال عنه : هو كاتب مرسل بليغ لولا ما فى انشائه من الاكثار ، الذي لا يخلو من عثار ، والاطناب الذي يفضى الى الاجتناب ، الـخ .

وقد تأثر ابن الخطيب بأسلوب القاضى الفاضل من حيث بناء الجملة على أساس انتقاء اللفظ ومقتضيات البديع ، ولكنه مدد الجملة وأطنب فى التعبير على أسلوب طريقة القاضى الفاضل فأحدث أسلوبا جديدا يعتمد على الفقرات ومزج الشعر والنثر على أسلوب غير متداول ، فهو يعقب (بيتا) على فكرة سلف أن كتبها (نثرا) ولكن قد يكتب الموضوع فى عشرة أسطر ينسج على منواله مقطوعة شعرية توشك أن تجعل النثر شعرا والشعر نثرا وهكذا أسس ابن الخطيب مدرسة جديدة فى عصره وتصدر زعامتهـا .

ويلاحظ الدكتور شوقى ضيف جمودا فى النثر الاندلسى ويقول عنه : (يحس الانسان فيه بضروب مختلفة من التلفيق والتصنع واللف والدوران

---

4) نفس المصدر
5) الفن ومذاهبه للدكتور شوقى ضيف ص 354 مكتبة الاندلس
6) نفح الطيب ، والفن ومذاهبه .

الدكتور شوقى قد بالغ فى اتهام النثر الاندلسى بالجمود ورأى أنه لـم حول المعانى والصور التى يجترها الادباء اجترارا ، بل صارت ظاهرة مهمة وهى التعبير بالاساليب المحفوظة التى لا تفصح عن فكرة محدودة كما فى الذخيرة والقلائد حيث أن هناك مقدمات لتقديم الادباء لا تعبر عن معان واضحة وانما تعبر عن صور جامدة الـخ . . (7) ، ويظهر أن الدكتور شوقى قد بالغ فى اتهام النثر الاندلسى بالجمود ورأى أنه لم يعد أكثر من أدب مكرر معاد سواء فى أساليبه أو عباراته المعادة مئات وآلاف المرات وليس هناك من جديد الا ما يتصنع الكاتب من مصطلح علمى أو لون بديعى أو اشارة الى مثل ، أو استخدام الغريب اذ هذه العبارات مجحفة بالنسبة لنثر ابن الخطيب الغزير ، ونثر البلوى المحكم ونثـر ابن الازرق وغيرهم كثيريـن ، ولا جدال بأن ابن الخطيـب كان أعظـم كتاب الاندلس حتى قيـل أنه « كاتب الارض الى يـوم العـرض » .

والواقع أن ابن الخطيب كان امام المدرسة النثريـة فى الاندلس وأسلوبه يعتمد على السجع المتضمن لبعض المصطلحات العلمية التـى تدل على تمكنه من البلاغة والعلوم الشائعة فى عصره ، بل يبنى السجعات على حرف نادر ويستخرج من كل سجعة سجعتين داخليتين ، ويقول الدكتور ضيف أنه ضرب جديد من التصعيب وصل اليه لسان الديـن الذى يريد أن يثبت تفوقه فى عصره (8) ، وهو لا يسجع سجعا بسيطا ، بل نسجا مركبا ، وهو بهذا كان يسعى الى التمسك بأهداب مذهـب التصنع الذى شاع فى الشرق ، بـل أخذ يقترح على الكاتب أسلوبـه الشجعى المركب ليدل على مبلغ تفننه ، مع تكلفه الواسع لالوان البديع

---

7) الفن ومذاهبه للدكتور شوقى ضيف 249

8) نفـس المصـدر ص 252

وزخارفه ، أى زخرف الجناس والسجع ، وهو يجمع بين التصنيع والتصنع (9) .

وكان ابن الخطيب يفرض أسلوبه الادبى على سائر الادباء المغاربة فى عصره ويتهمهم بالقصور أن قصروا فى احتذائه بوصفه أستاذهم ، وابن الخطيب معروف فى هجماته التى لا تخلو من أنانية ، فقد رأيناه فى مثلى الطريقة فى ذم الوثيقة يتحامل على القباب ، كما نراه فى خلع الرسن ينتقد أبا الحسن انتقادات خالية من النزاهة ، فلا يستبعد أن يكون قد تحامل على البلوى أيضا « كما يقول المقرى » وهو أعرف النقاد بابن الخطيب (10) . . ولا نحتاج الى عرض نماذج من نثر البلوى الذى هو من صميم مدرسة ابن الخطيب ولكنه يقل عنه براعة وروعة وثقافة .

الأسلوب العلمي في رحلة البلوي

يمتاز البلوى بالاهتمام بأمانة الرواية ، فهو حريص على ذكر الرواة المشهورين بالصدق والمعروفين بأمانتهم العلمية ، ولذلك فهو يسلسل السند حتى يرجع به الى الاصل ويعتمد على فن الرواية فى أخذه للحديث وأخذه لفن القراءات وروايته للشعر ، واذا كان من المألوف فى الحديث وفى القراءات اثبات الرواية فان الادب له صفة أخرى لان نصوصه لا يتعبد بها ، انما يترك فيها للفكر عملية النقد ، غير أنه لما كان الشعر والنثر يحتويان على المفردات والتعابير العربية السليمة التى لها صلة بلفظ النصوص الدينية حرص اللغويون والادباء كذلك على تحري الدقة فى أسلوب الرواية فى نقل الشعر ، واستمروا على ذلك حتى بعد أن بعد بهم العهد عن العصور الاولى التى كانت مظنة وجود الثقة فى الرواية فأصبحت الرواية عادة يقصد بها تزكية الرواي والحيطة فى صدق روايته ، ولهذا

---

9) نفس المصدر

10) ذكر القاضى أبو الحسن النباهى أن مؤلفات ابن الخطيب فيها تحريف للحقائق (أزهار الرياض ج 12 ص 213) .

فقد حرص العلماء على السند فى كل مروياتهم ، وتنافسوا فى الفهارس والاثبات وأخذ العلم من أفواه الرجال ، وكان هذا من أسباب الرحلات العلمية حيث تنافس الادباء فى التنقل والرواية .

وقد عقد ابن خلدون فى مقدمته فصلا فى موضوع أن الرحلة فى طلب العلوم ولقاء المشيخة تزيد كمالا فى التعليم ، وقال ذلك بأن البشر انما يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما والقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة ، الا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا فعلى كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها والاصطلاحات أيضا فى تعليم العلوم مخلطة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ولا يدفع عنهم ذلك الا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفنده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طريقتهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم أنها تعليم وطرق توصل وتنهض قواه الى رسوخ والاستحكام فى المكان وتصحح معارفه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتها من المشيخة عند تعددهم فالرحلة لابد منها فى طلب العلم لاكتساب الفوائد ، والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال « فكان الاهتمام بالرواية عن المشايخ ومباشرة الرجال » ، وكان الاهتمام بالرواية عن المشايخ بليغا مما حدا بالادباء واللغويين أو يسلكوا طريقة المحدثين ، وقد خصص السيوطى فى المزهر (11) فصلا خاصا فى معرفة الطبقات والحفاظ والثقاة والضعفاء ، فلذلك ظلت العناية فى أخذ الادب ولو فى عصوره المتأخرة بروايته ليتأكد الطالب من عراقَة الرواية وصحتها ، وفى ذلك تزكية لقيمة كتاب (رحلة البلوي) من الوجهة الادبية .

---

11) المزهر للسيوطى

ويلاحظ ابن حزم (12) أن نقل الثقة عن الثقة حتى يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم شىء خاص بالمسلمين دون جميع الملل والنحل أما مع الارسال والاعضال فيوجد عنه اليهود ولكن لا يقربون من موسى بل يقفون حين يكون بينهم وبينه أكثر من ثلاثين نسبا وذكر محمد بن أبى الحاتم المظفر أن الله أكرم هذه الامة وشرفها بالاسناد وليس لاحد من الامم قديمها وحديثها اسناد موصول وانما هى صحف فى أيديهم وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم فليس عندهم تمييز ما نزل من التوراة والانجيل ومما ألحقوه بكتبهم من الاخبار التى اتخذوها من غير ثقاة » .

واذا فان ضرورة السند فى الرواية سواء كانت حديثية أو فقهية أو لغوية أو أدبية وقد ظلت الى عصور متأخرة الا أنها فى الادب قد ضعفت لعدم الحاجة اليها وبقيت قوية متسلسلة فى الحديث فقط للحاجة الى الضبط والخوف من الوضع والتحريف .

ويذكر البلوى أن سنده فى الحديث قوى جدا ، فهو يروى موطأ مالك برواية أبى عبد الله عبد السلام ، وهى أصح رواية ولا يوجد مثل سندها فى المغرب كما ذكر فى رحلته .

رأي ابن الخطيب فى كتاب تاج المفرق

يتهم ابن الخطيب البلوي تهمة خطيرة يرددها فى غيرما كتاب من كتبه التاريخية وتناقلها المترجمون للبلوى عنه ، فهو يرى أن البلوى سرق كتاب البرق الشامىء ، وقبل ادانة البلوى بهذه التهمة الخطيرة سأرجع الى موضوع السرقات الادبية لنتعرف على مدى صحة تهمة ابن الخطيب للبلـــوى .

---

12) الملل والنحل لابن حـزم

ان موضوع السرقات الادبيـــة من الموضوعات التى شغلت النقـد الادبى القديم ، لانه كان من الطبيعى أن يتنفع الادباء من آثار بعضهـم سواء من حيث القوالب أو من حيث الاسلوب أو من حيث الافكار والاراء أو من حيث الصور الخيالية ، وعلى قدر تأثر الادباء واحتدائهم بمـن سبقهم يكونون قد أخذوا واتبعوا أو نسخوا ، أو ألموا ، الى غير ذلـك من الاساليب التى فصلها ابن رشيق فى العمدة (والجرجانى فى أسـرار البلاغـــة) (13) .

ومن الملاحظ أن النقد القديم لم يحفل بالسرقات النثرية احتفاله بالسرقات الشعرية لمكانة الشعر وعناية النقد به . وقد اتهم نقاد الشعر العربى بعض الشعـراء الجاهليين والامويين بالسرقـات الشعرية كمـا حدث بين طرفة وأمرىء القيس وكما حدث بين جرير والفرزدق ، بـل يذكر السجستانى كما فى الموازنة للآمدى أن أبا تمام ليس له معنى تفرد به فاخترعه الا ثلاثة معان (14) . وكان أبو فراس الحمدانى يرجع كثيرا من معانى شعر المتنبى الى من سبقه من الشعراء . لذلك اهتم نقاد الادب القديـم بموضوع السرقات وبالاخص السرقات الشعرية منذ القـرن الثالث كأحمد بن أبى ظاهر المنجد ، وأحمد بن عمار ، وبشر بن يحيى ، كما فى الموازنة والوساطة (15) ثم أخذ النقاد فى القرن الرابع يؤلفون فى فن السرقات كتبا خاصـــة . فألف بعضهم فى سرقات أبـى نواس وفى سرقات أبـى تمام وما أخذه البحترى عنـه (16) ، وفى كتاب الشعـر والشعراء لابن قتيبة بحث فى السرقات ، حيث استعمل كلمة (الاخـد) ولم يستعمل كلمة (سرقة) (17) ، ويرى الآمدى المتوفى سنة 371 هـ

---

13) راجع اصول النقد الادبى ، احمد الشايب ص 225 والموازنة للامدى ص 55

14) اصول النقد الادبى ص 263 (بتصرف)

15) اصول النقد الادبى ص 265

16) نفس المصدر (بتصرف)

17) نفس المصدر (بتصرف)

فى كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى بأن لا سرقة فى الالفاظ اذا كانت مباحة غير محظورة ، وانما السرقة فى المعانى البديعية المخترعة التى يختص بها شاعر ، ولا بين المعانى المشتركة بين الناس التى هى جارية فى عادتهم وأمثالهم على أن الجرجانى المتوفى سنة 361 يرى فى كتاب الوساطة أن السرقة تكون فى الالفاظ والمعانى والاغراض والمقاصد وتكون واضحة وغامضة يعرفها اللبيب حين يتعمد الشاعر اخفاءها على أنه يلتمس لشعراء عصره العذر لان المتقدمين قد سبقوهم الى أهم المعانى ويرى من الصعوبة الحكم على الشاعر بالسرقة لاحتمال توارد المعانى (18) ، أما العسكرى المتوفى سنة 395 هـ ، فهو يرى أن المعانى حق مشترك بين الناس جميعا ، لكن على الآخذ أن يكسو المعنى ألفاظا من عنده ويقسم العسكرى السرقة الى سلخ وحسن أخذ على أن قبح الاخذ أن يغير على اللفظ والمعنى جميعا أو يفسد المعنى (19)

ويقسم ابن الاثير فى المثل السائر السرقة الى نسخ وسلخ ومسخ (20) ، وقد لخص الاستاذ أحمد الشايب رأيه فى الموضوع بقوله :

« على أن ذلك البحث الطويل العريض انتهى فى السرقات الشعرية الى أصول قليلة ، أهمها أن السرقة لا تتحقق فى المعنى العام الذى هو حق مشترك بين الناس ، ولا فى المعنى الذى أصبح كالعام المشترك لكثرة شيوعه وتداول استعماله ، وانما تكون فى المعنى الخاص أو البديع الذي انفرد به صاحبه وعنه أخذ الآخرون .

كذلك لا سرقة فى الالفاظ المباحة المتداولة ما دامت اللغة حقا للجميع ، وانما تكون السرقة هنا فى استعمال الالفاظ وطريقة وضعها

---

18) نفس المصدر (يتصرف)
19) اخبار البحترى للصوفى ص 152 ، طبعة دار الفكر ، دمشق . واصول النقد الادبى ص 267 .
20) اصول النقد الادبى ص 271 .

وصياغتها عبارات وأساليب اذ كان ذلك مناط البراعة ، ومجال الابتكار . ومعـرض الاصالـة » .

ومما يجيزه النقد الادبى القديم فى التقليد النثرى أن يأخذ الاديب عن سلفه الفواصل والاسجاع وان يستغلها بدون تضمين وقد شرح هذه النظرية النقدية الادبية غريط (21) وذكر أنه وجه سؤالا الى اديب المغرب فى عصره أحمد بن المامون البلغيتى فى موضوع السرقات النثرية ، حيث أن علماء البديع اذ تكلموا عن السرقات الشعريه فقط ، لا سيما وأن هناك أدباء كبار أخذوا جملا عديدة من غيرهم وأدرجوها فى نثرهم فوسمهم أهل عصرهم بالسرقة ولم تكن هناك شبهة تدرأ حد الملام . وقد رد عليه استاذه بأن النقد يحصر ذلك فى أربعة أقسام ، أخذ الشعر من الشعر أو نثر من نثر ، والاخذ طبعا ليس هو الاقتباس ، فأخذ الشعر من شعر معروف عند علماء النقد ، وأما الشعر من النثر هو المسمى بالعقد فيجوز طريقة الاقتباس ، وأما أخذ النثر من الشعر فهو المعروف بالحل ، وأما أخذ النثر من النثر فلم يتكلم عليه النقاد القدماء فى التلخيص والمفتاح والايضاح والتلويح . . الـخ ، وان كان يظهـر أن أنواع السرقـة الشعريـة تجرى عليه قطعـا .

وعلى هذا ، فالنقد القديم لم يكن قاسيا على أبى البقاء البلوي لا سيما وقد انتحل طريقة رئيس مدرسة نثرية لابد أن يتأثر ببناء جملته وتركيب عبارته ، ولما كان أسلوب الرحلة عالى النفس كثير الشجع محكم التعبير ، ومنتقى المفردات ، لا يسير على أسلوب ابن الخطيب ومدرسته، فقـد اتهم ابن الخطيب البلـوي بالانتحال لكلام العماد الاصبهانـى وتهمة ابن الخطيب بالنسبة لكتاب البرق الشامى ، تهمة واهية لا تؤيدها حجة ، وانما هى أنانية ابن الخطيب وسلاطة لسانه ، وتصديه لادبـاء عصره الذين لم يحفلوا به ، ولذلك فلا يكاد يذكر البلوى حتى يثير قضية البرق الشامى من قريب أو بعيد فيقول مثلا :

---

(21) فواصل الجمان للشاعر محمد غريط .

خليلـى ان يغض اجتمـاع بخالـــد
فقــولا لــه قولا ولــن تعدوا الحقــا
سرقــت العمــاد الاصبهانــى برقــه
وكيف تــرى فى شاعر سرق البرقــا

وعندما زار ابن الخطيب فتورية تعرض لذكر البلوى فى تهكم وقال : « يكفى من البرق شعاعه وحسبك من شر سماعه ، ويسير التنبيه ، كاف عن التشبيه ، وهو يريد بالبرق كتاب (البرق الشامى) العماد الاصبهانى وقال ابن الخطيب أيضا فى الاحاطة : « وقيد رحلته فى سفر وصف فيــه البلاد ومن لقيــه (بغصول) جلب أكثرها من كلام العماد الاصبهانـــى وصفوان وغيرهما ، وكان أبو البقاء يتضايق من هذا النقد حتى أن ابن الخطيب ذكر أنه يتظلم من ذلك وينطوي من أجله على الوجدة ودافع المقري عن أبى البقاء بقوله : ـــ ان ابن الخطيب كان منحرفا عنه ، ولذا قال عنه ما قال فى كتابه خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف ونقل ما جاء به فى الاحاطة من كلامه (السالف الذكر) .

والواقع أن ابن الخطيب كان قاسيا على البلوى فى اتهامه بالسرقة لان البلوي لم يكن امام مدرسة وانما كان مقلدا كأكثر الكتاب فــى عصره ، ومن حقه أن يتأثر بمن يشاء من الكتاب ، وعلى هذا فالبلوى لم يكن سارقا فى نظر النقد ، بل هو مقتبس بعض التعابير الوصفية والادبية والانماط التصويرية ، واذا انتقلنا من النثر الشرقى ومذاهب الاخذ فيه الى النثر الاندلسى وطابعه الخاص ، فان البلوى يكون أكثر حصانـــة وذلك لفقدان التقاليد النثرية فى عصره ، ومحاولة المغاربة عامة تقليد كتاب نابهين فى الشرق ، وابن الخطيب لم يكن منصفا فى نقده ، لانه اذا كان يرى أن أبـــا البقاء اقتدى أسلوب العماد فى السجع ورواية القصائد والمقطوعات بل وفى تكوين نفس بعض السجعات والتصميمات فالنقــد لا يتوجه لمنهاج البلوي ، ولا يرى فى ذلك ما يوجب الاختلاس لان اقتفاء

العماد الذي كان يعد بحق استاذ مدرسة نثرية، اقتفى البلوي أسلوبه اقتفاء التلميذ للاسناذ ، أما اذا كان ابن الخطيب يريد أن البلوى سلخ الرحلة ونسبها لنفسه فان ابن الخطيب لا تساعده البراهين لاختلاف الموضوع وما أظن من النزاهة فى شىء أن يكون البلوى فى قفص الاتهام ، فالعماد فى البرق الشامى لا يعنى باجازة العلماء بقدر ما يعنى بالوصف القلمى للناحية الاجتماعية وبالاخص للبلاط ، كما يهتم بوصف المدن التى زارها كوصفه لنصيبين ودمشق وحران أو بوصفه لحياة القصور كخروج النساء الانابكيات وولوع السلطان بالصيد ، وأحيانا يعرب عن مقدرته البلاغية فيكتب الفصول الممتعة فى تفضيل دمشق وفى تفضيل الشام وفى وصف شاطىء فرامان ، وفى وصف القلم والنشاب وغير ذلك فى أسلوبه المطبوع بمذهبه فى الترسل وهو لا يكاد يستمر حتى يعود الى الموضوع الاول تحت عنوان (عاد الحديث) وهذا ما لا يفعله البلوى ولا يمكن أن نتهم البلوى بنقله أوصاف المدن لان المدن التى زارها والخطة التى سلكها هى غير المدن التى زارها العماد ، وغير الخطة التى سلكها (22) ويقول دوكايسترى بأن الرحالة فى المغرب كانوا يتأثرون بأساليب الكتاب الشرقيين فى رحلتهم ، ولذلك تأثر أبو البقاء بكتاب البرق الشامى للعماد الاصبهانى ولكن ابن الخطيب سخر بالاديب البلوى فى مقطوعة هجائية ، ويختم دكاسترى ملاحظته قائلا : « انا نرى أن الوزير الغرناطى الشهير لم يتخل عن طابع العصر ولم يقو على عدم النيل من شاعر معاصر له » (23) .

ولنأخذ أسلوب العماد من البرق الشامى لنرى تشابه تركيب جملته مع البلوي ولا يمكن أن نقول أنها مسروقة ومنقولة حرفيا ، يقول العماد لدى ذكر الدخول الى الساحل للقاء الفرنج :

---

22) انظر البرق الشامى تصوير مبكر وفلم (230) الخزانة العامة بالرباط .
23) انظر مقدمة ترجمة النفحات المسكية

وكان الرحيل يوم الجمعة شهر ربيع الاخير ، ومعترك معترك ، وفاجر مساجر ، وأطلس رئبال ، وأمرط خال ، فعاموا فى بحر العمـى ، وحاموا فى الردى حول الحمى ، واغاروا لاقتحام الوغـى ، واضجروا مضجـرا صفى من فى غيل القنـا ، وطما سيل خيلهم على الوهـاد والـربـى . .

وهذه مقاطع تتشابه مع أسلوب البلوى وليست نقلا حرفيأ عن العماد كما يرى ابـن الخطيـب .

ومن حسن حظ البلوى ان ابن الخطيب فاته أن البلوى (سرق) بعض فقرات كتابه من كتاب سبقوه لم يفطن لهم ابن الخطيب وبالاخص مما كتبه أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومى شيخ الكتاب المغاربـة والاندلسيين والذي كان كاتبا للموحدين فى الاندلس والمغرب ، وكان كاتبا أيضا لبعض أمراء الطوائف ثم كان فى آخر حياته مستشارا للخليفة المنتصر الحفصى وأول قاض لمدينة الرباط ومن أوائل أعلامها كما فـى كتـاب الاغتبـاط (24) .

فقد جاء فى وصفه لمحلة الخليفة الـذي رحل معـه فى تجوالـه فى المغرب فى سنة 637 – 646 (24) ما يأتـى :

« وانتهينا الى المحلة وهى روض يثمر خيلا واعنة ، وبحر يزخر قنـا واسنة ، وذوائب الاعلام تخفق ، وألسنة عذباتها تكاد بالنصـر تنطق ، والاحوال قد استقامت والاخبية على القاعدين فيها قد قامت ، وهى مبيضة كسقيط الثلج ، مصطفة كبيوت الشطرنج ، وأطللنا علـى أفراق فراق ، وأعار ذلك الجو الاشراق ، الـخ .

ويقول البلوى فى وصف محلة ابن سعيد المرينى فى تلمسان :

« وحللنا فى المحلة وهى روض يثمر خيلا واعنة ، وبحر يزخـر قنى

---

23) تاريخ الرباط الحسن السايبح .

24) دعوة الحق العدد 8 السنة الثامنة جوان 1965 صفر 1385 ، بحث عن ابـى عميـرة المخزومـى

واسنة وذوائب الاعلام تخفق ، وألسنة عذباتها تكاد بالنصر تنطق ، والاحوال قد استقامت والاخبية على القاعدين فيها قد قامت وهى كسقيط الثلج مصطفة كبيوت الشطرنج » .

فهذه عبارة منقولة عن ابن عميرة بوضوح لا لبس فيه ولو أطلع عليها ابن الخطيب لشهر به واتم ملف اتهامه .

أهمية رحلة البلوي الأدبية

قرظ رحلة البلوي جهابذة عصر البلوي وهم ، أبو القاسم بن سلمون ابن على بن سلمون الكتانى وأبو عبد الله محمد بن سعيد المعروف بأبى النجار وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن سلمة الغرناطى وأبو الحجاج بن حصن ويوسف بن على بن محمد بن محمد الحولانى ، والوزير الكاتب أبو جعفر أحمد بن زرقالة (25) وأبو عبد الله محمد بن حسين وأبو عبد الله محمد بن جعفر بن مشتمل البليانى ، وقد اثنوا جميعا على جهود المؤلف وقدروا منهجه وثقة نقله .

أما بعد عصر البلوى فقد ظلت هذه الرحلة حية تناقلتها الخزائن وتهافت عليها الوراقون ، لذلك تعددت نسخها ، وجود خطها ، وقلما خلت منها خزانة أديب من أدباء عصره ، فقد ذكر أحمد بابا السودانى أنه وقف عليها ووصفها أنها رحلة فى سفر وفيها فوائد ونقل عنها عدة تراجم وذكر فى آخر الكتاب أنه اعتمد عليها ، كما اعتمد على فهرست صديقه أبى عبد الله الحضرمى واختصرها عدة أدباء وينقل على بن محمد بن على الجزولى الدرعى التمجرورتى المتوفى سنة 1003 هـ – 1594 م (26) كثيرا من فصول رحلة البلوى فى رحلته : النفحة المسكية فى السفارة التركية .

---

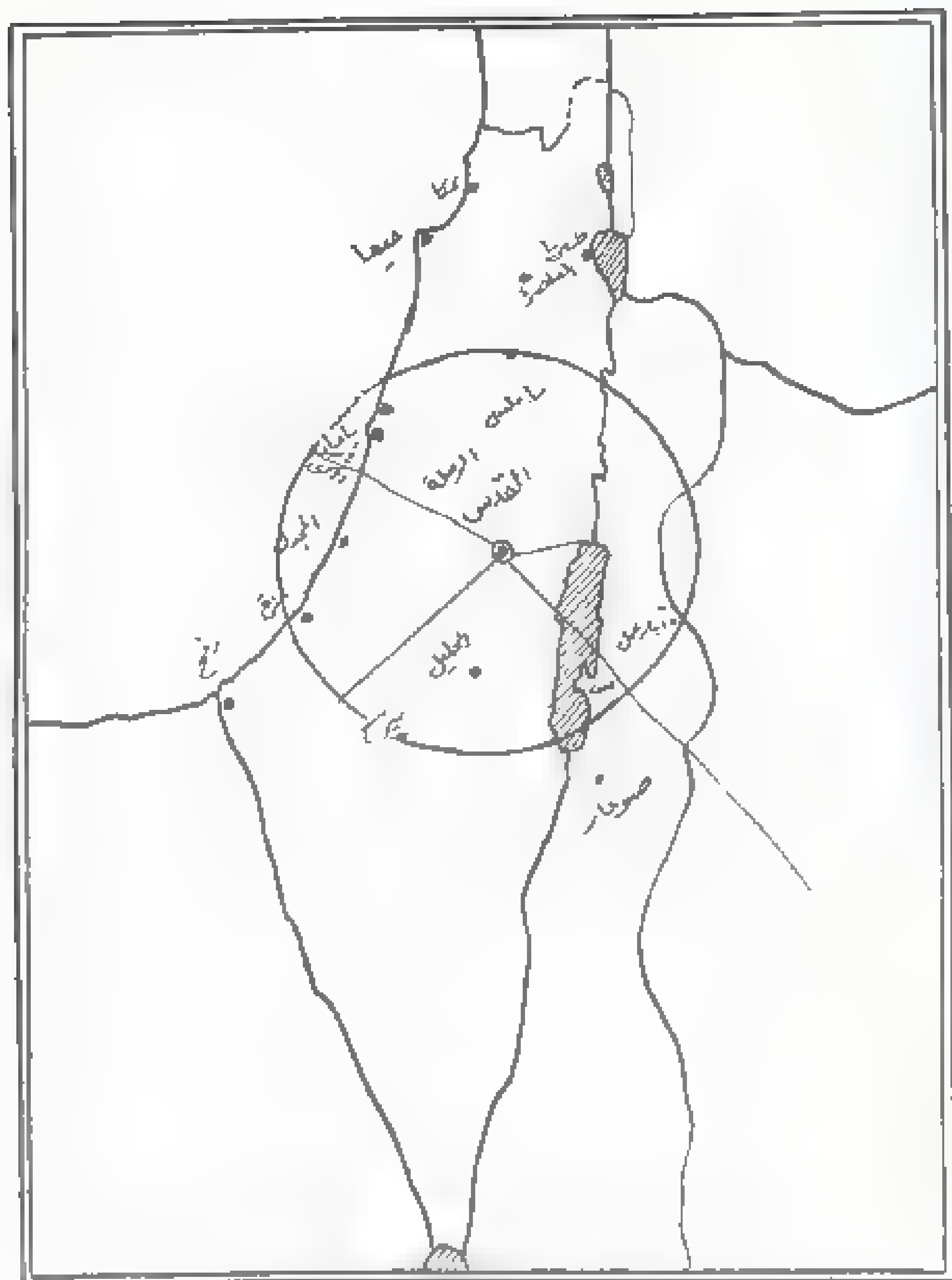
25) اديب أندلس ، الف كتاب رائق التحلية فى فصل التورية ، وهو معاصر لابى البركات ابن الحاج البلفيقى .

26) انظر ص 9 – 149 من مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 755 . ومطبوعة كتاب دوكاسترى حيث لاحظ أن اكثر من عشرين صفحة منقولة من رحلة البلوى.

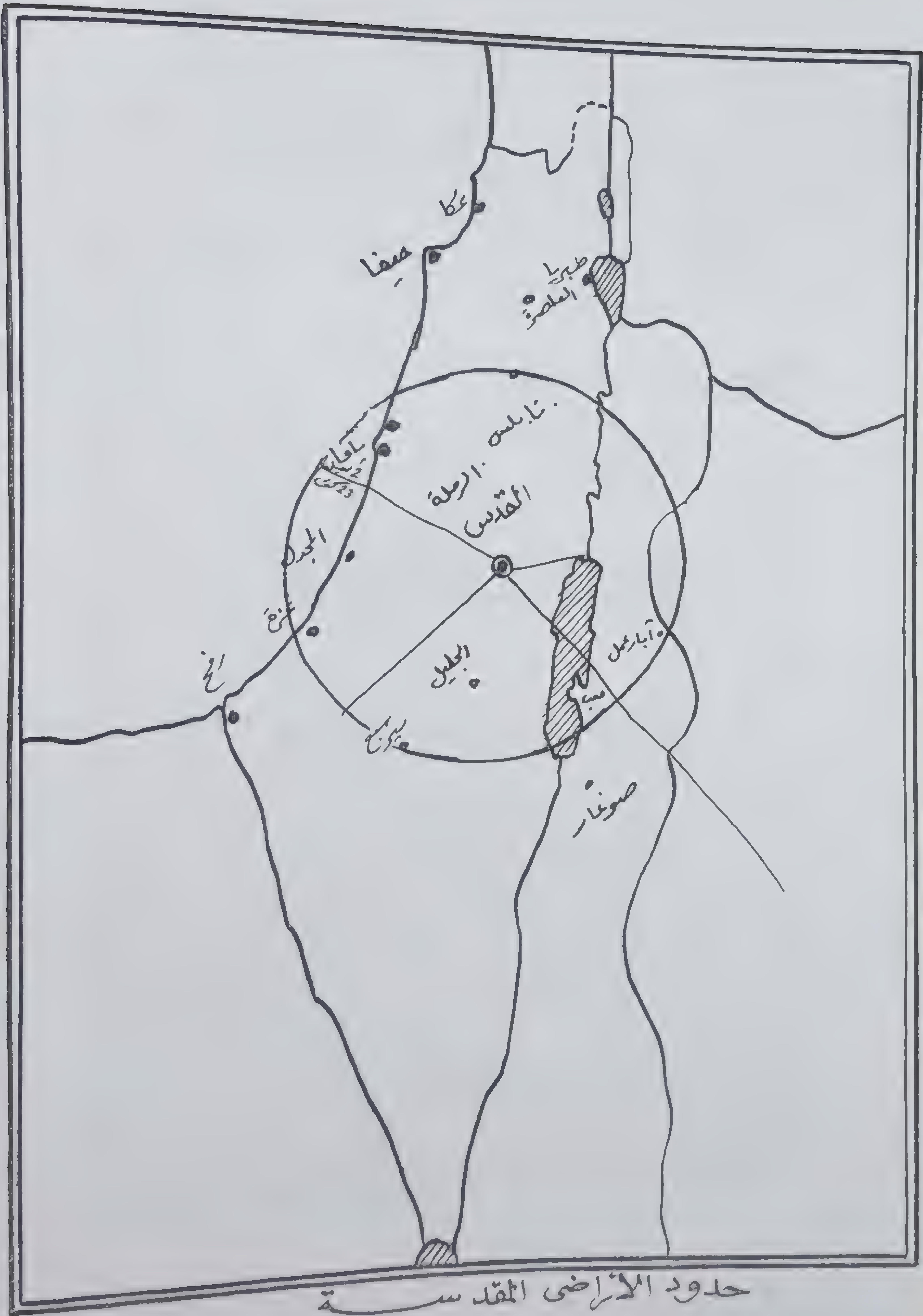
الجانب الجغرافي للرّحلة

علم الجغرافيا عند المشارقة والمغاربة

مُعجمٌ
بأسماء المدن التي زارها البَلَوي



حدود الأراضي المقدسة



حدود الأراضى المقدسة

علم الجغرافيا عند المشارقة والمغاربة

لعل من المألوف عند علماء اللغة أن يرجعوا كلمة الجغرافية الى أصل يونانى اذ الواقع أن العرب لم ينظروا الى المعلومات المتعلقة بهذا الفن نظرة علمية مركزة الا بعد اتصالهم بالحضارة اليونانية فى أواخـر عصور بنى أمية وأول عصر بنى العباس فى بغداد ، ولا شك أن تجاربهم القديمة ، وآراءهم فى هذا الموضوع كانت من دواعى تعزيز هذا العلم وتطوره ، أضف الى ذلك ما أوجبه الدين الاسلامى على المسلمين اقامة الصـلاة والتوجه الى القبلة ومعرفـة جهتها ، والحج اليها من سائـر الامصار، وما تقتضيه طبيعة التوسع من حب الاستطلاع ومعرفة الاقاليم سيما ونظام الجزية يدعو الى البحث عما فتح عنوة ، وعن طبيعة الاديان المنتشرة فى الاقاليـم قبل الفتـح الاسلامى ، وحالتهـا الاقتصاديـة والستراتيجية كل هذه العوامل ساعدت على شرح مدلول الكلمة اليونانية، وما انتهى اليه الاغريق وغيرهم حتى أن حاجى خليفة يلاحظ فى كشف الظنون أن مدلول كلمة الجغرافيا لا تمثل مدلول معناها عند العرب ، اذ معناها الاصلى معرفة سطح الارض ، ولعل اليونان جمعوا أصول هذا العلم عن الكنعانين الذين جاسوا المتوسط الى الاطلسين وآسيا الصغرى حتى اذ جاء هيرودوت ق.م. سنة 484 ق.م. ترك تقريرا مجملا عن حدود الارض المعروفة اذ ذاك واستنتج برميندس أن الارض كروية ، فأكد أرسطو هذه النظرية كما استعمل ايراتوستين سنة 276 ق.م. متوازي الطول والعرض ، ثم جاء بعده بطليموس سنة 167 ق.م. فأطلح المساحات والخطوط . كل هذه

التحديدات تجاوزها العرب عندما تناولوا ما وصلهم من أبحاث فى هذا الموضوع ، ولكنهم لم يستعملوا كلمة ذات مدلول جديد لتحديد هـذا العلم كما تصوروه ، وكما أضفوا عليه من سعة تفكيرهم ، وظلوا الى القرن السادس عشر ، وهم لا يملكون عبارة تفى بغرضهم ، اذ مدلول كلمة (جغرافيا) يتجاوز فى الاصطلاح تحديدات بطليموس كما هى عنده . وظلوا يستعملونها مجردة من آل المعرفة لانها دخيلة ، وقد اعتمدوا عليها أول الامر ، بصفة استثنائية ثم تجاوزوها الى كلمات أخرى ، فسلموا هـذا العالم تارة على الاطوال والعروض ، وتارة علم المسالك وتارة علم عجائب البلدان ، وهذه الاسماء المستعملة لهذا العلم تشمل فروعه ، ولا سيما علم الاطوال والعروض وتقويم البلدان (1) .

ولا شك أن اتصال الجغرافية بالتاريخ والفلك والنجوم والجيلوجية كان عاملا قويا فى عدم تحديد مفهوم هذا العلم عند العرب ، ولذلك ظل التعريف باهتا ، وظل اسمها متأرجحا بين عدة ألفاظ تعبر جميعها عن هذا العلم ولا يحدد واحد منها مفهومه للضبط . وظل العرب الى القرن السادس عشر كما يقول (بلاشير) ، وهم لا يملكون عبارة خاصة لتسمية هـذا العلم بدقة ، وكانت الرحلات التى تعتبر مجالا للعرض الادبى وللمذكرات من بواعث تقدم هذا العلم عند العرب ، وكذلك التاريخ الذي له علاقة بالجغرافية كدراسة للحدود والاقتصاد والتجارة مع الشعوب ، بل ان التاريخ لا يدرس الا على أساس جغرافى ، وبعد الالمام بمباديء هذا العلم أو بعبارة أدق يعتبر التاريخ هو دراسة للزمان ، والجغرافية دراسة للمكان ولا تستغنى أحداث الزمان عن المكان ، فالعوامل الجغرافية تتحكم فى التاريخ الى حد بعيد ، وأسباب الهجرات ترتبط بالجغرافية ، واذا كنا نعرف أول الآثار الجغرافية على يد الاغريق فقد أثبت تاريخ العلوم أول رحلة هى رحلة البودى (يوان شوانج) الذى تغيب فى رحلته عن الصين ستة عشر عاما ، حيث عبر الصحراء

---

(1) انظر الجهشيارى والصولى وابن النديم .

متجها الى الهند عبر ممر خيبر ، ثم عاد لوطنه عن طريق افغنستان وعكف بعد ذلك على وضع كتاب عن رحلته التى تعتبر من عيون الادب الصينى الكلاسيكى ، وبقى مؤلفها بقية حياته فى أديرة الصين يترجم الادب البوذى الى اللغة الصينية ونمت .

ويقسم المهتمون بتاريخ الجغرافية موضوعات الجغرافية عند العرب الى جغرافية أدبية وجغرافية علمية فرحلات واكتشافات ، ثم دراسه المسالك والممالك ، وأخيرا تقسيم الاقاليم واشتهر فى القسم الاول ابن خرداذبة مؤلف المسالك والممالك ، والبلاذرى المؤرخ النسابة مؤلف البلدان (1) وابن رسته صاحب الاعلاق النفسية ، وقدامه ، واشتهر فى القسم الثانى أبو بكر أحمد بن محمد المعروف بابن الفقيه مختصر كتاب البلدان ، ومن رجال الرحلات القدماء ابن فضلان سفير المقتدر لبلاد البلغار ، وابن شهريار من أواخر القرن الرابع المتجول فى بلاد خوزستان ، أما المسالك والممالك فقد اشتهر بها اليعقوبى والبلخى وابن حوقل مؤلف المسالك والممالك ، والمفاوز والمهالك والبكرى . كما اشتهر فى تقويم البلدان المقدسى والادريسى . على أن هذا التقسيم لا يمنعنا من ذكر أعلام الجغرافيين الذين تألق اسمهم بجانب هؤلاء فى المغرب والمشرق والذين كانوا متبعين أكثر مما كانوا مبتدعين ، كابن سعيد صاحب بسط الارض فى الطول والعرض ، وابن عبد الحق صفى الدين مؤلف مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، وهو مختصر لكتاب ياقوت الحموى ، وينسب للسيوطى أيضا ، وابن فضل الله العمري صاحب مسالك الابصار الذي يعتبر كتابه دائرة معارف جغرافية وتاريخية وهو كاتب سر السلطان ابن قلاون ، والغرناطى مؤلف تحفة الاصحاب ونخبة الاعجاب وابن رشيد السبتى ، وابن رشيد الورنشريسى ، وابن الوراق ، والحميري وأبو القاسم الزمخشرى مؤلف الجبال والامكنة والمياه ، وزين الدين مؤلف خريدة

---

1) انظر الجهشيارى وابن النديم ، والدكتور حسن ابراهيم حسن فى تاريخ الاسلام.

العجائب ؛ وفريــدة العجائب ، وأبو الفداء . هــذا وقد اعتمد معظــم الجغرافيين الذين سبق ذكرهم على ما كتبه بطيلموس فى تفصيل الاقاليم وصورهــا (2) ، ولعــل ممــا يثير النظــر أن يكــون معظــم هؤلاء فى أول الامر كانوا من المشرق ، وذلك لاتساع نطاق التجارة فى العصر العباسى واتصال بغداد برا وبحرا بالبلدان القاصية ، وتعبيد الطرق ، واستقرار الامن ، فكان لذلك كله أثر فى تسهيل السفر وتمهيد السبــل أمام الكاشفين والرحالين ، فظهر مشارقة مسلمون قاموا برحلات مهمة وألفوا أسفارا عديدة ووصفوا ما شاهدوا وصفا دقيقا .

ونمت معلومات المسلمين الجغرافية بسبب الاستفادة من مكاســب الفتوح والعمل على تنظيم طرق المواصلات فى البر والبحر ، ولوائــح المحصولات ليتأتى العمل بالخراج والمكس ، وكانت مصلحة البريد ذات فائدة فى تنظيم هذا العلم معتمدة على قياس الابعاد وتحديد الاقاليم ، فالعرب ورثوا عن الرومان ادارتهم فى الاقاليم المفتوحة ، ومنها نظام البرية (الذي احتفظوا به كما تركه الرومان) وكان الرحالة الاولون اهتموا بهذه الدراسة يؤدون عملا اداريا يكافأون عليه ومن هــؤلاء البلاذري (218) وابن خرداذبة 272 هـ 912 م واليعقوبى 278 وقدامة 907 ميلادية والبلخى 322 هـ 934 م وابن حوقل 380 هـ 981 م . وبما

---

2) انظر منتخبات من آثار الجغرافيين ، بلاشير ودرامون .
وكذلك اعتمدت على أصحاب المعاجم ودائرات المعارف ومؤرخو الادب العربى كجرجى زيدان وحنا الفاخورى .

أن مهمة هؤلاء كانت محدودة فقد أتم مختلف التجار المسلمين فى المشرق والمغرب عملهم حيث وصلوا الى بلاد الفرو شمالا ، والافاويه شرقا والمعادن جنوبا وأقدم ما وصل الينا من أثر هؤلاء أسفار السندباد البحري ورحلة التاجر سليمان والناخذاة ابن وهب الى الهند والصين فى منتصف القرن التاسع ومما زاد عليها أبو زيد السيرافى (851 م) ورحلات ياقوت الحموي مؤلف معجم البلدان الذي اهتم بالجغرافية الانتروبولوجية ورحلة الشاعر أبى دلف ابن مهلهل المى بحارى والتبت والصين وافغنستان أوائل القرن العاشر صحبة بعض أمراء الهند المدونة فى كتاب عجائب البلدان وهو من مصادر ياقوت والقزوينى ورحلة المسعودى 956 م والبيرونى 1048 مؤلف تاريخ الهند وغيرهم (4) .

وخلف لنا هؤلاء ثروة علمية هى خلاصة التجربة والمشاهدة ، فقد وصل بعضهم فى عصر هارون الرشيد الى الهند وسيلان وشبه جزيرة ملقا والصين . بل يقال انهم وصلوا بحرا الى كوريا . وكان لجغرافى الشرق العربى أثر فى ارتياد الاوربيين الاقطار الشرقية للكشف والعلم كما كان لجغرافى افريقيا فضل اكتشاف القارة الافريقية كلها فيما بعد ، ولعل من الحق أن يكون اكتشاف أمريكا على يد العرب الاندلسيين قبل أن يعرفها كرستوف كلومب بثلاثة قرون ، كما أن للعرب آراء طريفة فى الجغرافية الرياضية والجوية . ولا شك أن ازدهار المسلمين اقتصاديا ساعد على نمو هذا العلم اذ أن هذه الثروة الجغرافية التى خلفها جغرافيو المسلمين ورحالوهم لم تظهر ظهورا واضحا الا فى العصر العباسى الثانى فظهر كثير من كتبوا فى الجغرافيا نذكر منهم :

1 ــ ابن خرداذبة وهو فارسى الاصل كان عاملا للبريد وعاش فى النصف الاول من القرن الثالث الهجرى (282 هـ) (912 م) ويعد أقدم جغرافى المسلمين وبالاخص فى العصر العباسى بعد البلاذرى (218 هـ =

---

4) الروائع (بتصرف)

892 م) وقد خلف المسالك والممالك الذى يعتبر أقدم الكتب الجغرافية وكان دليلا يستعين به المسافرون فى الاهتداء الى الطريق البحرى الذى يبدأ من مصب نهر دجلة ويصل الى الهند والصين (نشره دى غوية) . (بليدن سنة 1888) مع نبذ من كتاب الخراج ، وصنعة الكتاب لابن فرج قدامة ابن جعفر ، ويشمل الباب الحادى عشر من هذا الكتاب ديوان البريد والسكك والطرق الى نواحى المشرق والمغرب أما البلاذرى المتوفى سنة 218 هـ 892 م فقد صنف كتبه للخليفة المتوكل ، والمستعين ، واشتهر بالنقل عن الفارسية وترك لنا كتاب فتوح البلدان وانساب الاشراف (5) وابن الحائك 945 م 334 هـ . ألف المسالك والممالك .

2 — أحمد اليعقوبى المتوفى سنة 278 هـ — 897 م ، صاحب البلدان الذى قام برحلات طويلة فى أرمينية وايران والهند ومصر والمغرب ودون نتائج رحلته ، ويوافق روايات الطبرى (نشرت رحلته فى جزئين طبعه ذي غويه بليدن وترجمه للفرنسية جاستون فيت) .

3 — جغرافيو القرن الرابع كقدامه بن جعفر ، 320 هـ 922 م والبلخى 322 ـ 934 م أبو زيد السيرافى المعلق على رحلة التاجر سليمان والناخذاة ابن وهب ، والشاعر أبو دلف ابن مهلهل الذي سافر من بخارى فى أوائل القرن العاشر الميلادى برفقة أحد أمراء الهند فزار التبت والهند مارا بكشمير وأفغانستان وسجستان ، ودون ملاحظاته فى كتابه (عجائب البلدان) .

4 — أبو محمد الحسن الهمدانى (توفى 334 هـ) 973 م الذى ترك (صفة جزيرة العرب فى جزئين) .

5 — على المسعودى (ت 345 هـ 956 م) وهو رحالة عظيم ، زار كل أجزاء العالم تقريبا الى الفرس والهند وسيلان ، وصحب التجار الى

---

5) راجع تراجم هؤلاء عند مؤرخى الادب العربى وعند الدكتور حسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام (راجع تراجم هؤلاء) .

الصين وزار (زنجبار) بسواحل افريقيا الشرقية ، والسودان ، وقزوين ، وآسيا الصغرى ، وبلاد الشام ، وفلسطين ، وزار مصر فى عهد محمد طغج الاخشيدى مؤسس الدولة الاخشيدية ، ووصف الاهرام والمبانى وطبقات الشعب وحالة السكان ونظام الرى وجبر الخليج وقطع السدود وليلة الغطاس ، وتكلم على أعمال المصريين فى ميدان البحث والتنقيب والآثار ، وكشفهم أخبية الهياكل والموميات ، كما زار المسعودى آسيا الصغرى كلها وقضى أواخر أيامه فى سورية ومصر آخر عهد الاخشيد ، وألف مروج الذهب فى التاريخ والاجتماع ، والتنبيه والاشراف فى الجغرافيا (نشرهما دى غوية) ، وله كتب أخرى منها أصول الديانات وسر الحياة ، وكتاب فى الامامة وكتاب (أخبار الزمان) منذ بدء الخليقة وهو وصف للعالم وعجائبه وبحاره ، ومرتفعاته ومنخفضاته وجباله وأنهاره ومعادنه وجزره وبلدانه ، وهو يتناول الكلام على العالم منذ البدء الى سنة 324 هـ وله (كتاب الاوسط) وهو عبارة عن حوليات فيه تاريخ العالم من البدء الى الوقت الذى انتهى من وضع أخبار الزمان ، وحاول الكلام على نظام الطوائف والجماعات المختلفة ولا سيما الاحتفال بالاعياد والمواسم وبذلك وضع اللبنات الاولى لعلم الاجتماع وأخذ عنه ابن خلدون كثيرا من الآراء

6 ــ أبو اسحاق الاصطخرى الفارسى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى (أي العاشر الميلادى) وألف كتاب الاقاليم ، موضحا بالخرائط كما ألف المسالك والممالك ، وهو نتيجة رحلته ونقل كثيرا من كتاب صور الملوك للبلخى (ت 322 هـ) صاحب كتاب البدء والتاريخ وينسب الى المقدسى واعتمد على ما دونه بوزرج بن شهريار أحد سكان (رامهرمز) الذى كتب عجائب الهند باللغة العربية مستعينا بمشاهدته وما نقله عن غيره من الرحال ، ولم يكب أحد عن حياة الاصطخرى والمعروف أنه التقى بابن حوقل سنة 340 هـ .

7 ـ أبو القاسم ابن حوقل البغدادى (ت 380) (981 م) وقد راجع مسالك الاصطخرى وزاد عليه كتاب (المسالك والممالك والمفاوز والمهالك) نشره ذى غوية فى المكتبة الجغرافية العربية ، ويحتوى كل من كتاب الاصطخرى وابن حوقل على وصف دقيق لاجراء العالم الاسلامى وأشهر مدنه ، وقد شاهد كل ما كتب الا الصحراء الكبرى .

8 ـ شمس الدين المقدسى (ت 387) ألف أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، وقد نشره ذى غوية .

9 ـ البيرونى (440 هـ 1048 م) من خورا رزم ، ترك الآثار الباقية وله كتاب عن الهند ، والبيرونى فيلسوف ، ورياضى مشهور .

10 ـ ناصر خسرو (ت 481 ـ 1008 م) ألف سفرنامة ـ أو زاد المسافر ، ودون به مشاهداته فى بلاد الفرس والعراق والحجاز والشام ومصر ، وقد زارها فى عهد المنتصر الفاطمى سنة 422 ووصف البلاط وابهته وكان وزيرا فى بلاط خراسان ، واعتزل الاعمال السياسية فحج البيت وأصبح داعيا للاسماعلية ، وكتابه ألغه بالفارسية ترجمة شفر الى الفرنسية .

11 ـ أبو عبد الله البكرى (ت 487 هـ) 1040 ـ 1094 م ألف المغرب فى ذكر بلاد افريقيا والمغرب (طبعه دوسلان) وهو جزء من كتاب المسالك والممالك .

12 ـ شهاب الدين ياقوت الحموى الرومى (ت 626 هـ) (1229 م) هو افريقى المولد أسر صغيرا وبعث به فى تجارة الى الخليج الفارسى وعاش على بيع الكتب ونسخها ورحل ثلاث رحلات للتجارة ولم يحد عن الرحالة الا قبل وفاته بسنتين وقد ترك :

معجم البلدان فى (10) أجزاء ، ومراصد الاطلاع على أسماء الاماكن والبقاع . وقد اختصره عبد المومن بن عبد الحق المتوفى سنة

(739) من معجم البلدان فى أربعة أجزاء وطبع بلندن ، وارشاد الاريب الى معرفة الاديب فى سبعة أجزاء .

13 ــ عبد اللطيف البغدادي (ت 629) ترك الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، ترجمه دوساسى وعــاق عليــه .

14 ــ الشريف الادريسى (ت 564) ألف نزهة المشتاق فى ذكر الامصار والاقطار والبلدان وهو مختصر لنزهة المشتاق المطبوع بروما سنة 1592 ورسم الادريسى خريطة العالم ، وقد طبع ملير خريطــة الادريســـى (6) .

---

6) راجع فى هذا فصل كتاب الدكتور زكى محمد حسن فى كتابه (الرحالــة المسلمون فى العصور الوسطى) طبع بمصر ــ 1945 .

مُعجمُ
بأسماء المدن التي زارها البلوي

تهتم رحلة البلوى بذكر المدن والقرى والجزر البحرية التى مر منها فى طريقه الى الحج . . وهى بهذا تعتبر معجما جغرافيا لعدة مدن أقام بها فى طريقه الى الحج أو فى رجوعه منه مما حتم أن أبحث عنها فى المعاجم الجغرافية للتحقق من ضبطها وعمارتها وحياتها الاجتماعية والاقتصادية .

أقريطش : جزيرة فى بحر المغرب يقابلها من بر افريقيا لوبيا وهى جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى وينسب اليها جماعة من العلماء فتحها جنادة ابن أبى أمية سنة 54 هـ (أنظر ياقوت الحموى) .

الاسكندرية : مدينة عتيقة بمصر تنسب للاسكندر (أنظر تاريخها ووصفها القديم فى الملحق بالمعجم) .

أشغرابطة : احدى جزر الروم على مقربة من قبرص كما ورد فى البلوى ولكننا لم نعثر على ذكرها فى المعاجم .

باجة : بلد بافريقيا ، نعرف بباجة القمح ، وبينها وبين تونس يومان ووصفها البكرى فقال : ان حصنها أزلى كما وصفها بكثرة الانهار .

بجاية : مدينة على ساحل البحر بين افريقيا والمغرب كانت قاعدة بنى حماد وتسمى الناصرية وتقع فى مفترق الطرق المؤدية الى كثير من البلاد ومنها تركب السفن المحملة بالمنتوجات الى جميع الجهات ، وبينها وبين مليانة ثلاثة أيام .

بجـانــــة : مدينة بالاندلس من أعمال البيرة وانتقل اليها أهلها الى المرية بينها ، وبين المرية فرسخان وبينها وبين غرناطة مائة ميل ، وهى ثلاثة وثلاثون فرسخا ، ومنها أبو الفضل مسعود بن على البجانى وعلـى بن الحسن وعلى بن معى بن سمعان بن موسى الرعينى البجانى وعلـى بن الحسن المرى . .

برشــانــــة : قريــة قرب اشبيليــة .

بطــن مــر : من نواحى مكة عنده يجتمع وادى النخلتين فيصيران واديــا واحـــدا .

بـــلـــش : بالفتح والتشديد اللام بالاندلس ينسب اليـــه يوسف بن جبارة البلشــى على ما ذكره ابن الفرضى .

بيت المقـدس : مدينة بها مساهد دينية وبه مغاور ومواضـع مقدسة وهى أعظم عاصمة فلسطين .

بونــة أو العنــاب : أصــل العناب النخل الطويل والعالــى فى السماء الذى لا ينبت شيئا وهى مدينة تقع على مقربة من قسطنطينة .

تــبــــو ر ك : موضع بوادى القرى والشام وبه حصن عظيم بينها وبين المدينـــة اثنتــا عشرة مرحلـــة .

تلمســـان : وبعضهم يقول تنمسان مدينتـــان متجاورتـــان مسورتان بينهما رميـــة حجر أحدهما قديمة والاخرى حديثـــة أختطها الملثمون ملوك المغرب ، واسمها تافرزت (بكسر الفاء وسكون الراء والزاى) يقيم بها الجند والموظفون واسم المدينة القديمة أقادير يسكنها الرعية كالفسطاط التى ظلت المدينة التجارية والقاهرة التى أصبحت بعد انشائها مقرا للسلطات والحاشية والجند .

تـونـس : مدينة كبيرة حديثة بافريقيا على ساحل بحر الروم عمرت على انقاض ـ قرطاجنة وهى قصبة افريقية (أنظر البكرى) فى المسالك و (ياقوت) فى المعجـم .

الجـزائـر : مدينة على ضفة البحر بين افريقيا والمغرب ، كانت المسافة بينهما وبين بجاية أربعة أيام وتعتبر من عواصم بنى حماد بـن زيرى بن مناد الصنهاجى كما تعرف بجزائر بنى فرغاى . وقال البكرى ، وبها آثار تدل على أنها كانت دار ملك لسالف الامم .

خـليـل : بلدة فيها حصن وعمارة وسوق قرب بيت المقدس بينهما مسيرة يوم ، بها قبر الخليل وفيها مثاهير وزوار وقرامون فموضوع القبـر واسمها الاصلى خبـرون .

خـليـص : حصـن بين مكـة والمدينـة .

دمنهـور : بلدة بينها وبين الاسكندرية يوم واحد فى طريق مصر وهناك ، دمنهور أخرى تسمى دمنهور الشهيد ، بينها وبين الفسطاط مسـافـة قريبـة .

ذات الحمـام : بلد بين الاسكندرية وافريقية وهى الى الاخيرة أقرب (كما فى يقـوت) .

را بـغ : قرية على البحر الاحمر ، تعتبر ميقاتا مكانيا لاحرام أهل المغرب ومصر الـخ . .

الرملـة : مدينة عظيمة بفلسطين . كانت رباطا للمسلمين ، بينها وبين القدس 18 ميلا ، وبها آثار ومشاهد ، وكانت ذات شأن فى الحروب الصليبيـة .

بـلاد الـزاب : منطقة واسعة تشغل المساحة الواقعـة بجنوب جبال أوراس وتشمل بسكرة وما حولها (يـاقـوت) .

شـاطبـة : مدينـة كبيرة قديمة تقع جنوب الاندلس فى شرق قـــرطـبـــة .

طـبـرق : أو طبرقـة بالتحريك وبعد ألراء الساكنة مدينـة بالمغرب على ساحل البحر الابيض المتوسط وتمتاز بآثارها الكثيرة علـى ساحـل البحر ونهرهـا الكبيـر .

الـــعـــلا : اسـم لموضع بناحية وادى القرى بينها وبـين الشام ، نزله الرسول فى طريقه الى تبوك وبنى فى مكان مصلاه مسجدا .

العقبـــة : منزل فى طريق مكة بعد واقصة وقبل القاع وهو ماء لبنـــى عكـــرة .

عسـقـــلان : مدينة بالشام مـن أعمال فلسطين على سـاحـل البحر ، قرب غزة وهى مدينة قديمة كان يسمى ايليـاء .

العـبـــاد : مرتفع جميل خارج مدينـة تلمسان كان مدفـن العلماء والاولياء وفى تلمسان موضعان يعرفان بهـذا الاسم (احدهما) العباد الفوقى وهو بعيد عن المدينة و (الثانى) العباد السفلى ببـاب الـجـيـــاد .

غـرنـاطـة : أقدم مدن كورة البيرة من أعمال الاندلس ، يشقها نهـر (حدة) أو (شنيل) وقد أصبحت عاصمة الاندلس فى عهد بنـى الـنـصـــر .

فـــوة : بليدة على شاطىء النيل على مقربة من رشيد الواقعة على البحر الابيض المتوسط تمتاز بأسواقها ونخلهـا .

قــاطيــــة : أو قطية قرية فى مصر تقع مقربة الفرما التى كانت تعد مفاتح الديــار المصريــة واسمها القديم بيلوزة .

القــاهــرة : عاصمة قطر مصر بجاب الفسطاط أسسها جوهر الصقلــى سنــة 357 هـ .

قــبــرس : جزيرة فى بحر الروم ذكرها يطليموس فى كتــاب ملحمــة الارض (أنظر ياقوت الحمرى) .

قتــوريــة : سلب الكلام عنها فى التعليق .

القــرافــة : خطة بالفسطاط بمصر ، وكانت فى عهد ياقوت الحموى مقبرة بها مشاهد الصالحين والاكابر كابن طولون ، والشافعى رضــى اللــه عنــه .

قسنطينــة : بفتح القاف وفتح السين وسكون النون ، وهى مدينة وقلعة كبيرة تقع فى حدود افريقيا ويقول عنها البكرى فى الممالك أنهــا مدينــة أزليــة .

قــوســرة : أو قوصرة جزيرة فى بحر الروم بين المهدية وجزيرة صقلية فتحت فى أيــام معاوية بن أبى سفيــان .

الــكـــرك : (بفتح أوله وثانيه) قلعة حصينة فى طرف الشــام من نواحى البلقاء تقع بين ايلة وبحر القلزوم والبيت المقدس ، وهى على جبل عال تحيط به أودية الا من جهة واحدة .

مــالــقــة : مدينة اندلسية من أعمال رية على ساحل البحر بين الجزيرة الخضراء والمريــه .

مــالــطــة : جزيرة فى البحر المتوسط قريبة من صقلية وافريقية

المــديــنــة : أو يثرب أو مدينة الرسول ، مدينة مقدسة بهــا قبر الرسول عليه السلام ومسجده .

مـرشـانـة : مدينة من أعمـال فرمونة بالاندلس .

الـمـريـة : بفتح الميم وكسر الراء وفتح الياء المشددة مدينة كبيرة من كورة البيرة من أعمال الاندلس وكانت هى وبجاية بابى الشرق، منها يركب التجار ، وفى المرية مرفأ ومرسى للسفن والمراكب ، يضرب ماء البحر سورها ويعمل بهما الوشى والديباج ، وفيها يكون ترتيب أسطول المسلمين، ومنها يخرج الغزاة الى بلاد الافرنج، وهناك مرية أخرى تسمى مرية بفتح الياء وكسر اللام والتشديد من أعمال رية على ضفة نهر المدينة وكانت مرسى يركب منها فى البحر الى بلاد البربر فى العدوة من البر الاعظم (أنظر لفظ المرية فى معجم البلدان لياقوت) .

مكـة : مدينة عتيقة مقدسة ، وتسمى بكة ، وأم القرى ، والبلد الامين وبها مشاهد الاسلام ، وبها تؤدى شعائر الحج ، حيث مكة المكرمة.

هـنـيـن : بكسر الهاء وكسر النون مع التشديد فرضة بسواحل تلمسان بالمغرب الاوسط قريبة من تاجرة التى ينسب اليها عبد المومن بـن علـى .

وادى الاراك : على مقربة من مكة وهو يتصل بغيقة قريب من جبل عـرفـة .

وادى الصفراء : قرب المدينة وبينه وبين بـدر مرحلـة .

وادى القرى : وادى بين المدينة والشام وهو من أعمال المدينة ، كثيـر القـرى .

وادى العفر : واد بناحية المدينة ، بـه عيون ونخيل وقصـور ودور ومنـازل .

الـيـنـبـوع : والصواب (ينبـع) قريـة غناء قرب المدينة . يصب واديهـا فى غيقـة .


افريقية الشمالية
في القرن التاسع الهجري
البندقية
كورسيكا
سردينيا
قرطبة
طنجة
تازة
الرباط
القيروان
المهدية
طرابلس
الاسكندرية
القدس
القاهرة
القسطنطينية
كريت


افريقيا الشمالية
في القرن التاسع الهجري
المحيط الأطلسي
البندقية
بحر بنطش
القسطنطينية
كورسيكة
سردينيا
برشلونة
قرطبة
المرية
قرطاجنة
صقلية
مالطة
الأغريق
الروم
جزيرة
رودس
كريت
طنجة
مليلية
الجزائر
بجاية
بونة
القيروان
سوسة
المهدية
تلمسان
تازة
الرباط
الصامدة
مراكش
سجلماسة
السوس الأدنى
برقة
طرابلس
الاسكندرية
غزة
القدس
القاهرة
الفسطاط
الجيزة
النيل
البحر الأحمر
الحجاز
الشام

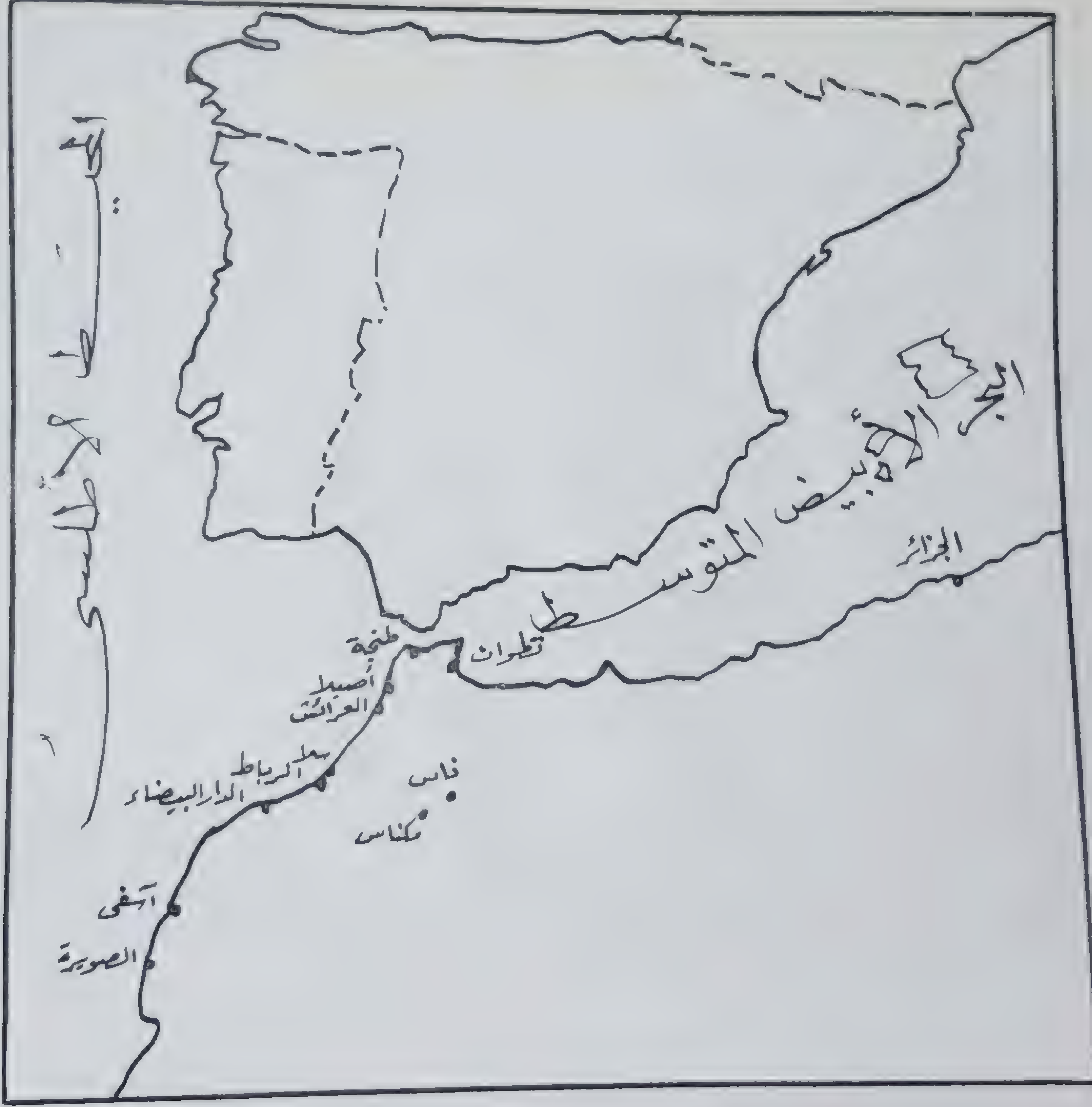
الجانب الوثائقي للرّحلة

البلوي والوثائق العلمية

فهرس

بأسماء الكتب والإجازات والقصائد والدواوين
والأراجيز والتخريجات والأمالي والمختصرات
المذكورة في الرحلة


المحيط الأطلسي
البحر الأبيض المتوسط
الجزائر
تطوان
طنجة
أصيلا
العرائش
سلا
الرباط
الدار البيضاء
فاس
مكناسة
آسفي
الصويرة



المحيط الأطلسي
البحر الأبيض المتوسط
الجزائر
طنجة
تطوان
أصيلا
العرائش
سلا
الرباط
الدار البيضاء
فاس
مكناس
آسفي
الصويرة

البلوي والوثائق العلمية

أشــار البلوي فى رحلته الى عدة كتــب وشروح واجازات وفهارس واسانيد ، ودواوين وقصائد ، وأراجيز ، وتخريجات وأمالى ومختصرات . مما يدل على المامه بثقافة عصره واطلاعه على المصادر والمظاق المعروفة فى وقته . ولهذا سنذكر جميع ما أشار اليه فى ذلك تتميما للفائدة .

فهرس

بأسماء الكتب والإجازات والقصائد والدواوين والأراجيز والتخريجات والأمالي والمختصرات المذكورة في الرحلة

نظم الكاتب أبى بكر بن الخطاب التلمسانى .
اجازة أبى عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن رشيد .
اجازة أبى عبد الله محمد بن جعفر (من علماء بجاية) .
اجازة أبى الحسن على بن عبد الله (من علماء قسطنطينة) .
اجازة الشيخ المنتصر التونسى .
اجازة أبى عبد الله بن عبد الستار التونسى .
اجازة ابن برال التونسى
كتاب التيسير فى القراءات .
لامية حرز الامانى للامام ابن فيورة الشاطبى .
عقيلة أتراب القصائد للشاطبى .
اجازة ابن الحباب .
كتاب ابن الحاجب الفرعى .
اجازة ابن عبد السلام التونسى .
موطأ مالك بن أنس .
صحيح مسلم بن الحجاج .
اجازة أبى أحمد ابراهيم بن محمد الطبرى المكى الشافعى .
اجازة ابن حريز .
اجازة ابن عبد السلام التونسى .
مهب نواسم المدائح ، ومصب غمائم المنائح ، فى مد[illegible] الحفصية (لابن حرير) .
قصيدة ابن سردر العراقى .
الروض الاريض فى علم القريض للنقاوسى .
رسالة أحكام الصنعة للوزير أبى عبد الله ابن عبد الغفور .
تلخيص مشكل الحديث لابن فورك .

حديقة الناظر فى تلخيص المثل السائر فى علم البيـان .
شرح كتـاب المصباح لابـن مالـك .
ايضاح السبيل الى القصد الجليل فى شرح قصيدة ابن الحاجب العروضية .
تـاريخ الهـروى .
الاكتفاء لابى الربيع بن سالم الكلاعـى .
اجازة وجيه الدين أبى زكرياء يحيى بن محمد ابن الامان الاسكندرى .
كتـاب سحـر الشعـر .
اجازة ابن المصطفـى الاسكندرى .
كتـاب المطمـح .
الشهـاب للقضاعـى .
تنبيه المذنب بالطير والحوت ، قبل أن يموت ، لشمس الدين أبى عبد الله بـن النعمـان .
الحجة والزورة المحمدية للشيخ أبى زكرياء البغدادى .
القصائد الوترية فى مدح أشرف البرية لمجد الدين .
اجازة ابن عبد الله محمد بن عز الدين أبى القاسم عبد الرحمن عطيـة اللخمـى الاسكندرى .
سنـد فى حديث الرحمة لابى خالد عيسى البلوى .
اجازة الحافظ أبى القاسم اسماعيل السمرقنـدي .
الاربعون الكبرى الصحابية لابى الحسن المقدسـى .
برنامج الرواية لابى خالد عيسـى البلوي .
أربعون حديثا لاربعين شيخا فى أربعين بابا لاربعين صحابيا .
اجـازة الامـام السيـورى .
قضاء حوائج الاخوان واغاثة اللهفان للحافظ محمد بن على النسـرى .
اجـازة المصنف نـور الدين الهوارى التونسـى .
تخميـس ابن مهيب لعشرينيـات أبى زيـد الفزازى .
التنقيـح لشهاب الدين القرافـى .

شرح كتاب ابن الحاجب الاصلى للهــوارى .
شـــرح تنقيح القرافـــى .
اجازة محمد عبد الرحمن القرشى الاسكنــدرى .
منتقى أخبار أبى بكــر الانبــارى .
اجازة أبى عبد الله الريعى الشافعى الشاذلـــى .
اجازة أثير الديــن ابن حيــان .
الاحاديث البلدانية للحافظ أبى طاهر السلفــى .
كتاب التجريــد بالاسانيد فى القراءات .
الارجوزة الالفية فى علم العربية لابن زكرياء يحيى بن معط .
القصيدة البائية من نظم الامام شمس الدين الانصارى الخيمــى .
ثلاثيــات الامـــام البخــارى .
عقد اللئالى فى القراءات السبــع العوالـــى .
اختصــار نهايــة ابــن رشــد لابن حيــان .
الفوائد والفرائد المنتقاة والغرائب عن الشيوخ العوالى لابن حيان .
البحر المحيط فى تفسير القــرآن العظيــم .
ارتشاف الضرب فى لسان العــرب .
كتاب الشذرة النحويــة لابن حيــان .
ديوان اثير الدين ابــن حيــان .
سورة الالباب ، وذخيرة الكتاب ، لابى محمد بن الحسن ابن الفرج .
اجازة تقى الدين بن السبكـــى .
شرف أصحاب الحديث للحافظ أبى بكــر البغــدادى .
اجازة ابراهيم الامــوى القرشـــى .
اجازة شمس الدين الكتانـــى العربـــى .
اجازة أبى البركات عبد الرحيم ابــن جماعــة .
تنقيح المناظرة فى تصحيــح المخابــرة .
المنهل الروي فى علوم الحديث النبوي (وهو اختصار كتاب ابن الصلاح) .

غرر البيان لمن يسم فى القرآن .

تجنيد الاجناد فى وجهات الجهاد .

مستند الاجناد فى آلات الجهاد .

بغية الملتمس فى عوالى حديث مالك بن أنس .

تخريج كتاب الموطأ لابن جماعة الكنانى .

مجد الشعر لابى الحسن جعفر بن الحاج اللورقى .

مهب نواسم الذائح ومصب غمائم المدائح لابن حريز .

قصيدة شهاب الدين اللامية المشتملة على معجزات الرسول .

اجازة علاء الدين المقدسى الشافعى .

اجازة شمس الدين محمد الخولانى الاندلسى .

عوارف المعارف لشهاب الدين السهروردى .

رسالة أبى القاسم القشيرى .

فضل الخيل للحافظ شرف الدين عبد المؤمن الدمياطى .

فصيح أبى العباس ثعلب .

اجازة جمال الدين أبى العباس أحمد المصعونى .

كتاب الاربعين حديثا تخريج تقى الدين أبى دقيق العيد .

العمدة فى الحديث تأليف أبى محمد عبد الغنى المقدسى .

اجازة تاج الدين أبى محمد بن هبة الله المقدسى .

عيون الحقائق للشيخ أبى سليمان داود الشاذلى .

الطريقة الصوفية لابى محمد وهبة الله المقدسى .

اجازة فخر الدين أحمد .

المجالس الثلاثية من أمالى الحافظ على المقدسى .

اجازة محمد بن المنير .

أحكام السماع بشروطه لناصر الدين أحمد بن المنير .

الارجوزة الكبرى ؛ فى تفسير القرآن لناصر الدين أحمد بن المنير .

تخريج ابن المظفر منصور الهمدانى الشافعى فى صوم محرم .

اجازة ناصر الدين أبى عبد الله محمد بن مبادر الشافعى .
اجازة الشيخ عـز الديـن .
الاربعون حديثا السباعية الفراويـة النيسابورية .
الاربعون حديثـا الودعانيـة .
اجازة أبى عبد الله محمد العلامـى الشافعـى .
تاريخ الرقة للحافظ أبى على القشيرى الحرانى الرقى .
اجازة أبـى العباس أحمـد الرصافـى .
الـدر المنظـم .
اجازة أبى محمد عبد الله اليافعى اليمنـى الشافعـى .
الانشـاد والتطريـز لليافعـى .
اجازة جمال الدين أبى عبد الله محمد بن خلف الخزرجـى .
تخريـج الامام البرزالـى للاربعين حديثـا .
الزيارة لابن اليمن عبد الصمد ابن عساكـر .
الشفـاء لابـن سبـع .
اجازة أبى عبد الله محمد بن عمر المكى المشتهر بخليل .
اجازة أبى العباس أحمد بن ابراهيم الشافعـى .
اجازة أبى العباس أحمد القرشـى الحجـازى .
الاربعون حديثا البلدنية لابن طاهـر السلفـى .
اجازة أبى الحسن على زين الدين هبة الله ابن الانصارى .
شرف أصحاب الحديث للحافظ أبى بكر الخطيب البغدادى .
التهذيـب لابـن سعيـد البراعى .
اجازة الشيـخ القمتى الاسكنـدرى .
كتاب الاربعين ، المخصوصة بالتعيين للحافظ شرف الدين المقدسـى .
كتاب الاربعين فى فضل الدعاء والداعين ، لشرف الدين المقدسـى .
الثلاثينيات المخرجة لعبد اللطيف الحرانى المعروف بابن الصيمل .
اجازة أبى عبد الله محمد بنى يحيى بن أبى فليتـة .

برنامج أبـى الحسـن بـن قطـرال .
اجازة أبى القاسم عز الدين محمد بن الكهف القرشى الشافعى .
سداسيـات الـرازى .
اجازة الشيخ عمـاد الديـن الكنـدرى .
قصيدة اللامية فى النسـب النبـوى .
المعشـرات فى اعاريـض الشعـر .
الرجـز فى علم الفرائض .
الجواهر والدرر لابى الحسن الجيانـى .
تخميس قصـدة الامام أبـى عبد اللـه بن أبـى الخصال .
اجازة ابـن هارون .
اجازة أبى زكرياء يحيى بن الشيخ ابن اسحاق الشهير بالسلوى .
تخميس القصيدة الشقراطيسيـة لابن عتيـق .
اجازة ابن عبد الله محمد التنوخـى .
أمالى المجالس الخمسة لابى طاهر أحمد السلفى الاصبهانـى .
شرح مختصر ابن الحاجب الاصولى وشرح مختصره الفرعى للامـام ابـن هـارون .
شرح المعالـم الفقهيـة للامام ابـن هارون .
اختصار المطيطيـة لابـن هـارون .

تاج المفرق

في

تحلية علماء المشرق

تأليف:

خالد بن عيسى البلوي

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم وصلاة على سيدنا وعلى آله وصحبه

قال عبيد الله (1) سبحانه ، الراجى عفوه وغفرانه ، خالد بن عيسى ابن أحمد بن ابراهيم بن أحمد بن على بن خالد البلوى ، لطف الله بـه وأخذ بيده وبرحمته (2) آمين .

الحمد للذى فرض حج البيت على من استطاع اليه سبيلا ، وجعله تأسيس (3) ابراهيم خليلا ، وقال واذ جعلنا البيت مثابة للناس (4) وامنا ، ومن أصدق من الله قبلا ، وجعل جزاء الحج المبرور الجنة ، وأصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا ، نحمده على نعمه التى قدمها ظلا ظليلا ، وأولاها مقاما ورحيلا ، ونصلى على نبيه محمد الذى بعثه بالحق رسولا ، وفضله على جميع مخلوقاته تفضيلا ، وأنزل عليه الكتاب تبيانا لكل شىء وتفصيلا ، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبل نصرته وخدا

---

1) ذكر المؤلف كلمة عبيد الله « بصيغة التصغير لكلمة (عبد الله) تأدبا فى مقام الدعاء ولم يرد بكلمة « عبد الله » انها علم له ، اذ هو يدعى خالد بن عيسى وكانت الطريقة المتبعةفى المغرب ان من اسمه محمد لا يقال فيه الا ابو عبد الله ، وعبد الله لا يعرف الا بأبى محمد ، وزكرياء بأبى يحيى ، واسحاق بابى ابراهيم ، وابراهيم بأبى اسحاق الخ ، مما يؤدى الى الالتباس فى تعيين الاشخاص عندما نذكر كناهم دون اسمائهم ، وهذه الكنى اصطلاحات لا تتفق مع ما كان عند العرب فى القرون الاولى ، اذ كان استعمال الكنية للتبجيل فينسب الرجل الى اسم البكر من اولاده ، وزاد الالتباس عند المتأخرين من المشارقة اضافة القاب خاصة للتشريف كفخر الدين الخ ...

2) هكذا ورد بالاصل والصواب « برحمته » باسقاط الواو .

3) الا سلم ان يقول وجعل مؤسسه ابراهيم خليلا .

4) سقطت كلمة (للناس) فى قوله تعالى (واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا) فى سائر النسخ .

وذميلا (5) ، وذللوا بين يديه أعناق الجبابرة تذليلا ، وجردوا لاماطة صدأ الدين عضبا صقيلا (6) ، ومهدوا سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ونستوهب من الله سبحانه لاملاكنا الكرام من آل نصر (7) الذين تبوأنا فى أيامهم من العدل كل وثير المهاد ، وجمعنا بفضل مساعيهم المبرورة ، وتحت رايتهم المنشورة المنصورة بين الحج والجهاد ، أن يجدد الرحمة على من قضى منهم وسلف ، ويتم النعم على من خلف ، ويخص بالتأييد والحسنى والمزيد ، رافع رايات فخرهم ، والقائم بأعباء نصرهم ، والمجدد لآثارهم ومآثرهم ، والمحيى لمكارمهم ومفاخرهم ، فخر الملوك الجلة ، وناصر الملة ، والبدر الذى زان أفق الملك من أبنائه السعداء والامراء بالنجوم والاهلة ، امام الهدى ، وغمام الندى ، وحسام الله المسلول على العدى مولانا السلطان أمير المسلمين وناصر الدين ، أبا الحجاج يوسف بن مولانا السلطان هازم أحزاب المشركين وقد جاشت ، ومسلط سيوفه العضاب على عاتى تلك الرقاب فما استنت (8) ولا حاشت (9) ، أمير المسلمين المقدس السعيد الشهيد ، أبى الوليد ابن نصر ، وصل الله لهم عادة تأييده وعضده ، وحباهم بكل نعمة من عنده .

هذا تقييد ، أطلعه عون من الله وتأييد ، قصدت به ضبط موارد الرحلة الحجازية ، وذكر معاهد الوجهة المشرقية ، جعلهاالله تعالى فى ذاته

---

5) الذميل ، بفتح الذال المشددة وكسر الميم المشبعة ، نوع من سير الابل الهادىء المطمئن .

6) فى بعض النسخ وجردوا بالاحاطة عضبا « وفى بعضها » جردوا الاماطة صده ، « والاسلم » وجردوا لاماطة صدا الدين . الخ

7) آل نصر او بنو الاحمر هم آخر اسرة اسلامية حكمت الاندلس . واضطر آخر ملوكهم الى تسليم مفاتيح الحمراء للنصارى غرة ربيع الاول 897 هـ . ثم دخل الى المغرب مع عائلته وافواج من المسلمين تاركين وراءهم امجاد ثمانية قرون. وفى عهد بنى الاحمر ، شب خالد بن عيسى مؤلف هذا الكتاب .

8) اضطربت

9) نزعت .

وابتغاء مرضاته ، بمنه وكرمه ، وألممت مع ذلك بذكر بعض الشيوخ من العلماء الفضلاء الذين يطئون ذيول البلاغة ، ويجرون فضول البراعة ، ولهم كلام يتألق منه شعاع الشرق ، ويترقرق عليه صفاء العقل ، وينبث فيه فرند الحكمة ، ويعرض على حلى البيان ، وينقش فى فص الزمان ، ويحفظ على وجه الدهر ، ويفضح عقائل الدر ، ويخجل نور الشمس والبدر وألمعت بذكر نبذ من فوائدهم ، واختيار طرف من أناشيدهم ، ومزجتها بما جرت اليه العبارة ، وحسنت فيه الاشارة ، من قطع الشعر المناسبة قطع النور ، المنتظمة من جواهر اللفظ ، البعيدة الغور ، الغريبة الحفظ ، الآخذة من الحسن بأوغر الحظ ، مقتديا فى ذلك كله بقول القائل :

قالوا خذ العين من كل فقلت لهم
فى العين فضل ولكن ناظر العين
حرفان فى ألف طومار (10) مسودة
وربما لم تجد فى الالف حرفين

ولما بوبت ما ألفت ، ورصعت ما جمعت ، وشعشعت ما وضعت ، فجاء كما تراه حسن الزي ، عذب الري ، عالى القدر ، غالى الدر ، مسبوك الحلية والتبر ، فيه للمسمع مراد ، وللفكر معاد ، وللالباب مسرح ومرتاد . سميته : **بتاج المفرق ، فى تحلية علماء المشرق** . ودعوت الله تعالى فى مواطن الاجابة ، أن يوفقنى فيه للاجادة والاصابة، وأن ينفع به كل من يلتمس النفع به فى المطالعة أو الكتابة ، وهو سبحانه سميع الدعاء ، مجيب النداء ، محقق الرجاء ، وهو حسبى ونعم الوكيل . فأقول مستعينا بالله سبحانه : انى خرجت قاصدا للحج ، وطالبا للعلم

---

10) الطومار : الصحيفة .

من بلدى قنورية : البلد الذى طال سناه ، وطاب مغناه ، وانتطق بالجوزاء ، وناجت ابراجه بروج السماء ، فكأنه فى الحصانة جبل منيع ، وفى الحسن ربيـع بديـع :

بلـد صحبـت بـه الصبابـة والصبـا
ولبسـت ثـوب العيـش وهـو جديـد
فـاذا تمثـل فى الضميـر رأيتـه
وعليـه أغصـان الشبـاب تميـد

فوقع اتفاق الخروج من ضحوة يوم السبت ، الثامن عشر لصفر مـن عام ستة وثلاثين وسبعمائة ، مودعا لجميع الاهل ، ومتجرعا من ذلك ما ليس بالعذب ولا بالسهل :

ودعـت قلبـى يوم ودعتهـم وقلت يا قلبى عليـك السـلام
وقلت للنـوم انصرف راشـدا فـان عينى بعدهـم لا تنـام
محـرم يـا عين أن ترقـدى وليس فى العالـم نـوم حرام

وكان لذلك الوداع موقف مشهور مشهود ، نثر فيه من جمـان الدمع لؤلؤ منظوم منضود ، وفيه قلـت :

موقـف للفـراق أرخص فيـه كـل در لنـا وكـل عقيـق
بجموع كوجدنـا فى اجتمـاع ودمـوع كالشمـل فى التفريق

وقد أعدت الركاب ، وطاشت الالباب ، وحضـر للوداع جميـع الاحباب ، وأنا أصبر كصبر ميت على النزاع ، وأقول ما خلق الله من

عذاب أشد من وقفة الوداع ، أعالج السياق ، وأعاين المنايا بين اخفاف النيـــاق :

أقول لصحبى حين ساروا، ترفقوا لعلى أرى مـــن بالجناب الممنع
والثم أرضا ينبت العز تربهـا وأسقى ثراها من سحائب أدمعى
وينظر طرفى أين أترك مهجتـى فقد أقسمت أن لا نسير غدا معى
ومـا أنـا ان خلفتها متأسفـا عليها وقد حلت بأكرم موضـع

ولما تبرأ التابع من المتبوع ، وطفئت نيران الوداع بمياه الدموع ، وعطف المودعون لى بالعودة لقطرهم والرجوع ، وهم بين راجع بالجسم وهو لى بالقلب مصطحب ، وضاحك بما يرجوه لى وهو على وداعى منتحب ، أخذت فى الارتحال ، وأنشدت بلسان الارتجال ، بل بلسان الحـــال :

ليـت شعرى انلتقى بعد هـذا أم وداعـا يكـون هذا اللقـاء
فاذكرونى وزودونـى دعـاء خيـر زاد تزودونى الدعـاء

ثم امطيت الطرق طريقه ، ولم أبلعه فى الاناة ريقه ، والفـراق يردى فريقـه ، وقلت :

أأذهبـت ، أيـام الشبيبـة والنـوى
واتلفت باقى العمـر ؟ يـا ضحوة السبت

فقـل لجديد العيش : لا بد من بلـى .
وقـل لاجتماع الشمل : لا بد مـن شت .

وسرت بعزمة لا يفل حدها ، ولا يتجاوز حدها ، وخرمة (11) لا يثنى رسنها ، ولا يلم بعين وسنها ، وأخذتنا فى السير شباب ذلك النهار ، وجاريت بدموعى جريان تلك الانهار ، وبت بساحة واد حللنا به بين ظفر التوحش ونابه ، أكن الوجد ما غاية الثكلى أن تكنه ، وأجن من الحنين ما لا تطبق الجوانح أن تجنه ، وأردد :

أهـذا ولما تمض للبين ليلـة ؟ فكيف اذا مرت عليك شهـور !

حتى اذا بقى من الليل حد الوصية من المال ، تضينا على معزول السرى بالاستعمال ، وسرت أحمل أنفاس الصبا حقائب الوجد ، واتمتع من شميم عرار نجد ، فما طلع من الغد وجه النهار ، ولا بدا فيه حاجب الاسفار ، الا وقد أشرفنا على (المرية) ، تتلع الينا أجياد قصابها وغرفاتها وتبتسم عن ثغور أسوارها ، وبلج شرفاتها ، كالعـذارى شددن مناطقا (12) ، وتوجن بالاكيل مفارقا ، كأن ترابها عنبر ، وحصاها عقيق ، وهواها نسيم وماءها رحيق ، مغان لها عندى معان وأماكن ، فسكانها للنفوس سواكن .

دمن طالما التقـت أدمع الحـ زن عليهـا وادمـع العشـاق

فهناك شاهدت الظباء مختلطة بالآرام ، والغزالة أنيسة النفـور والشادى يبادر بالسلام ، والعطف من العطف لا يخلو ، والحقف بحمل الغصن يمر فى كل حين وكلما مريحلو ، فحمدنا عند الصباح السرى ودخلنا المدينة أم تلك القـرى :

ألوي الضلوع من الولوع بخطرة من شيـم برق أو شميم عرار
وأنيخ حيث دموع عينى منهل يروى وحث حشاى موقد نار

---

11) الخرمة : موضع الخرم من الانف . ويقصد الناقة التى يركبها فى رحلته .
12) فى الاصل مناطقها ، ومفارقها ، ولعله تحريف من الناسخ

وعند دخولنا اليها مررنا على بعض البساتين المجاورة لها ، فحيانا بوجه مشرق ، وحبانا من مذانبه بـــرواء مغدق .

ودولاب اذا أن (13) يـزيـد القلـب أشجـانـا
سقـــى الغصـن وغنـــاه فمـا ييـرح نشـوانـــا

فدخلت المدينة بقلب غير داخل ، وتلقيت المنام بطرف شحيح بالكرى باخل ، وكلما فتشت للاوطان فى فكرى ذنبا ، اجعله سببا للسلو ، أو عيبا أركن به الى الراحة والهدوء ، قال الاختبار لا سبيل الى ذلك ، وجعل يعرض على من حسناتها ما جلا به ظلام الليل الحالك ، ولولا أنى رجعت الى جميل الصبر بعد الذهاب ، وعللت الروح التى راح سرها لقرب الاياب ، لا مسيت أثرا بعد عين ، ولكنت أحد من قتله يوم البيـــــن :

البين جرعنـــى نقيع الحنظـل والبين أثكلنى وان لـم أثكـل
ما حسرتى ! ان كنت أقضى انما حسرات نفسى اننى لـم أفعل
نقل فؤادك حيث شئت من الهوى مـا الحب الا للحبيـب الاول
كم منزل فى الارض يألفه الفتى وحنينـه أبـدا لاول منـزل

فحللت منها المحل المودود ، وحللت بها المشدود والمعقود ، وجددت بعلمائها العهود ، وأقمت الازم منها معهدا مألوفا ، ومشهدا بالحبائب محفوفا ، الى أن تهيأ غراب دار الصنعة (14) ، وتيســر

---

13) أن (من الانين) .

14) ركب البلوى فى رحلته (قرقورة) وهى سفينة عظيمة تحمل الزاد والكـــراع للاسطول وأصل اسمها بالاسبانية (كاراكا) ومنها ما هو بثلاثة ظهـــور (أى طبقات) ولها ثلاثة قلاع تسير بها فى الريح العاصـــف .
ذكرها ابن بطوطة كما ورد ذكرها فى رسالة ابن الاحمر الى ابن الحسن كما فى الاستقصا (ج 2 ص 81) انظر تاريخ الاسطول العزبى ص 31 — 57 .

اندفاعه فى يوم الجمعة ، فجددت الوداع ، وشاع خبر الجواز وذاع . وفارقت من فارقت لا عن ملالة . وودعت من ودعت لا عن تعويض . وركبت فيه بباب الديوان فى يوم الاحد ، السابع لجمادى الاولى من العام المذكور ثم وقفت ماشيا على الماء وقفة المتسلم ، وودعت الاندلس وداع المتأمل المتألم ، وأنشدت :

خليلى هـذا موقف من متيـم ... فعوجـا قليلا وانظراه يسلـم

وسرنا فى أطيب هواء . وأحسن استواء ، الى أن وافينا (مرسى هنين (15)) فنزلنا بها ضحوة يوم الثلاثاء . التاسع لجمادى الاولـى المذكور . فرأيت بليدة نضيرة ، لا كبيرة ولا صغيرة ، جميلة المنظر . متوسطة بين الصغر والكبر ، موضوعة أسفل جبلين ، بين بحر وشجر . يخفضها ارتفاع قلعة ، دار صنعة ، وأسواق موفورة ، ومساجد معمورة. ولقربها من الاندلس هى مذكورة ، لقيت بها الخطيب . أبا عبد الله بن جابر ، فجبر الوحشة بالايناس وانشدنى لبعض الناس :

ابشـــر بخيـــر عاجـــل ... تنسى بــه مــا قــد مضى

فـــرب أمـــر مسخـــط ... لــك فى عواقبــه الرضـــى

ثم خرجت منها صبيحة يوم الخميس ، الحادى عشر لجمادى الاولى المذكورة وسرنا نلتهم الارض التهام الضمير (16) نرتبط بالجد ارتباط الفعل بالضمير ، الى أن وافينا مدينة (تلمسان) ، فحللنا بــه ضحوة يوم الجمعة ، الثانى عشر من الشهر المذكور ، فرأيت مدينــة قل مثلها ، وجل عرارها وبانها واثلها ، بطاح وأدواح ، وربى ملاح ،

---

15) مدينة بين مليلية وبنى سف Honaine انشا جامعها ابو الحسن المرينى . ورد ذكرها فى المسند الصحيح لابن مرزوق ، وفى وصف افريقيــا الشماليــة والصحراء المقتبس من نزهة المشتاق للادريسى (المجلد 5 سنـــة 1925 ص 33) .

16) الضمير : الهزيل ، وهو من الابل والخيل ما كان خفيف الحركة سريع المشى .

وضياء وانشراح ، وبسيط له اتساع وانفساح ، ومياه لها على در الحصا انسحاب وانسياح ، وروضات يعترى ويعترض اليها اهتزاز وارتياح ، وجنات ريقها ندى وثغورها اقاح ، فسيحة الارجاء ، صحيحة الهواء ، ممتدة الغاية فى الحسن والانتهاء ، جوها صقيل ، مجتلاها جميل ، ونشرها أريج النفس عليل .

وأرض من الحصباء بيضاء قد جرت
جداول ماء فوقها تتفجر

كما سبحت تبغى النجاة أراقم
على روضة فيها الاقاح منور

وكم للعباد (17) من أطراد مذانبها واخضرار جوانبها ، من نفحات رحمة ، وبيضاء تربى على كل مستحمة ، تحييك بالوجه الوسيم ، وترى الغصن يصلى بتحيات النسيم ، فنزلت منها بالمحلة المنصورة ، الحاضرة للمدينة المذكورة ، محلة السلطان العادل ، الهمام الباسل ، ملك الاسلام والمسلمين وناصر الدنيا والدين ، أبى الحسن بن السلطان (18) الفاضل الغمام الهاطل ، أمير المسلمين ، نخبة الملوك والسلاطين ، ابى سعيد العابد ، المرابط المجاهد أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى ، ايدهم الله تعالى واسعدهم ، فما حططنا الركاب ، ولا وضعنا الاقتاب (19) الا والشمس يتبين زوالها ، وطهارة المكتوبة يتعين استعمالها فامطنا وعثاء السفر ، واخذنا

---

17) العباد مرتفع جميل خارج مدينة تلمسان ، كان مدفن الاولياء والعلماء ، وفى تلمسان موضعان يعرفان بهذا الاسم (احدهما) يسمى العباد الفوقى وكان بعيدا عن المدينة (والثانى) العباد السفلى وكان بباب الجياد من ابواب تلمسان .

18) « ابو الحسن المرينى » هو السلطان ابو الحسن على بن ابى سعيد ، عثمان ابن يعقوب المنصور يعرف بالسلطان الاكحل لانه كان اسمر اللون ، تولى بعد وفاة والده سنة 731 هـ وحكم حتى سنة 749 هـ (الناصرى ج 3)

19) الاقتاب جمع قتب : الرحل

فى غسل الجمعة بالاثر ، ثم تمتعنا بالخطبة والخطيب ، بعد أن أخذنا بحظ وافر من الطيب ، والعود الرطيب ، ونـد (20) ما له ند ، تعاطيه من السنة ، اذا أدخلته النار حكى رائحة الجنة ، وجلنا فى المحلة ، وهى روض يثمر خيلا واعنة ، وبحر يزخر قنا وأسنة ، وذوائب الاعلام تخفق ، وألسنة عذباتها تكاد بالنصر تنطق ، والاحوال قد استقامت ، والاخبية على القاعدين فيها قد قامت ، وهى مبيضة كسقيط الثلج ، مصطفة كبيوت الشطرنج ، وقد أشرق الجو باشراق الخمائل والنبات وأشرف على مدينة أحدقت بها الازهار والانهار من جميع الجهات ، فأقمنا هنالك درر الانباء ، ونحتلب در النعماء ، وأنا أمرح فى جهاتها ، مرح العين فى منتزهاتها ، حتى تمتعت فى ذلك الجمع الحافل ، بلقاء جماعة من الافاضل ، وانشدنى بعضهم لبعض أهلها وهو الكاتب أبو بكر بن الخطاب ، رحمه الله تعالى ، وهو مع سائر نظمه عندى بالاجازة عن الشيخ الخطيب المحدث الحاج الفاضل أبى عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن رشيد الفهرى رحمه الله ، قال أنشدنا شيخنا الكاتب الاديب البليغ أبو بكر بن خطاب بتلمسان لنفسه :

سرى البدر فارتاع الفؤاد لومضه
فبت وجفنى لم يذق طعم غمضه

تبدى كعرق فى الغمامة نابض
يدل على سقمى تواتر نبضه

سجدت له لما تراءى يمانيا
وأكملت من دمعى طهورى لفرضه

وقضيت من حق الصبابة واجبا
برئت من العشاق ان لم أقضه

---

20) الند : عود يتبخر به

وذكرني عصر الشباب وطيبه
وعيشا تحلينا مليا بغضه

وعهدا شددنا عقده بيد الوفا
فلا بطشت كف تمد لنقضه

فيا سارى البرق الذى ضاعف الاسى
على دنف (21) ما زال يشفى بنضه (22)

أعندك من أهل العقيق (23) رسالة
افارضك عن ابلاغها خير فرضه

والا فبلغهم تحية موجع
يعانى الذي ينهد رضوى لبعضه

وجرد على واديهم ذيل ديمة
تنمنم بالازهار صفحة أرضه

حنينى الى الوادي لاجل جوارهم
مجاورة المخفوض تعدى بخفضه

ثم زرت تربة ولى الله تعالى ابن مدين مرة أولى وثانية ، واقمت بالمحلة اياما ثمانية : وكان خروجى منها ورحيلى عنها فى صبيحة يوم السبت ، الموفى عشرين جمادى الاولى المذكور ، ولم نزل نقطع مهامه قفار ، ونجوز فى أودية وبحار ، ونشاهد من الارض والسماء كل نهر سائل وغيم مدرار ، الى أن وردنا (مدينة الجزائر) ، فى آخر يوم

---

21) الدنف : المرض الملازم
22) نض الماء ينض نضا ونضيضا . سال قليلا قليلا . واسناد النض للمريض استعارة .
23) العقيق : اسم مكان . فى اماكن متعددة ، فهو بالمدينة المنورة (وهو المقصود) وباليمامة ، وبالطائف ، وبتهامة ، وبنجد

الخميس الثانى لجمادى الثانية من العام المذكور والليل قد غول ، والنهار قد تحول ، والقلب لا يصبو الا لاول منزل ، ولا يحن الا الى الحبيب الاول ، ولما طرزت طرة الظلام يـد الا صباح ، وأرسل الفجر فى رداء السحر خيط الصباح اسرعنا مبادرين ، وبادرنا مسرعين ، وتفرقنا فى سكك المدينة أجمعين ، فرأيت محيا صبيحا وتربا مليحا ومسجدا عتيقا ، وبناء أنيقا ، وأناسا قد سلكوا الى الحسن والاحسان طريقا ، من مدينة أقسمت بعلو هضابها الا يفوز مبسم الثريا برشف رضابها ، فلا ترتقيها الا الظنون ، وكأنها ضب ومن يطمع فيها نون ، قد أحاط بها البحر احاطة السوار بالزناد فألبس ذلك الجسم روح المجد ، وركب خلائق الوهد على ذلك النجد ، فأقمنا بها نحكم فى حزن الانس وسهله ، حكم الصبى على أهله ، حتى قرب أمد الرحيل ، وغلب واجبه على المستحيل ، فعزمت على الخروج ، وسرت على بياض ذلك الساحل وخضرة تلك المروج .

يــا بياضا أدرى دموعى حتى   عــاد منها سواد عينى عقيقــا

وخرجنا فى صبيحة يوم الاثنين السادس لجمادى الثانية المذكورة فدخلنا فى أمر عظيم ، وطريق غير مستقيم ، وعذاب يوم عظيم ، نصعد على التهائم ونغور فى النجود ونسلك كل مخدع لـم يكن بالمألوف ولا بالعهود . ولا كان مسلكا الا للذئاب واللصوص والاسود ، الى شعراء بالخوف مشعرة ، وأرض خالية مقفرة ، وجبال منخرقة فى الجو وعرة ، تقطع الاسباب ، وتخلع الالباب ، وتذكر الصراط والميزان والحساب ، وأظن الخطابى اياها عنى بقولــه :

سلكت عقابــا فى طريقى كأنها   صياصى ديوك أو أكف عقــاب

ومــا ذاك الا أن ذنبى أحاط بى   فكان عقابى فى سلوك عقــاب

فبقينا نكابد عظيم ذلك الامر ، ونسير ولا نفارق ساحل البحر ، ونرقى العنق التى تقربنا من السماك وتدنينا من النسر ، وقد اشتــد البرد ، وبلغ الجد ، وفرع الجهد ، ووقع الثلج ، وعمى النهج ، وابتلى به

الفج والمرج ، فتصبح وصباحنا أبيض ، وجناحنا لا ينهض ، والعروق لا تنبض ، والبروق لا تومض ، والخيام لجمودها واقفة على غير عمودها ، والنيران مقرورة ، وشفاه الجليد مطرورة ، والزناد كابية ، والصعاد نابية ، والوجوه فى عبوس ، والوجود فى بوس ، وقد جمدنا كاننا بلا نفوس ، فنبت الايدي على أن تبطش ، والاقدام عن أن تنهض ، واسود يومى منه وان كان به أبيض ، وجاءت السماء بسيل عرم ، ولهب قر يضطرم ، وقد صوب الغمام سهامه ، ولبس الجو لحرب المحل لامه ، فلم يبق قطر الا وقد نفدت فيه تلك السهام ، ولا أفق الا وعلاه من خيوط الودق المحتبسة مثل القتام ، فلا أحد الا وجد من ذلك ما أقلقه ، وأحرق قلبه بتواليه وان كان فى الحقيقة أغرقه ، وسرنا والعناء قد بلغ منا الغاية وانتهى بنا الى النهاية ، حتى وصلنا الى (بجاية) : فدخلناها فى يوم الاثنين الثالث عشر لجمادى الثانية (المذكور) بلدة قدرها خطير ، وذكرها فى كل زمن يطير ، وخطابها من الملوك كثير ، ومحلها من النفوس اثير : فكم هاجت من كفاح ، وملت عليها فى بيض وصفاح ، يمتد أمامها بسيط أخضر ، مد البصر قد أجرى الله فيه مذانب الماء تسقيه ، وتضرب فى نواحيه ، كأنها سبائك اللجين ممدودة فى بساط الزبرجد ، محفوفة بالزمرد والعسجد ، والبساتين ملتفة الاشجار ، يانعة الثمار ، والنهر الاعظم ينساب بين يديها قد انعطف عليها انعطاف السوار ، والحدائق تنتظم بحافتيه ، وتفىء ظلالها الوارفة عليه ، فهى النضيرة الدوح ، العذبة الانهــار ، الطيبة الهواء المشرقة الاضواء ، التى اجتمعت عليها الامراء ، وسلم لها الهواء ، وشيد فيها البناء ، وبعد لها الصيت الممدود والثناء ، انتظم فيها من الوادى والبحر ، قلادتان على ذلك النحر ، قد حلينا ذلك البلد ، وتجليا كوالد وما ولد ، قد مرجها (24) الله بحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، فاذا ضاحكتهما الشمس انعكس

---

(24) مرج البحرين وامرجهما جعلهما لا يلتبس احدهما بالآخر ،

الضياء ، وزاد الاحتفال فى النور والافياء ، الى حدائق قد أنتظمت انتظام الاحباب ، وشقائق ترفل فى اثواب الشباب ، وتسدل أذيالها بين تلـك القبـــــاب .

ورياض كأنمـا نشـرت غــو ق ثراهـا حريـرة خضـــراء

أعين النرجـس الجنى نجـوم واخضرار الرياض منهـا سماء

للثـرى تحتهـا شيات وللمـا غطيــــط وللغصـون لقـــاء

فأول من لقيته من أرباب المحابر ، وركاب أعواد الكراسى والمنابر ، فاضل الافاضل وكبير الاكابر ، الشيخ العالم المحدث ، أبو عبد اللــه محمد بن جعفر رحمه الله ، قصدت لقاءه والاخذ عنه وقدمته وكنت أسمع من ملفوظ حامــده ، ومحفوظ محامده ، ما هو بغية السامع وحليــة للمسامع ، فلما رويت من مكارمه ما رويت ، استصغرت ما سمعت لعظيم مـا رأيت واستقللت ما سمعت أذناى ، لما عاينته عيناى ، وانشدت لنجم الدين بن مهذب الديــن :

كانت محادثة الركبان تخبرنـــى عن مجدكم وسناكم أطيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذنى بأحسن مما قد رأى بصرى

فأنزلنى بمنزله الكريم ، وقابلنى بالترفيع والتكريم ، وأقمت معه فيه يفيض على ن كرمه بحرا زاخرا ، ويفاوضنى من علمه منهلا لا أجد له آخرا ، ويروينى بمسوغاته الفاضلة ، ويروينى من مسموعاتــه الحافلة ، فلا أدرى من أى بحريه أعجب ، ولا أيهما أروى وأعذب ، حتــى قلت لــه :

أبكيت عين الغيث لمـا فتـه كرما فثغر البرق منـه يضحك

فارتاح وتهلل ، وأكثر من الافضل وما قلل ، وجرى على عادته فى المكارم والانطباع فانشدتــه (25) :

ولو صورت نفسك لم تزدهــا على ما فيك مــن كرم الطباع

سمعت عليه تصانيف كثيرة ، واجازنى وكتب لى بخطه ، وكــان رحمه الله امام هدى وعدالة ، ووحيد معارف وجلالة ، حالى الرواية ، كامل المعرفة والدراية ، رصين العقل ، اماما فى التحديث (26) والنقل ، متفاوت الكرم ، بعيد الهمم زكى الشيم ، حسن المفازع ، مليح المبادىء والمقاطع ، واقعا من النفس أحلى المواقع ، ذكر لى : قال ذكر لى الشيخ القاضى أبو العباس الرندى قال : كنا جلوسا بحضرة تونس مــع القاضى بها أبى العباس ابن الغماز لارتقاب شهر شوال ، واذا بطفــل صغير وسيم قد نظر ورآه قبلنا فقال القاضى ابن الغماز : كنا جلوسا مع الشيخ أبى الربيع بن سالم الكلاعى بمدينة بلنسية لارتقاب هــلال شوال فأول من رءاه غلام وضىء الوجه من قرابة الشيخ ، فارتجل الشيخ ساعتئــذ :

تواری هلال الافــق عن أعين الــوری
وغطى بسجف (27) الغيم زهوا محياه

فلمــا أتـــى (شقيقــه) ليــزوره
تبـــدى لــه دون الانــام فحيـــاه

---

25) البيت للمتنبــى

26) اراد بالتحديث الامور العقلية التى هى من حديث الشخص وليست نقلا عـن كتاب او سنة .

27) السجف والسجاف . الستر .

ومما أنشدته فاستغربه وحفظه وكتبه ؛ ما انشدنى الشيخ الخطيب المحدث الحاج الفاضل أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد (28) اجازة قال أنشدنى ناصر الذين نصير بن أحمد بن على المصري المناوي الحمامى بحمامة بمصر لنفسه فى فتى اسمه فرج الله على طريق التورية .

أقول لقلبـــى وقـــد ذاب فـــى … هوى شادن حاز حسنا غريبـــا
تصبـــر اذا كنـــت فى شـــــدة … عسى فـــرج الله يأتـــى قريبا

وأنشدنـــى لبعضهم عنـــد الوداع :

يـــا راحلا ودموع العين تسبقه … هل من سبيل الى لقياك تتفق
ما أنصفتك جفونى وهى دامية … ولاوفى لك قلبى وهـــو محترق

وقد أفادنى من فرائد الفوائد ، ما لا يفيده الا فرائد العلماء الا ما جد ، كانت مجالستى اياه ببجاية آخر العهد به فانه توفى بعد انفصالى منها ونزوحى عنها على أحسن ما أجرى الله حاله عليه من حسن السيرة وخلوص السريرة ، جدد الله عليه من الرحمة والمغفرة ، وجعله مـــن الدين قال الله فيهم وجوه يومئذ مسفرة ، ثم لقيت بها جملة من الفضلاء وجلة من العلماء قد ضمهم الولاء فى فلكه :

لهـــم همم كمـــا شمخت جبال … واخلاق كمـــا هشت بطاح (29)
ترى بهـــم النجوم ، ولا ظلام … واوضاح النهـــاو ولا صبـــاح

---

28) ابو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن رشيد (مصغرا) الفهرى السبتى محدث ورحالة شهير ، كان اماما فى القراآت وله صوت من مزامير آل داوود (التعريف لابن خلدون ص 46) .
29) فى الاصل دشت بطـــاح

قصدت الرؤية لهم والرواية عنهم ، فنحوا نحوه ، وحذوا حذوه ، واقتدوا بفعله ، وان لم يدركوا شأوه :

يـــا بارقا بأعالى الرقمتين بدا　　　لقد حكيت ولكن فاتك الشنب(30

ثم أخذت فى حركة الخروج من ذلك القطر الذى هو حاضرة البحر ونادرة الدهر ، وموطن الفضلاء من أهل العصر الذين طبق ذكرهم تطبيق الغمائم ونم كما نمت بأزاهرها الكمائم ، ولهم مآثر بتعاطـى الركب حمياها ، ويتعاطى نوافح رياها :

وما أرانى بمستوف مناقبهـم　　　ولو نظمت لهم زهر النجوم حلا

ففارقت الصبر عند مفارقة تلك المنازع ، وودعت الجلد عند وداعى لذلك المسجد الجامع . وسرت وقلبى فى تلك التلاع وتلك الاجارع ، وقد خامرنى الفرق ، واستولى على جفنى الارق ، وأولعت بما يولع بـه المشفق . وانفقت دمعى وكل أمريء مما عنده ينفق ، ورحم الله زهيرا المهلبى ، فعن حالى عبـر بقوله :

الى كم جفونى بالدموع قريحة　　　وحتى م قلبى بالتفرق خافق

ففى كل يوم لى حنين مجـدد　　　وفى كل أرض لـى حبيب مفارق

ومن خلقــى أنى ألوف وانــه　　　يطـول التفاتى للذين أفـارق

وأقسم مـا فارقت فى الارض موضعـا
ويــذكــر الا والدمــوع ســوابــق

30) البيت من قصيدة ابى الحكم التى مطلعها ، يا مطلبا ليس لى فى غيره ارب .

فيممت خير ميمم (31) وفارقت غير مذمم ، وخرجت منها في صبيحة يوم الاحد الحادى عشر لرجب الفرد ، من العام المذكور ، على ضفة الوادى الكبير بين المنازل والقصور :

يــا وادى القصر نعم القصر والوادى
مــن منزل حاضــر ان شئت أو بــادى
تــرى قرى قرة (32) والعيس واقفــة
والضــب والنون والمــلاح والحــادي

فعبرت من الوادى الصغير بمثل ما أجرته جفونى من الدموع ، وخطرت من الرشة (33) على ما أبرزته من الربيع والربوع ، واجتزت على الربيع الرفيع ، وحررت بالبديع البديع ، وسلكت على تلك المرابع الرائقة بالنزهــة والتوديــــع .

ولقــد وقفــت بهــا وكــف ربيعهـــا
فى نســـج حلــة نورهـــا يتأنـــق
وســـدا خيوط المــزن يرسلها الحيــا
أبـــدا واكمـــام النبـــات تفتـــق

والروض تولاه الولى ووسمه الوسمى وجشمته نسمات الرياح ، وأظلته رايات الصباح ، وغازلت كواكب الفجر عيون نرجسه الوقاح ، وباكرت الصبا تقبيل ثنايا نوره الوضاح :

من قبل أن ترشف شمس الضحى ريق الغوادى مــن ثغور الاقاح

---

31) فيممت ... الخ اشارة الى قول المتنبى: فراقا ومن فارقت غير مذمم
32) فى الاصل تر قراقرة .
33) الرشة من رشت العين رشا القت الدمع متفرقا والرش المطر القليل .

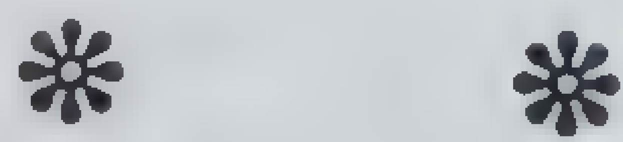
والارض قد أخذت زخرفها وآزينت ، وبينت من حكمة الله سبحانه ما بينت ورباها قد تعممت بملونات الازهار ، وأراقم المذانب قد انسابت فى مغائر الانهار ، والزمان قد استقبل اذاره (34) ، وخلع عذاره :

فالنــور عقــد والغصــون سوالــف
والجـزع زنـد والسـرى سـوار

رقص القضيب بهــا وقــد شرب الثرى
وشـــدا الحمــام وصفــق التيـــار

ثم جزنا الوادى الكبير وهو بحر عباب ، وفى كل رقعة من أثوابنـــا ميزات . وسرنا والموج غمر ، وذلك الماء على الاجساد ثلج وفى أكبادنا جمر ، والريح ترمى بحاصب ، والودق يأتى من كل جانب ، والدواغــع ترعب ، والمذانب تتعب ، والقطر قد ملأ كل خرق وسبسب ، وورد آتيه من كل آتى (35) ومذهب ، وجاء بكل صبح وغيهب . ولم تزل الامطــار تتوالــى وتتنــزل :

كــأن السحاب دوين السمـــا نعـــام تعلــق بالارجــل



فادمعهــا سح وسكب وديمــة ورش وتوكــاف وتنهمـــلان

فسرنا على تلك الحال ، ونحن من طوفان تلك السحائب فى أعظـم الاوحال ، وقد أعيا الركوبة (36) ما أدهى حمله من مستنقع الاثقال ، حتى وصلنا الى (قسطنطينة) والركاب فاشلة ، والنفوس ذاهلة ، والتلاع

---

34) فى الاصل اناره .
35) اتى السيل : سيل ياتى من حيث لا يدرى
36) الركوبه ، والصواب الركوبة وهى ما يركب من الابل .

سائلة ، وجفون السحاب هاملة هاطلة ، والشآبيب مستمرة ، وحلاوة العيش ممرة ، والاوحال تمنع من خروج يعيد الابدان معفرة ، والثياب معصفرة ، فحللنا منها فى حصن حصين ، ومكان مكين ، وربوة ذات قرار ومعين ، وقاعدة أمن وتأمين ، وتمهيد وتسكين ، صحيحة الهوى ، بعيدة المهوى وبسبب ذلك تنسب الى الهوى المقصور ، فيقال : قسطنطينـــة الهوى ، ناهيك من مدينة تحوم حول سحاب القطر ، وتسوم بارتفاعها مراقى الكواكب الزهر ، وتصون بامتناعها من حدثان الدهر ، وتصول ببساط الملك وبسيط الزهر ، وتروق بناعم الروض وهامر النهـــر ، وتفخر بجمال المحاسن كل الفخر ، ويخترق بطاحها نهر ينساب فيها انسياب الارقم ، ويدور بها دور السوار بالمعصم ، ويغوص ببعض حافاتها فيغيب عن العين ، ثم يبدو بخارجها كأنه سبائك اللجين ، فيسيل على تلك البطاح سيلا ، ويتخللها جداوله فتجر بها ذيلا ، وتعمها شربا ، وتسقى منه بماء واحد ورياه تعود منه بما شئت من صلة وعائد :

نهـــر يهيـــم بحسنـــه مـــن لـــم يهـــم
ويجيـــد فيـــه الشعر مـــن لـــم يشعر

مـــا آصفر وجـــه الشمس عند غروبها
لا لفرقـــــة حســـــن ذاك المنظـــــر

بها تتوفر الارباح ، وباعلاها تتبارى الرياح ، وبشتى أقطارهـــا يتلاقى التاجر والفلاح ، ويعتز الساكن منها فى الحصن الاحمى ، والموطن الاسمى ، والمحل الاسنى ، والعيش الاهنى ، ويمسك له فى خزائنـــه الواسعة من ياقوت القوت ما يغنى الدهر وهو لا يغنى ، تهابه النفس عنـــد موافاته وتأوى الفتـــخ الكواسر بأدنى حافاته ، وتزل اقـــدام الصاعدين اليه على أكثر صفاته ، وتعجز أوصاف الواصفين عن بعض صفاتـــــه :

يـأوى اليــه كــل أحــور ناعــب
وتهــب فيــه كـــل ريــح صرصــر

ويكـــاد مــن يرقــى اليــه مــرة
مــن دهــره يشكو انقطاع الابهر (37)

وبادرت فدخلناها فى يوم الجمعة السادس عشر لرجب المذكور . وبادرت الـــى لقاء الفضلاء ، ومباحثة النبلاء ، اجتلى واجتنـــى ولا اجتنب ، وأنا والطرس فى ملأ انتقى منهم وانتخب . فمما أنشدنـــى المنزل ، رب المنزل الشيخ الامام الراوية الحاج الفاضل المتفضل : أبو الحسن على بن عبيد الله لبعضهم :

مـــا رأينـــا مـــا سمعنـــا كزمـــان نحـــن فيـــه
كـــل مـــن تلقـــى تـــراه يشتكـــى مـــا تشتكيـــه

وذكر لـــى قال كتب بعض السؤال الى بعض أهل هذه المدينة يستجديــه ويستحثه بقولــه :

مــاذا أقــول اذا سئلت وقيــل لــى
مــاذا لقيــت مــن الجواد المفضــل

ان قلت : أعطانى ، كذبت ، وان أقــل :
يخل الجــواد بمــا لــه لم يجمـــل

فاختــر لنفســك مــا أقول ، فاننــى
لا بــد أخبرهــم وان لــم أسئــل

---

37) وريد العنــق .

فأجابه المسئول بقوله :

أعجلتنا ، فأتاك عاجل برنا
قلا ، ولو امهلتنا لم نقلل

فخذ القليل وكن كأنك لم تقل ،
ونكون نحن كأننا لم نسأل

والمدائني قال : أقبل اعرابي الى داوود بن المهلب فقال له : انى مدحتك فاستمع . فقال على رسلك ، ثم دخل بيته وتقلد سيفه وخرج فقال : قل ، فان أحسنت حكمناك ، وان لم تحسن قتلناك فانشأ يقول :

أمنت بداود وجود يمينه — من الحدث المخشى والبؤس والفقر
فأصبحت لا أخشى بداود نبوة — من الحدثان ان شددت به أزرى
له حكم لقمان وصورة يوسف — وحكم سليمان وعدل أبى بكر

فقال له : قد حكمناك ، فان شئت على قدرنا وان شئت على قدرك . قال : (بل على قدرى) فأعطاه خمسين ألفا . فقال له جلساؤه : هلا احتكمت على قدر الامير ؟ فقال لهم : لم يكن فى ماله ما يفى بقدره ، فقال له داود : أنت فى هذه أشعر منك فى شعرك . وأمر له بمثل ما أعطاه .

وأنشدني أيضا قصائد تقيدت فى غير هذا ، وأجازنى جميع مروياته ، فهو روضة الأدب الناضرة الغضة ، وصحيفة الرواية النقية المبيضة ، وحامل المكارم المنقضة والمحامد المرفضة . وجامع المحاسن التى بها أضحى الصبابة مفضضة ، ألسنا لمن واخاه ، السنى فى كل ما يتوخاه ، العاطف على ما يحمد عقباه . العارف بما رواه ووعاه ، الحفى بمن

آتاه المنيب الى أواه ، الخاشع لمولاه ، أبو الحسن بن عبيد الله ، تغمده الله برحماه ، وجعل الجنة نزله ومثواه ، برحمته ، ولم أزل أوالى أهل الولا ، واختص بذوى السؤدد والملا ، حتى جاء الفراق ، ومارق ولا راق ، فأنشدتهم وقد قوى العزم ، لابى المغيرة بن حزم :

واجد بالخليل من برحاء الشو ق وجدان غيره بالحبيب
ان قلبى لكم لكالكبد الحرى وقلبى لغيركم كالقلوب

وخرجت منها ضحوة يوم الاحد ثامن عشر من رجب المذكور فى جمع وافر ، ذى خف وحافر ، سرنا نقتفى البيداء ، ونغتدى فى كل ثنية جرداء ، قد دأبنا على الترحال ، وركبنا متون الوحال ، سمونا على الماء كسمو حبابه حالا على حال ، الى أن وافينا بلد العناب ، (وتسمى أيضا بونة) وصلناها أيضا بيمن الله على أفضل الاحوال ، ودائرة البيضاء يمنى مركز الزوال ، فدخلناها فى يوم الجمعة الثالث والعشرين لرجب المذكور ، فرأيت مدينة مكينة ، وقلعة حصينة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، ومعدومة الشبيه والنظير فى القلاع ، تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع قاعدة كبيرة ومائدة من الارض مستديرة ، سامية الارجاء ، واسعة الفناء ، موضوعة على نسبة حسنة فى الاعتدال والاستواء ، والمدينة العجيبة كالعروس فى ناديها قد رفلت فى درع واديها ، وامتنعت بحسامه المسلول من غير الايام وعواديها ، فأخذت به من المطالب معتصما ، وتجلت فى سواره معصما غبكل مسقط نظرة ما اشتهت الانفس من نعيم ونضرة ، نهر هتان ، يحفه بستان ، ومرآي لخواطر الادباء فتان :

نهر يسيل كما يذوب نضار وتدور فى أيدى السقاة عقار
فاذا استقام غصارم دامى الظبا واذا انحنى جزع به فسوار
مغرورق التيار ، ملتطم كما خفقت بظهر مهب ريح نار

فاحمر وأخضر النبات بشطه   فكأن ذا خد وذاك عذار

لها أرض تقتنص النظر بتدبيج أزهارها ، وأطراد أنهارها ، وتؤمن الراكض بها من هفوة غبارها ، وكبوة عثارها ، كأنما نسج أديمها منسج ، واستوت أطرافها وأوساطها فجوها سجسج ، ومتى تكملت الفصول أعاد الله شبابها ، فانشأها خلقا جديدا ، وجعل عودها مثمرا وظلها ظليلا مديدا ، فيالله اتساع ظواهرها وبواديها ، والحسن البادى ببحرها وبواديها ، وارتفاع تلك القلعة والحصن ، وما أوتى من النعمة والحسن ، قد عمرت نجاده وغيطانه ، واستقر بين خصب الوادى ، ورحب النادى ثواؤه وآستيطانه صعدت اليه فرأيت حصنا مستقلا ، وكثيرا من الحسن لا مقلا ، بل معقل الحسن ومستقره ، ومجاز الانس وممره ، قلعة قد عقد الجبل حبوتها ، وازلق العراب أن تطأ ذورتها ، وعصم سوار الوادى الملوى معصمها ، وحمت غرر دهمائها أدهمها ، فالخيل تصعد منها انجما فى فلك ، بين طالع كطالعها أو غارب كغاربها ، والارجل منها على كرة لا تستقر بأخمص راجلها ولا بحافر فرس راكبها وكأنها قد اعتزت لولا ما جعل الله الارض ذلولا ، وأمر أهلها أن يمشوا فى مناكبها ، فمشيت منها فى مركب سام ، وألف بالنجوم مسام ، ثم خرجت من المدينة فى صبيحة يوم الاحد الخامس والعشرين لرجب المذكور سالكا سبيل جبل الحفاء ، ومالكا من الرجاء ما برح به الخفاء ، من جبل يقرع الواصل اليه سن الندم ، ولا يكاد يشرب الماء الا من قليب دم ، قد أفرط فى الجفا ، واشتهر بالحفا ، وجمع بين غلظ الشعراء والارض الوعراء ، فسلكنا منه فى عقاب كفى بسلوكها للمجرمين من عقاب ، نكتنف الفزع ونلتحف الجزع ، الى أن جزمتنا عوامله بالحذف ، ومنعتها علاته من الصرف ، وأسفر لنا وجهه العبوس ومحياه الذى فى مشاهدته البوس ، عن قطعة من العرب كقطع الليل ، حملت علينا حمل السيل ، فكان زوال كل ما ملكناه أسرع من لحسة

الكلب أنفه ؛ وناهيك عن صبيحة ذلك اليوم فجاءة حال ؛ وسرعة انتقال « واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ؛ وما لهم من دونه من وال » .

لقونـــا فضمـــوا جانبينـــا بصـــادق
من الطعن مثل النار فى الحطب اليبس

وانقلبت اعدى من جام ونجوت برأس طمرة (39) ولجام ؛ منهزما مكلما ؛ يثعب جرحى دمـــا ؛ وصحابى قد منحوا الاكتاف والرقاب ؛ ودماؤهم تسيل على الاعتـــاب ؛

وتركتهم تعس الرماح ظهورهم   من بين مقتـــول وآخر مسنـــد

ولم نزل نخوض أحشاء كل واد كالثعبان ؛ نتلقف نفس الجرى فكيف بالجبان ؛ فكأن تلك الاودية سيوف لقتل الانس مسلولة ؛ ولولا زرقة ألوانها لقلت دماء مطلولة ؛ خاتم نظامها ومسك ختامها ؛ ومنتهى كمالها وتمامها ؛ وآخر عذابها وانتقامها يسمى (أبو جردة) قيل لانه يجرد الايمان من قلب شاربه ؛ كفاك هذا من أوصافه ومناقبه ؛ وهـــو على اثنى عشر ميلا من الحضرة ؛ لم تنبت قط حوله عشبة نضرة ؛ ترابه قد اسود ؛ وماؤه قد أظلم ؛ ويقال انه من أودية جهنم ؛ تعذر علينا جوازه فى القارب فما توسطته راكبا الا والمركب قد غمرته المياه وحلمتنى واياه ؛ وكنا من المغرقين لولا أن رحم الله ؛ ثم خرجت سابحا ؛ وقد ذهب الوادي بأكثر القوم ؛ بسبب ما أنعم الله به علي من معرفة السباحة والعوم ؛ وحصلت على ساحل النجاة ولا شيء الا مبلولا ؛ ولا شد الا محلولا آو محمولا .

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله   لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

---

38) الجام الفرس الذى لم يركب مدة . وفى الاصل (اعربى من جام)
36) فى الاصل فارفعا الركوبة وهى ما يركب من الابل .

فوصلت الى (حضرة تونس المحروسة) فى ليلة يوم السبت أول مــن شعبان المكرم من العام المذكور بعد اللتيا والتى ، وانضاء جسمى ومطيتى ، واخلاق البيتين اللذين لم أخلهما عن فكرى ورويتى .

يقولون تونس مصــر عظيــم   وأرجاؤهــا جنــة زاهــرة

نعــم هــى مصــر لا ربابهــا   وللواردين هــى القــاهــرة

فأرحت الراحلة من الرحل . واستبشرت بالخصب بعد المحل ، ولا بد دون الشهد من أبر النحل ، فبتنا بها جيران دولاب يهدل ، وأغصان تثنى وتعتدل ، وستر الظلام ينسدل ، وتلك الحضرة تتلفع بثمارهــا تلفع الكاعب بخضرة خمارها ، قد سلت على بساط الروض من المذانب حساما ، وضحكت ثغور شرفاتها ابتساما ، والدولاب بندب من الزهر الذاوى هديلا ، ويتوسل للروض بدموعه فيخلف له بديلا ، فبت أجاوب أنين ذلك الدولاب ، وأجاري بدمعى دمعه فى الانكساب ، وأنشد فيــه لبعض الاعــراب :

باتــت تحن وما بها وجــدى   واحن مــن طرب الى نجــدى

فدموعهــا تحيــا الرياض بها   ودموع عينــى أحرقت خــدى

ولما تفرى عن وجنة الافق عذار الغيهب ، وتتوج كسرى المشرق بالتاج المذهب ، طفقت اتمشى فى الاماكن المكينة ، واتخلل سكــك المدينة واتعجب من محاسنها المستبينة ، ووضوح قدمها ورسوخ قدمها وبهجتها وانفراجها ، وانفساح رباها وأبراجها ، ورونق رياضها ، وتذلل الهموم لفرجتها وارتياضها ، واتساع جنباتها وافنائها ، وكما لها فى البلاد البحرية وغنائها ، واينـاع حدائقها المحدقات ، واحرام حجيــج الانس فى ذلك الميقات ، فدخلت منها جنة حفت من طرقها بالمكاره ، وعقيلة عقلت قلب الطائع والكاره ، فهى الدمية الغراء ، والقبة اللعساء ،

والخريدة العيناء ، تزهى بها المحافل ، ويحتقبها الطالع والآفل ولله در القائل :

لتونس تؤنس من جاءها ... وتودعه لوعة حيث سار
فيغدو ولوحل أرض العراق ... يحن اليها حنين الحوار
ويأمل عودا ويشتاقه ... اشتياق الفرزدق عود النوار

فالتاح بتونس الانس ، وانشرحت النفس ، وصلحت الحال واللبس ، ووجدتها كما قال أبو الحسن المرى (40) :

تونس بالغرب خير دار ... تؤنس من حلها غريبا
حللت عقد البعاد لما ... حللت من أهلها قريبا

وظللت القى أكابر الاولياء ، وآخذ عن العلماء الاتقياء ، فأول من لقيته بها من الاولياء والافراد ، والعلماء الزهاد ، السيخ العالم الولى لله تعالى ، أبو الحسن على ، المشتهر بالمنتصر ، أفاض الله علينا من بركاته . هو صدر من صدور أئمة الدين ، وكبير من كبراء الاولياء المهتدين ، وقدوة فى أفراد العلماء الزاهدين ، حامل لواء المعارف ، ومحرز التالد منها والطارف ، وحافظ للكتاب والسنة ، ومحافظ على اتباع الشريعة والملة ، قائم بأعباء صلاح الامة ، باسط للضعفاء وذوى الحاجات جناح الرأفة والرحمة ، كثير الصيام والقيام . دائم الخلوات ومستجاب الدعوات وقورا صموتا ، مهابا معظما :

قابلته فملئت منه مهابه ... شغلت على فصاحتى وبيانى
ولثمت قرب فنائه فكانما ... قبلت من طرب خدود غوانى

---

40) فى بعض النسخ ابو اسحاق المريلى .

رحل الى المشرق قديما ووعى الكثير ، وشأنه كبير ، وله من المكاشفات واجابة الدعوات ما هو أشهر من أن يذكر ، حللت بحلاله ، وانضويت الى جلاله ، وخيمت بسوارف ظلاله ، فالقيت فيه ركنا عظيما ومأوى كريما وابابرا رحيما واماما أوسعنى افادة ونصحا وتعليما ، وسبب ذلك أن أخى أبا بكر محمدا لما خرج الى وجهته الحجازية . وعلم الله تعالى منه صلاح النية وخلوص الطوية ، وانتهى الى الحضرة التونسية ، جملته عوارف الالطاف الخفية . وعطفته عواطف القدرة الربانية ، الى لقاء شيخنا هذا والتبرك به ، وطلب الدعاء منه فتفرس رضى الله عنه فيه مخايل النجابة ولاحت له عليه دلائل الصدق والانابة ، فضمه الى جانبه الشامخ القواعد ، وكفله كفول الوالدة والوالد ، حتى جعل تحت حرمته ، واختص بصحبته ، وظهر فيه صدق فراسته وبركة دعوته ، ثم ارتحل عنه مشرقا بعد تراخى المدة ، وتوالى الايام والاشهر الممتدة ، قرير العين ، ملى اليدين ، فائزا بحظوة الدارين وحين وردت موارده ، وحضرت معاهده ، وسألت عن مطلع شمسه ، مسير يومه وأمسه ، فأخبرت أن الذى نعنيه بالسؤال – قد بانت برحيله الرحال ، سقطت على التراب معفرا ، وأغضت فأنشدت حين سرى :

ماذا وقوفك والركاب تساق ... أين الجوى والمدمع المهراق
الغير هذا اليوم يخبأ أو ترى ... بخلت عليك بمائها الاماق
حتى لقد رحلوا بقلبك والكرى ... ان النواظر لا الدموع تراق

ثم نزلت منازله ، فتمتعت بها دهورا ، وأقمت ألازمها ليالى وأياما وشهورا ، وجعل الله لى بصحبة هذا الشيخ انتفاعا وظهورا ، ولهذا الرجل الصيت البعيد ، والباع المديد ، زهدا وانقباضا ، ونصيحة لعباد الله تعالى وحدبا على ضعفائهم ، ووضع له القبول فى الارض فلم يختلف

اثنان فى فضله ، ولى منه حظ لا أعده به حظا عسى الله أن ينفع بــه (وثانيه) فى الفضل والولاية ، والعلم المتسع والدراية ، الشيخ العالم خطيب الجامع الاعظم ، والراقى بقدم الصدق وذروة مناره ، المعظم ، أبو عبد الله بن عبد الستار ، نفع الله تعالى به امام من ائمة الفروع والتفسير ، وسراج يقتدى به فى ظلمات الدياجير ، انتهى من الفضل الى أقصى أمده ، وكرع فى بحره لا فى تمده (41) وحل منزلة مقنعة من علم اللسان ، ونظرت به عين التعين كالانسان ، اضاء بأنوار معارفه البلاد، وترادف على محله العلى العلمى القصاد ، وعلا سنه وسناه ، وبلغ من وعى المعارف الدينية والاحاديث الكريمة النبوية قصده ومناه ، له جلالة السبق ، ومهابة الولاية والصدق ، ومكانة القبول عند الخالق الخلق ، ذو فى الدنيا وأغراض عن زهرتها ، وعزوف عن طلابها ، وكان يدرس العلوم فى مدرسة الكتبيين التى استوطنها ، فسمعت عليه كثيرا من التفسير والحديث والفروع والاصول وغير ذلك ، ولازمته وانتفعت به ، وشاهدت له كرامات ومقامات تصدر الا من مثله أو من الولى الذى من قبله .

رحل الى بيت الله الحرام ، وزيارة قبر النبى عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، ففاز من ذلك بغاية سوله ، ونهاية مطلبه ومأمولــه . وتواتر عنه أنه لما عاد الى وطنه ، أعاد جميع صلواته التى كان صلاها فى سفره ، اذ لم ترتضها عبادته النزيهة ومعالى سيره ، وها هو قــد طعن فى السنين ، ونيف على التسعين . فما ضعفت له قط موارد العبادة. ولا تعطلت منه تلك المدرسة عن الدول المعتادة ومما نقلت منها : أن الواقدى رفع الى المامون قصة يشكى فيها غلبة الدين وقلة الصبر : فوقع عليها ، أنت رجل فيك خلتان ، السخاء والحياء ، فاما السخـــاء فهو الذى أطلق ما فى يدك ، واما الحياء فهو الذى بلغ بك ما أنت عليه ، وقد أجزنا ذلك بمائتى ألف درهم ، فان كنا أصبنا ارادتك فازدد فــى

41) فى الاصل ثمرة والصواب تمده اى ، فى مائه القليل .

بسط يديك وأن كنا لم نصبها فجنايتك على نفسك ؛ فأنت كنت حدثتني وأنت على قضاء الرشيد ان رسول الله عليه وسلم قال للزبير : ان مفاتيح الارزاق بازاء العرش ينزل الله للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم فمن كثر كثر له ، ومن قلل قلل له ؛ قال الواقدى : وكنت أنسيت هذا الحديث فكانت مذاكرته أياى به أعجب الى من صلته . وأعزهما بامام الدنيا ومتبوىء الذرة العليا ، وسابق الغاية القصيا ، والشيخ العالم ، قدوة الائمة وواحد اسانيد الامة أبو عبد الله بن برال (42) أبقى الله تعالى بركته ، رجل أتاه الله تعالى كتابه وفتح عليه فيه أبوابه ، ووفقه فى أدائه الى الصواب فأصابه ، فاجتمع الناس اليه وتناغى المجودون من أهل القرآن فى التلقف منه ، وانثالوا اليه عمن سواه فقامت له سوق ، وأجلى خبره عن تقديم أمثل الخبرة ، واطباقهم على تفضيله ، وكان هذا الشيخ قد أوتى من حسن اللفظ بالقرآن ما لم يوته أحد ممن بقى على الارض فى هذا الوقت باجماع ، حضرت قيامه فى ليالى رمضان بالاشفاع وانتدب الناس اسماعه من النواحى والبقاع فما قرع سمعى ولا وقع فى أذن قلبى، أحسن منه صوتا ولا أحلى تلاوة ، ولا أطيب ايرادا ، ولا أعذب مساقا ، ولا أعجب احكاما ، ولا أغرب ترتيلا ، ولا أجمل جملة وتفصيلا . ولقد كنت فى حين قراءته على قساوة قلبى ، وغباوة لبى أتغاشى وأتلاشى ويضج جامع تونس بأهله ، ويغص جمعه ، فبين باك وداع وخاشع وساقط من القيام ، وعادم وجوده فى ذلك المقام ، كلهم يفعل فيه صدقه ، ويسكنهم نطقه ، ويسكرهم ذوقه ، قرأت عليه القرآن العظيم بالقراءات

---

42) ابن برال : بضم الباء الموحدة ، وفتح الراء المشددة ، كما قيده ابن خلدون ومعاصره محمد بن ميمون البلوى الاندلسى بخطه ، واصل ابن برال من بلنسية بالاندلس ، كان اماما فى القرآآت ، اخذ عنه ابن خلدون ، علم القرآآت ، انظر التعريف لابن خلدون ص 17 :

السبع جمعا (43) فى ختمة واحدة والادغام الكبير فى رواية أبى عمرو بن العلاء وترك الهمز من طريق أهل الرقة ، بطريق الامام أبى عمرو الدانى (44) رحمه الله تعالى وهو آخر من قرأت عليه السبع من الائمة المقرئين والاساتذة المبرزين عددهم اثنا عشر شيخا ما منهم الا من قرأت عليه القرآن العظيم بالقراءات السبع افرادا وجمعا أو أفرادا ، أولهم الاب المرحوم ناجلى ، الكفيل بتربيتى فى نشأتى وناحلى أول موهبة من تدريبى فى بدأتى والدى عيسى رضى الله عنه قاضى بلدة قنتورية وخطيبها ووالى كافة أمورها مدة من أربعين سنة قرأت عليه بالقراءات السبع على والده جدى الاستاذ الخطيب الحاج الزاهد أبى جعفر أحمد ، وقرأ والده جدى بالقراءات السبع على جماعة منهم والده الخطيب الصالح أبو اسحاق ابراهيم وقرأ والده جد والدى بالقراءات السبع كذلك على جماعة منهم والده الفقيه أبو جعفر أحمد بن على بن أبى خالد رحمة الله على جميعهم ، وهكذا تتصل لى هذه السلسلة بالقراءة السبع الى سابع جد ولله الحمد ، وحدثنى شيخى هذا أنه قرأ بالقرآآت السبع افرادا مع الادغام الكبير فى رواية أبى عمرو بن العلاء وترك الهمز من طريق أهل الرقة ثم جمع السبع فى ختمة كاملة ، وقرأ قراءة أبى محمد

---

43) الافراد والجمع فى القرآآت : الافراد أن يتلى القرآن كله أو جزء منه برواية واحدة لاحد القراء السبعة أو العشرة المشهورين ، والجمع أن يجمع القارىء عند قراءة القرآن كله أو جزء منه بين روايتين فأكثر من روايات السبع أو العشر المتواترة ، ويسمى بالجمع الكبير ان استوفى القارىء سبع قرآآت فأكثر والا سموه بالجمع الصغير .. وللقراء فى صفة الجمع وحكمه من اباحه وتحريم خلاف معروف ،

44) فهرست الحافظ ابن عمر عثمان بن سعيد المغربى الدانى رواها أبو بكر بن خير المتوفى سنة 575 هـ موافق 1179 م ، عن ابن يحيى على بن محمد بن لب، عن أبى عبد اللهمحمد بن فرج المغربى ، انظر فهرست ابن خير ص 428 بتحقيق الشيخ فرنشكة قدارة (مكتبة المتنبى بغداد والمكتبة البخارية ببيروت)

يعقوب الحضرمى (45) على الشيخ الفقيه المقرىء الصالح الروايـة أبى العباس أحمد بن موسى بن عيسى بن أبى الفتح الانصارى المشتهر بالبطرنى (46) وحدثه أنه قرأ بالسبع القراءات على الشيخ الفقيـه المقرىء الخطيب القاضى أبى محمد عبد الله بن يوسف بن أبى بكر بن عبد الاعلى المغافري السبرتى بقراءة نافع افرادا وجمعا وباقـى السبع ختمة جمعا لكل امام ثم جمع عليه السبع فى ختمة كاملة مع الادغام الكبير ، قال قرأت على خاتمـة المحققين بل المقرئين بشرق الاندلس أبى جعفر أحمد بن يحيى بن عون الله الحصار بقراءة نافـع أفرادا وجمعا وجمعت عليه السبع فى ختمة كاملة كما قرأت بالقراءات السبع بالافراد والجمع مع الادغام الكبير فيهما على الشيخ الفقيه الزاهد أبى الحسن على بن محمد بن على بن هذيل البنسى ، قال قرأت جميع ذلك على الشيخ الفقيه المقريء أبى داود سليمان بن نجاح الاموي ، قال ، قرأت جميع ذلك على الامام الحافظ أبى عمرو وعثمان بن سعيد بن عثمان الدانى بسنده فى كتاب التيسير ، وقد قرأت جميعه عليه وقرأت عليه جميع القصيدة اللامية المسماة بحرز الامانى التى من نظم الامام أبى القاسم بن فيرة (47) الشاطبى رحمه الله قراءة تثبيت وتبييـن

---

45) هو يعقوب بن اسحاق بن زيد بن عبد الله الحضرمى البصـــرى (117 ـ 205) احد القراء العشرة ، وله قراءة ـ مشهورة عنه ، وهى احدى القراآت العشر ، وقد رويت من طريقين (الاولى) رواية محمد بن المتوكل المعـروف برويس (والثانية) عن روح بن عبد المؤمن الهذلى (طبقات القراء) .

46) البطرنى : ابو العباس احمد بن محمد البطرنى ، ضبطه ابن خلدون وابـــن ميمون البلوى بفتح الياء والطاء المهملة وراء ساكنة بعدها نون نسبة الـــى بطرنة من اقليم بلنسية بشرق الاندلس انظر البيان المعرب 3/المعرب 252/3

47) الشاطبى : ابو القاسم الشاطبى ويكنى ابا محمد القاسم بن فيره (بكسر الفاء بعدها ياء آخر الحروف ساكنة مشددة مضمونة بعدها هاء) بن خلف بن احمد الرعينى ، رحل المشرق ، ودخل القاهرة ، نظم قصيدته اللامية المعروفـة بالشاطبية ، وبحرز الامانى والرائية التى تعرف بالعقيلة ، انظر طبقات القراء ج 2 /20 ـ وطبقات ابن السبكى 297/4 .

لمعانيها واعراب لمشكلها ، وايضاح لاسرارها ، واستخراج لغوامضها وجميع عقيلة اتراب القصائد من نظم الشاطبى أيضا وحدثنى بجميع ذلك عن شيخه أبى العباس البطرنى المذكور ، ولشيخى هذا أسانيد غيرها ، وسماع وتبتل ، وانقطاع ومواصلة للقرآن واعتناء بذلك الشأن فجمع بين علو الاسناد ، والسلسلة الذهبية وتوسع كثيرا فى اللغة العربية . وتتبع أنواعا من هذه الطريقة الادبية يعمر بها مجالسه انشدنى لبعض الشعراء :

انى غريب بأرض لا كرام بها ... كغربة الشعرة السوداء فى الشمط
لا أطلق العين فى شىء أسر به ... ولا أنال الرضى الا على سخط

وأنشدنى لبعضهم :

ان الليالى للانام مناهل ... تطوى وتنشر بينها الاعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة ... وطوالهن مع السرور قصار

وأنشدنى لبعضهم :

تمتع بالرقاد على الشمال ... فسوف يطول نومك باليمين
ومتع من يحبك باجتماع ... فأنت من الفراق على يقين

وكان رضى الله عنه رقيق الاشادات ، دليع العبارات ، حلو الحكايات ، عالى الروايات ، تبهجك طلاقته ويرضيك بشره مع مروؤة ظاهرة ، وتمام خلقة ، وهدى وسمت ووقار لاكفاء له ، الى حسن البيان وعذوبة اللسان .

ملح كالرياض غازلت الشمـ ... ـس رباها وافتر عنها الربيع
فهى للعين منظر مؤلف الحسـ ... ـن وفى النفس سئودد مجموع

ذكر لى قال دخل بعض الملوك على جارية له ، وقد دهن شعره بدهن بيضه به ، فقال يخاطبها :

كل البياض مليح   لا شىء فى الحسن بعده

فأجابته :

أهواه من كل شىء   الا من الشيب وحده

فاستحسن جوابها ، وأحسن ثوابها ، وأخبرنى ، قال دخل بعض الشعراء على بعض الكبراء مادحا له بشعر قاله فيه فوجد عنده حجاما قد قص من شعره وأجزل له فى العطاء ولم يعط الشاعر فقال مرتجلا :

أرى من جاء بالموسى مواسى   وراحة ذى القريض تروح صفرا

فهذا منجح ان قص شعرا   وهذا مخفق ان نص شعرا

وأخبرنى قال : مدح أبو الحسن بن الفضل أحد الوزراء بمراكش وكان أقرع فلم يثبه ، فقال :

أهديت مدحى للوزير الذى   دعا به المجد فلم يسمع

فحامل الشعر اليه كمن   يهدى به مشطا الى اقرع

وأخبرنى قال : اهدى سالم بن قاسم من بنى مهنا (48) الحسنيين لصلاح الدين ابن أيوب مروحة بيضاء وفيها مكتوب بالاحمر بيتين وهما هذه :

أنا من نخلة تجاور قبرا   ساد من فيه سائر الخلق طرا

شملتنى سعادة القبر حتى   صرت فى راحة ابن أيوب أقرأ

---

48) فى بعض النسخ من بنى مهنى

وقد كان الرسول بها قال لصلاح الدين ، خذ هذه فما أهدى لك ولا لابيك قط مثلها (49) ، فغضت السلطان من هذا الكلام فقال الرسول لا تعجل وانظر ما فيها من الكلام ، فلما نظرها وقرأ البيتين قبلهما ووضعهما على رأسه وقال : صدق الشريف ما وصلتنى قط هدية مثل هذه . وقرأت عليه من كتب القراءات والحديث وغيرها تصانيف كثيرة، استوفيتها بأسانيدها فى برنامج رواياتى ، وأجازنى اجازة تامة ، مطلقة عامة ، وكتب لى بخطه ، ومولده عام ثمانية وستين وستمائة .

وأشفعهم بأوحد الزمان ، وفريد البيان والتبيان ، العديم النظراء والاقران ، والمرتقى درجة الاجتهاد بالدليل والبرهان ، الشيخ العالم المشاور أبو عبد الله ابن الحباب ، حبر ، بحر ، حافظ لافظ ، ذو أبهة وبهاء وحبوة (50) مملوة من علم ، خالية من ازدهاء ، برع بأحسن الصورة، فى مطالع الحسنى الى أنهى كمال وأكمل انتهاء ، برع بأحسن الصورة ، وفرع من الجمال أرفع السورة فبسق بسوق الغصن الناضر وأضحت حدائق محاسنه نزهة الاحداق والنواظر ، انفرد بفنى المعقولات والمقولات، واتحد فى علمى اللسان والبيان فما يجارى ، فى شيء من ذلك ولا يبارى . وهو فيما عدا ذلك من الفنون يفوق القدور ويفيض على مزاحمة البحور ، ويحلى من فوائده الطلا والنحور ، وله تآليف وتصانيف فيها للعلوم صنوف ، وهى فى الاذان شنوف ، ولها ظهور على غيرها وشفوف، وقلائد قصائد تنجلى بجمالها الخرائد ، وتحسد حسنها النيرات الفراقد ونشربل نور ، أو أنجم زهر ، أو لجين أو تبر ، أو يواقيت أو در ، أو حصباء بللها نهر أو شذور رصعت فشطر وشطر :

نظم ونثر فى رياض بلاغة ... سجد الربيع لبردها الرغراف
لم أدر منعجب بها وتعجب ... أنظام در أو نظام قواف

(49) فى نفح المتعال ان كلمة خذ هذه فما اهدى الخ كان مكتوبا فى احدى وجهى المروحة وفى الوجه الاخر البيتان المذكوران

(50) حبوة وهى ما يحتبى به اي يشمل به من ثوب .

كان زمن شبابه ، وتعلقه بطلب العلم واستفتاح بابه ، رئيس انشاء الدولة الحفصية ، والمستقل بحمل الراية التونسية ، فملا الدلو ومد الرشاء ، وأنال الانشاء ما شاء ، وأزال عن جفون الطريقة الادبية العماية والعشاء . فلما أحرز فى ذلك الفن قصب السبق وحازه ، وقطع فيه صدر العمر واستقبل اعجازه ، عطف الى تعليم العلوم ، وعكف على تدريب تدريس المعدوم منها والمعلوم ، فأفاد الافذاذ ، والافراد وامتع الجهابذة والنقاد ، وأسمع الاسماع ما اشتهى كل منها وأراد ، الا أنه كثير الانس مؤثر لراحة النفس ، قلما ينضبط لطالب ، ولا يغتبط الا بذى فهم ثاقب ، وسهم فى العلوم مسدد صائب ، فمجالسه مجالس علم وايناس ، وتقريب لاناس ، وتبعيد لاناس ، وكنت بحمد الله من الفريق الاول لا بالمشكوك فيه ولا بالمتأول ، فسمعت وأخذت وأجازنى الاجازة التامة . وكتب لى بخطه أنشدنى لبعض المشارقة يعرض بآخر ينعت بسراج الدين ، وكانت قبيلته بجيلة فضمنها البيتين وهما :

لنا فى البيت من خزف سراج ... عراقى فتيلته نحيلة
يضيء لمن تعاهده بدهن ... فلا كان السراج ولا الفتيلة

وأنشدنى لسراج الدين الآمدى :

بنى افدى بالكتاب العزيز ... وراح اليه سريعا وراجا
فما قال لى أف مذكان لى ... لكونى أباه وكونى سراجا

ويتلوه البحر المتلاطم الامواج ، والمنهل الذى تروى بعذبه بقاع الوهاد وتلاع الفجاج ، والمجموع الذى نزلت بساحته مفترقات العلوم نزول الماء الثجاج قاضى القضاة وامام الفقهاء والنحاة ورب العقل الوافر والحصاة ، الشيخ العالم العلامة قطب الشورى وعماد الفتيا ، قدوة علماء الاسلام ، أبو عبد الله بن عبد السلام رضى الله عنه ، رجل نشأ

فى العفة والصيانة وتبوأ ذروة الطهارة والديانة ، وصعد من هضبة (51) التقى على أعلى المكانة ، فلم تعرف له قط صبوة ولا حلت له على غير الطاعة حبوة ، على أن المسهب فى الاوصاف الكريمة ، والمشيد بالمناقب المشيدة ،سكيت مع سبقه ومسىء فى احسانه ، وقاصر عن ادراكه ، وهيهات يضرب فى حديد بارد ، ويطلب ما ليس له بواجد ، من رام بيده لمس الشمس ، وتعاطى برجله لحاق البرق ، صرف همته العلية ، وفكرته الوقادة الزكية ، الى انتحال فنون العلوم ، وافتتاح المكوم منها والمختوم ، ملك أعنتها ، وقاد أزمتها ، وأوضح أشكالها ، ووسم اغفالها ، وحل اقفالها وتلقى بالسهل والرجب آنثيالها عليه واقبالها ، فهو اليوم وحيد الاوان ، وعلامة الزمان ، والمشار اليه بالبنان والبيان ما قرن به فاضل من العلماء الارحجه ، ولا القى اليه مبهم من العلم الا كشفه وأوضحه ، عدلا فى أحكامه ، جزلا فى اقدامه مراقبا لله فى فعله وكلامه ، له صادقات عزائم ، لا تأخذه معها فى الله لومة لائم ، الى نزاهة عن الدنيا ، وهمة نيطت بالثريا ، ولهجة فيها ترقرق ماء البشر فأحيـــا وحيــــــا .

يقابلنـــى لـــه خلـــق وضـــىء يصدق بشـــره خلـــق رضـــى

حضرت مقتنما وملتزما تدريسه الذى هو ضالة الناشى الناشد ، وبغية القاصى والقاصد وحديقة الرأى الرائد ، وحقيقة الفوائـــد ، فسمعت وانتفعت وأخذت عنه شرحه لكتاب ابن الحاجب الفرعى فقرات وكتبت وأجازنى فى غير ما مرة ، وكتب لى بخطه ومولده سنة ســت وسبعين وستمائة (52) وسمعت منه بمنزله من تونس جميع موطا الامام مالك بن أنس رضى الله عنه فى مجالس كثيرة آخرها ضحوة يـــوم الجمعة الثالث عشر لصفر من عام أربعين وسبعمائة وأذن لى فى روايته

---

(51) فى بعض النسخ (حقيقة) بدلا من هضبة .

(52) فى بعض النسخ وسبعين وسبعمائة وهو خطا .

عنه وحدثنى أنه قرأه أجمع بلفظه على الاستاذ المقرىء أبى العباس المشتهر بالبطرنى المتقدم الذكر بسنده فيه وقرأه كذلك أيضا على الشيخ المحدث الراوية المعمر أبى محمد عبد الله بن هارون الطاءي ، وحدثه به عن القاضى أبى القاسم أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن بقى قراءة لبعضه وسماعا لسائره بمدينة قرطبة اعادها الله دار اسلام عن أبى عبد الله محمد بن عبد الحق الخزرجى قراءة عليه عن أبى عبد الله محمد بن فرج الفقيه مولى الطلاع سماعا عليه قال سمعته على القاضى أبى الوليد يونس بن عبد الله ابن مغيث عن أبى عيسى يحيى بن عبد الله ابن يحيى بن يحيى عن عم أبيه عبيد الله بن يحيى بن يحيى عن مالـك بن انس رضى الله عنه ورحمهم وهذا السند لا يوجد مثله بالمغرب علوا واتصالا بالقراءة والسماع ، وقرأته أيضا عام ثلاثين وسبعمائة على والدى واخبرنى أنه قرأ منه جميع كتاب الصلاة عرضا عن ظهر قلب على والده جدى عن جماعة جلة منهم والده الخطيب أبو اسحاق وغيره وقرأته بالمسجد من مدينة مالقة المحروسة عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة على الشيخ الخطيب الزاهد الولى الله تعالى أبى عبد الله محمد بن أحمد الهاشمى الطنجالى بسنده فيه وقد قرأته وسمعته بالاندلس وبغـرب العدوة على غير من ذكرته رضى الله عن جميعهم . وقد آن أن يبرز فارس ميدان التسجيل المتميز فى عناق تلك الحلبة بالغرة والتحجيل (53) المحرز فضل السبق الموجب للتعظيم والتبجيل الشيخ العالم المتصوف أبو عبد الله بن عمر ارضاه الله تعالى ، علم الجماعة ، وقلم التأييد والاستطاعة ، ورب الفكرة المطاعة ، ومن له فى النظم والنثر القلـم الاعلى ، والقدم الاولى ، واللفظ الاجلى ، والقدح المعلى ، والبدائع التى تستفاد وتستعاد وتستحلى ، وله فى الطريقة الصوفية مقام عـال ، واشتات معال ، وخاطر يجول بين واسع مجال فيبرز نفائس لئال وعرائس

---

53) فى الاصل والتحليل .

جمال ويأتى بسحر حلال ، وبحر زلال بين بديهة وارتجال ، ووخذ وارقال وانحفاز واستعجـال .

مكـارم مثـل الحصا كثـرة وخاطـر يغرف من كل بحـر

رحل الى المغرب والمشرق فعلت روايته وعظمت آياته ، وكثرت مبالاته بالعلم وعنايته ، فبدأ فى سماء المعالى بل المعارف شمسا تتجلى بزهر هدايته مشكلاتها ، ولاح فى جيد العوارف سلكا تتحلى بذر كفايته لباتها ، وأقام مشتغلا بالعلم سنين ، وانعقد النكاح بينه وبين عقائل الاداب بالرفاء والبنين ، فيلد من مخلدات فكره خرائد تتهاداها الملوك وفرائد تزدان بها التيجان والسلوك ، تحلت به الدولة الاندلسية كما تجلت عنـه الخضرة التونسية فهو الآن متولى ديوان انشائها ومدلى أشطان رشائها قد استقر عنه من عرف له شأنه وعاف بعده وشأنه واقتنى نظمه فزانه وأذخر مرجان نثره وجمانه . دخلت الحضرة المذكورة على حين أخذ منى البين أخذته وفلذ من فؤادى فلذته ، فتفرست أدبه الرائق ومذهبه الواضح الطرائق فكان جنابه العلى مطمح نفسى ومسرح انسى ومصلح ما نضى من لبسى ، وانضى من عنسى فكانت فراسة لاح صدقها ، وأومض برقها سحابها ، وهمل ودقها ، ولما عجت اليه وقصدت منزله للسلام عليه ، أنشدت بيتين اثنين استأذنته بهما وهما :

ببابـك يـا مولى الكتابة كاتب أتاك بقلب من أسى البين مفجوع
وحاجتـه تقبيل يمناك ، انهـا تؤمن من خوف وتسمن منجوع

فارتاح اليهما ارتياح الصادق لبليل القبول ، ومد لهما يمين اليمن والقبول ، ودارت بيننـا المخاطبات نظما وتكررت بيننا المراسـلات والمراجعات قلا وكثرا ، ولم أزل مدة اقامتى بتلك الحضرة تحت ظلـه الوارف وفضله المحمود المطارف خرج مستريحا فى بعض أزمنته الطيبة

الى بعض جناته التى هى منى النواظر ، وملعب الغصون النواضر ومهب الانفاس العواطر وراحة الابدان والخواطر ، حلال الحلل التى توشيها أيدى الغمائم المواطر ، فما ألم بها حتى وجه الى مع بعض خدامه مركوبا من عتاق الخيل ، جامعا لضياء الصباح وغسق الليل نقلنى اليه ، وأحلنى لديه ، فوافيت والربيع قد أهدى نوافحه ، وأسدى لواقحه ، وأسدل ملاحفه وأسبل مطارفه ، وألان معاطفه وأفاض معارفه ، ومد بروده ، وأمال قدوده ، وحشد جنوده ، وحشر بيضه وسوده ، ونشر ألويتـــه وبنوده ، وملأ تهامته ونجوده ، ونظم جواهره وعقوده ، ورقم صحائفه وعقوده ، وأعطى مواثيقه وعقوده ، والغمام قد بكى على ميت الروض فاحيا نوره وأضحك ثغره وحدق أحداقه ، وأرضى أوراقه ، وأصفى ملبسه، ووشى سندسه ، والنسيم قد جر على بساط البسيطة ذيوله ، وأجال بملعبه خيوله ، واستنطق أطياره ، وشق أنواره ، وأفشى أسراره ، وأذاع شيحه وعراره ، وفضض أنواره ، وذهب أزهاره ، ونثر درهمه وديناره ، وحيا ورده وبهاره ، وصافح آسه وجلناره ، وأطاب ثناياه وأخباره ، والمذانب تسل السيوف ، وترى لنفسها على الانهار الشفوف، وتخترق من مكللات الثمـــار الصفوف ، وتدور على سوق الغصـــون كالخلاخل ، وتلتوى بها التواء اللسان المجادل ، وتلك السواقى تحن حنين الحوار ، وتضرم فى القلب المشوق حر الاوار (54) ، وتهيج لوعة الصب المغترب النازح الدار ، وتفجر من بين أضلاعها أمثال الشفار ، كما قـــال الرئيس أبو عبد الله بن أبى الحسين :

ومحنيـــة الاصلاب تحنو على الثـــرى
وتسقـــى بنات التـــرب در الترائـــب
تعـــد مـــن الافـــلاك أن مياههـــا
نجـــوم لرجـــم المحـــل ذات ذوائـــب

54) الاوار : الحـــر .

وأطربهـا رقص الغصـون ذوابـلا
فدارت بأمثـال السيـوف القواضـب

ومـا خلتها تشكو بتحنانهـا الصبـا
ومـن بين مثليهـا أطـراد المذانـب

فخـذ مـن مجاريها ودهمـة لونهـا
بيـاض العطايـا فى سـواد المطالـب

فحللت منها شرفا ، وتبوأت غرفا ، وأجتنيت تحفا وطرفا ، وأقمنـا فيها ليالى وأياما أمنين ، تغازلنـا أعين النرجس وتتقابلنا خدود الورد وتصافحنـا أكف الياسمين :

فى رياض من الشقائق أضحت   يتهادى بهـا نسيـم الريـاح
زرتهـا والغمـام يجلد منهـا   زهـرات تفوق لـون الـراح
قلت مـا ذنبها فقال مجيبـا   سرقت حمرة الخـدود الملاح

وممـا أنشدنـى هناك لنفسـه :

حســن المريـــة ريـــح   جــرى عليهـا فعمـا
فكـل وجــه تــراه   تــراه بـدارا أتمـا

وأنشدنى وقال لى : أنشدنى الحاج الفاضل أبو زكرياء بن واش الفاسى ، وقال أنشدنى بعض الشيوخ المجاورين البغداديين وقد مر بـه بحرم مكة ، شرفها الله تعالى ، الفقيه أبو جعفر بن شيخنا الامام رضـى الدين الطبرى ، وهو اذ ذاك فتى ، فقال له الشيخ ، (ما الذى تقرأ وبـم تشتغل من الكتب) ، فقال له الفتى ، (بالتنبيه) فأنشد الشيخ بديهة .

ومهفهف الاعطاف ساج طرفه   يغدو على الفقهاء للتعليم
شغلوه بالتنبيه جهلا منهم   لو انصفوا شغلوه بالتنويم

وأنشدني وقال لي ، دخل الاديب الشهير أبو بكر بن قزمان ، رحمه الله تعالى ، على بعض البلاد فأعطى نعله ليصلح له ، وهو مستوفز (55) قد نفد ما عنده ، فخاطب في الحال بعض الناس من أهل البلد بقوله :

دفعت قرقى للقراق يصلحه   وقد تعذر قيراط من الثمن
فامنن على شاعر خفت مؤونته   قدر السؤال بقدر الناس والزمن

وأنشدني لبعضهم :

خبت نار العلى بعد اشتعال   ونادى الجود حى على الزوال
فقدنا الجود الا فى حديث   والا فى الدفاتر والامال
ولو أنى ملكت الامر يوما   لما حاربت الا بالسؤال
لان الناس ينهزمون منه   وقد ثبتوا لا لاطراف العوالى

وقرأت وسمعت عليه جميع صحيح مسلم بن الحجاج ، رحمه الله تعالى ، فكمل لى جميعه عليه ما بين قراءة وسماع بحق قراءته لجميعه ، بالحرم الشريف تجاه الكعبة المعظمة ، سنة ثلاث عشرة وسبعمائة على الشيخ الامام الخليل عليه السلام رضى الدين أبى أحمد ابراهيم بن محمد الطبرى المكى الشافعى ، قال : قرأته أجمع بالحرام الشريف اتجاه الكعبة المعظمة ، سنة خمس وسبعين وستمائة على الشيخ الاوحد شمس الدين أبى عبد الله محمد بن النعمان بحق قراءته ، على الشيخ أبى الفضل محمد بن أبى المعالى بن الجياب السعدى ، على الشيخ

55) المستوفز : من كان غير مطمئن فى قعدته ، وكانه يتهيأ للوثوب والمراد، عجلة.

الشريف أبى المفاخر سعيد بن الحسين المامونى ، عن الشيخ أبى عبد الله محمد بن الفضل الصاعدي الفراوي (56) ، عن الشيخ ابى الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسى ، عن الشيخ بن أحمد بن عيسى الجلودى ، عن أبى اسحاق ابراهيم بن محمد بن سفيان النيسابورى ، عن الامام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى ، قال : « وقال الشيخ أبو أحمد ابراهيم بن محمد رضى الدين الطبرى ، وأخبرنى به ، أعلى من هـذا الشيخ المحدث أمين الدين عبد الصمد بن عبد الوهاب بن عساكـر الدمشقـى ، قراءة عليه وأنا أسمع ، بالحرم الشريف تجاه الكعبـة المعظمة سنة تسع وخمسين وستمائة قال : أخبرنا به الشيخ أبو الحسن المؤيد الطوسى ، اجـارة عن الامام أبى عبد الله محمد بن الفضـل الصاعدى الفراوى ، وبسنده المذكور » . وقد أجازنى الاجازة التامة ، وكتب لى بخطه .

(وآخر سبعهم) ، وموثر شفعهم ، امام المعارف ، وروضة الاداب الناعمة الافنان ، الرائقة المطارف ، الفائزة من المجد الموثل بالتالد والطارف، الشيخ العالم الولى : أبو عبد الله لبن حريز فرع الاصل الغريز ، وطبع الادب المخجل اسلاك الدر وسبائك الابريز ، والمعترف له فى ميـدان البلاغة وفرسان البراعة بالسبق والتبريز ، سبق (57) فى شجرة قرشية أموية كريمة الاعراق ، ساطعة الاشراق طيبة الاثمار والاوراق ، (58) وتفتح نور بيانه فى جنان جنانه ، فاجتنى لسانه ، واجتلى كالزهـر فى آداره ونيسانه ، وترقى باجادته واحسانه ، من رجل برع فى الطرق الادبية والصوفية ، ونبغ فى العلوم العقلية والنقلية ، وفرغ لها بالنفس العاصفية (59) ، والهمة الاوسية والفكرة الاياسية ، فخلق فيها رجوما رافقت الانكدار ، وبدورا فارقت الابدار ، وشموسا على كسوفها من

---

56) فى بعض النسخ الفراوى
57) فى بعض النسخ بسق بدل سبق
58) فى بعض النسخ الايراق
59) فى جل النسخ العاصمية .

الزمان ما دار ، فعلا بعدهم قدمه ، واضحى وجمهور العالم حوله وخدمه ، فاقتصر فى منزله الكريم على عبادة ربه ، وافادة صحبه ، سارحا من فنون علوية ، فى روضات جنات ، ودرجات مقامات ، وسائحا من عيون مجلداته فى بحر أمهات ، وغيض ملهمات ، منقبضا عن الناس الا عن المحتاجين الى مواساته ، والمفتقرين (60) الى افادته ومؤانسته، فترى تراكم الخلق عليه تراكم الجراد المنتشر ، فمجلسه فى داره بتونس مجتمع اليه فيه أصناف أهل العلم ، وطوائف أولى التقى والفهم ، وهو اليوم هناك كعبة العلوم يحج اليها ، وعمدة المحاسن يعول عليها ، قد جعله الله تعالى محيا للانفس ، وسببا للتأنس ، وأودع فيه من صدق المصاحبة ، وحسن المداعبة ، وكثرة الخشية لله تعالى والمراقبة ، ما سلكه على أحسن الاسلوب ، وملكه الانفس وحب القلوب ، فهو كما كان محمد بن سيرين رضى الله عنه ، يداعب ويضحك حتى يسيل لعابه ، فاذا أردته على شىء من دينه كانت الثريا أقرب اليك من ذلك .

سماحة لا تبارى الريح غايتها
جودا ولا تتعاطى شأوها السحب

وهيبة لو رآها الدهر ماثلة
ولى وللرعب فى أحشائه صخب

الى ما رزقه الله تعالى من القريحة الوقادة ، والفطنة النقادة ، والخوض فى بحور العلوم الشرعية والطبيعية ، والورود من مشارع الكمالات النفسية ، والمشارب الذوقية الوجدانية ، والعنايات السلطانية والحمايات العامة والعطايا الحاتمية ، والرتب العليه ، والزهد فى الدنيا الدنية ، وبعد الهمة والمشاركة للخاصة والعامة ، من هذه الامة ، واجابة الدعوة ، والخلو من الزهو والنخوة ، وانا من رأيت نجاح دعواته ، وصلاح

60) فى الاصل المفترقين .

حالى بالتماس بركاته ، ولازمته وترددت اليه كثيرا فكنت أجد فى مجالسته فوائد تنسى الاوطان ، وارد فى مؤانسته موارد تحيى الهائم الظمئان ، قلت له يوما ، ياسيدى علم الله تعالى أنى أحبك فقال لى : ابشر أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فقال لـــى : (يا محمد رزقك الله التقوى وحببك الى خلقه وجعل من يحبك من عبادة المومنين قال رضى الله عنه : فمن علمت أنه يحبنى علمت أنه من عباده المؤمنين) سمعت من افظه رضى الله عنه جميع تآليفه البديع المزرى بروض الربى وزهـــر الربيع الذى سماه مهب نواسم المدائح ، ومصب غمائم المنائح ، فى مدح أحد حجاب ، الخلافة الحفصية ، ونقلته من خطه وصححته عليه ، وسمعت وقرأت عليه ، وأجازنى وكتب لى بخطه ، ومولده فى الثانى عشر لشهـــر ربيع الثانى عام اثنين وثمانين وستمائة ، وأخبرنى رضى الله عنه قال : حضرت محتفلة عند بعض الاصحاب أنشد فيه المسمع قصيدة ابن صردر العراقى فأعجبت بها ، وما أتمها الا وقد أشربت فؤادى من سمعة واحدة ، وعرضتها فى الحين على من حضر وهـــى :

لحاجة نفس ما يفيق غرورهـــا وحاجة صب ليس يفضى يسيرها
أكفكفهـــا هطلا على كل منـــزل فلو أنها أرض لغارت بحورها
وما ينفع العين التسهد والبكـــا اذن تعرفا لى مقلة أستعيرها
وقفنا صفوفـــا بالديار كأنهـــا صحائف مزجاة ونحن سطورها
يقول خليلـــى والظباء سوانـــح أهذي التى تهوى فقلت نظيرها
لئن أشبهت أجيادها وعيونهـــا لقد خالفت أعجازها وصدورها
ووالله ما أدرى غداة رمينـــى أتلك سهام أم كئوس تديرها ؟

---

61) القصيدة للشاعر (ابن صردر) . نشر ديوانه بدار الكتب المصرية . وقـــد حرف اسمـــه فى كل النسخ .

فان كن من نبل فأين حفيفهـا   وان كن من خمر فأين سرورها ؟
وان قلتما لى ليس فى الارض جنة   أما هذه فوق الركائب حـورها
يعز على الهيم الخوانس وردها   اذا كان ما بين الشفاه غديرها !
أراكد الحما قل لى دأى وسيلة   توسلت حتى قبلتـك ثغورهـا
تنال الذى ماشئت منها وتشتهى   فصف لى ريا منها فأنت خبيرها
ومالى بها علم فهل أنت عالـم   أأفواهها أولى بها أم نحورها ؟
يفوح النسيم الرطب من كل منزل   وما كل أرض يستطاب عبيروها
وان فروع البان من بطن وجرة   شهـى الينا ظلها وحرورهـا
أإذ من العذب الجنى عرارهـا   وأشهى من الشهد المصفى رحيقها ؟
على رسلكم فى الحب انا جماعة   اذا ظفرت بالحب عف ضميرها
لعمرك ما سحر الغوانى بقـادر   على ذات نفس والمشيب نذيرها
وما الشعرات البيض الا كواكب   مطالعها رأس وفى القلب نورها

هكذا أملاها على بلفظه ، ضى الله عنه ، وقرأتها عليه بلفظـى مصححها لها مرة ثانية وأنشدنى أيضا قال هما لابى الحسن ابـن الزقـاق رضى الله عنـه .

وحبب يوم السبت عندى أنـه   ينادمنى فيه الذي أنا أحببت
ومن أعجب الاشياء أنى مسلم   حنيف ولكن خير أيامى السبت

---

62) فى بعض النسخ

لحاجة نفس ما يفيـق غرورها   اذا لوعة الاحباب هب زفيرهـا
وعين الى الاطلال تزجى دموعها   اذا لوعة الاحباب هب زفيرها

فهؤلاء سبعة الدرارى فى علو المقام ، أو كسبعة الايام المحيطة بأزمان أكوان الانام ، آثرت ذكرهم انتقاء من أولئك الجهابذة الاعلام ، واقتصرت فى عددهم على أحب الاوتاد الى الملك العلام ، ولما أراد الله سبحانه أن يسعدنى بالاخذ عنهم ، ويسعفنى فى الاستفادة منهم ، قيض أول من علم غيبة ، ووفر جوده وسيبه ، ولطائفه الخفية ، وعوارفه الالاهية ، صديقا فى المحبة ، وموافقا على الصحبة ، حافظا فى الحضور والغيبـــة ،

خير اخوانك المشارك فى المـر　　وأيـن الشريك فى المرأينـا ؟
الذى ان حضرت سرك بالـود　　وان غبت كان أذنـا وعينـا !

هو الشيخ الفقيه العالم أبو العباس النقارسى ، نفع الله بمودته ، حافظ مجيد ، وحامل مجيد ، وناقل سديد وناقد شديد ، وعالم فريد ، ومدرس مقيد ، له طبع حل فيه الذكاء والنبل ، وقل فيه لوابل كرمه الطل والوبل ، ان واخاك رأيت الانس قد ارتدت ذواهبه ، وعادت مذاهبه ، ووجدت الزمان قد لانت صعابه ، وبانت شعابـه ، وأولاك ودادا أخلصت سريرته ، وحمدت فى شرعة الوفاء سيرته ، فلا حمد الا ما قد تصفحته له صفحات الفلا ، ولا عهد الا ما حفظه والافلا ،

حسن الوفاء مرشح بخلائـق　　تجرى مع الماء الزلال اذا جرى

رحل من بلدة تلمسان قبل أن يلم بها الحصار ، ويلقى ريحهـا الاعصار ، ويشرب الزمـان صفوها بالاكدار ويحكـم فيها الخطوب والاقدار ، ويدير عليها من البلاء والمحنة ما أدار ، فكانت منه فعلة سنية ونقلة سرية ، وفراسة اياسية ، والماعية عباسية ، فدخل الحضرة مشمرا عن ساعد الجد ، ومقتادا بقائد الجد ، فطلع فى آفاقها كوكبا ، ورسـى فى ساحتها كبكبا وجال فى ميدانها ركضا وخببا ، وتعلق بعروتها الوثقى سببا فسببا ، ولم يزل يفحص فى هذه المسالك على الكمال ، ويستقـى

من مناهلها العذبة السلسل الــزلال ايثارا للرتب المنيفة ، واستطلاعــا للمقامات الشريفة ، فبلغ المنتهى ، وخول ما اشتهى ، وحل فى الحظوة فوق السهى ، فهو الان أحد المدرسين الاعلام ، وأوحد من برع فى علمى البيان والكلام ، وأوجد الناس للدر اذا خاض بحر العلوم بسوابــح الاقلام ، أديب العصر ونحويه ، وعرضيه وبيانيه ، وحكيمه ومنطقيه ، وعددية وفرضية ، وأصولية وجدلية ، وتعاليجية وأرتماطيقية ، جمــع أشتات هذه الفضائــل وكان فيها صائلا ليس بضائل ؛ وعلم اللغــات وسائرها ، وفك الاعاريض ودوائرها ، الى احاطة بعلم التفسير والحديث، وسلاطة على المطالعة والمذاكــرة فى القديم والحديث ؛ اما الفــروع والاصول فبه كنت فيهما أصول ، ولم ترعينى قط شرقا وغربا أسرع منه نسخا وكتبا ، ولا أقرأ لكل خط ما عسى أن يكون صعبا ، على جودة خطه وصحة نقله وضبطه ، واتيانه للسحر الحلال بأى شىء أخذ من الارض لا يميل بشقه ولا يفطه .

كالحيــة الرقشــاء الا أنــــه	يستنزل الاروى اليــه تلطفــا
يهفو بــه قلــم يمــج لعابــه	فيعود سيفــا صارما ومثقفــا

دخلت الحضرة وقد كسانى البين تلك الغمرة ، فنبهنى منه أخ شقيق وفرج به عنى أزمة وضيق ، وقد كان يتشوقنى عنى السماع ، وينشط للاتصال له والاجتماع ، فلما علم بوصولى وصل فى لمة مــن اخوانه الاعلام ، وأعيان ذلك الصقع المتصلين بالسؤدد اتصال الالــف بالام ، فالتقينا هنالك التقاء النفس والامل ، وانتظمنا انتظام القــول والعمل ، وأقمت معه فى منزل واحد ، وأمل وافد ، لا يستأثر أحدنــا بمقسوم ، ولا ينفرد عن الآخر بمكتوم ولا مختوم ، وهو فى كل ذلــك يؤنسنى غاية الايناس ، ويأخذ بضبعى الى معرفة أكابر الناس ، ويفيدنى بأجل الفوائد ، ويأتى من مرسوم فضائله بالزوائد ، الخارقة للعوائد ، وكثيرا ما كنت أعجب من تطلعه الى المعالى وتحصيله ، وأنجب باحتذائى حدوه فى جملته وتفصيله ، وآقتفائى سننه فى دقيق الامر وجليله ، والمرء

على دين خليله وما زلنا بتلك الحاضرة ، نتجلى أنوار المحاضــرة ، ونجتنى نوار المذاكرة ، الى أن جاء يوم الفراق ، باخترام ذلك التلاق ، واحتدام ذلك الاعلاق ، فسبحان من أوجد العهود ثم أعدمها ، ووصل تلك الاسباب ثم حذفها ، وهذه شيمة الليالى فى أعقاب تجميعها بتفريقها واشراقها كل نفس بريقها ، لا تجمع شملا الا شتته ، ولا تصل حبلا الا بتته ، من أطاعها عصته ومن أدناها أقصته ومن وصلها قطعته ، ومن نزع اليها نزعته ، ومن أرضاها أغضبته وأحرجته ، ومن سكن دارهــا أزعجته واخرجته ، والغبطة بها مع ذلك شديدة ، والامال فيها على أنها دار انبلاء جديدة ، حتى كأن حقيقة ما يعلم من استحالتها ارتياب ، والرحلة عنها أياب ، لقد حق أن يرفضها البصير ، ويعد لما اليه تصير ، ويسئل الله فى أمره فنعم المولى ونعم النصير ، الهمنا الله تعالى طريق أرشادنا ، وأعاننا على الاعــداد لمعادنا ، وقضى فى العاجل والآجــل باسعادنا ، انه على ذلك قدير ، وبالاجابة جدير ، وارجع الى تتميم مــا بدأت عن الاعلام بفضل هذا الفاضل وجلالته ، والالماع من ذكر روايته والرواية عنه بما لا يخشى من ملالته ، فأقول : انى قرأت عليه جميــع تآليفه فى العروض الذى سماه بالروض الاريض فى علــم القريض ، وجميع تآليفه فى الادب الذى لخص فيه رسالة أحكام صنعة الكلام من انشاء الوزير الكاتب أبى عبد الله ابن عبد الغفور ، وكتبها لى بخطــه ، وأجازلى جميع ما رواه وألفه من تآليفه التى أبدع فيها تلخيص مشكل الحديث لابن فورك ، وكتاب حديقة الناظر فى تلخيص المثل السائل فى علم البيان ، وشرح كتاب المصباح لابن مالك ، وكتاب ايضاح السبيل والقصد الجليل فى علم الخليل فى شرح قصيدة ابن الحاجب العروضية ، وله تآليف غيرها مما عرف بحمد الله قدرها ، وأشتهر على الالسنــة ذكــرهـــــا ،

وسارت مسيــر الشمس فى كل بلــدة
وهبــت هبوب الريــح فى البر والبحر

وانشدنى وقال : أنشدنى الشيخ الامام الاوحد أبو عبد الله محمد بن راشد ، رحمه الله تعالى ، قال : أنشدنى لنفسه معين الدين ابن تولواء التوزى ، رحمه الله تعالى ورضى عنـــه :

يــا أهل مصر رأيت أيديكــم   عن بسطها للنــوال منقبضــة
لمــا فقدت القــرى بأرضكــم   أكلت كتبــى كأننى أرضـــة

وأنشدنـــى لغيـــره :

لحــا اللــه مصــر وسكانهــا   وغتـــت أكبادهـــم بالحســد
متى يرتجــى مفلس عندهــم   غنى ، وعلى كل فلس أســد

وأنشدنى الشيخ المحدث الفاضل فتح الدين بن عمر بن سيــد الناس رحمه الله تعالى :

باللــه ان جزت بــواد الاراك   وقبلت عيدانه الخضــر فــاك
فابعث الى المملوك من بعضها   فاننى واللــه مالــى ســواك

وأنشدنـــى لبعضهـــم :

جعلــت هديتى لكــم سواكــا   ولم أقصــد به أحــد ســواك
بعثــت اليك عودا مــن أراك   رجــاء أن أعــود وأن أراكــا

وأنشدنى قال انشدنى الشيخ الامام الاوحد ناصر الدين أبو على منصور بن عبد الحق المشذلى رحمه الله ، قال انشدنى أبو عبد الله بن أبى الفضل السلمى المرسى لنفســه :

عابوا الجهالة وازدروا بحقوقها وتهاونوا بحديثها فى المجلس
وهى التى ينقاد فى يدها الغنى وتجيئها الدينا برغم المعطس

ان الجهالة للغنى جذابة
جذب الحديد حجارة المغنطس

وأنشدنى له أيضا :

تنقل فلذات الهوى فى التنقل
ورد كل صاف لا تقف عند منهل

وان سار من تهوى فسر عن جنابه
ولا تسكبن دمعا على مترحل

ولا تلتفت قول امرىء القيس أنه
ضليل ومن ذا يهتدى بمضلل

ففى الارض أحباب وفيها منازل فلا تبك من ذكرى حبيب ومنزل(64)

وأنشدنى للقاضى الخطيب العالم أبى عمر بن ادريس ، أخى بنى بحر صفوان بن ادريس . فى أبى العباس الفضل بن أحمد بن الفضل ، أحد علماء مرسية ووزرائها ، وكان أوحد زمانه فى حسن الصورة .

أطاع فؤادى حبه وعصى العدلا وذاق الهوى مرا ، ولكنه استحلا
يقولون أقصر، وانس فضلا ولم أكن لا فعل هذا ، ساء قولهم فعلا
يكلفنى العذال ما لا يحل لى أأنسى ؟ وقال الله لا تنسوا الفضلا

---

64) (فى بعض النسخ) بتر من حبيب ومنزل الى قوله : يا موقد النار (فى الصفحة التالية) .

وأنشدني له أيضا :

واغيد حظي منه ما اختلس الطرف
يميل بقلبي نحوه الحسن والظرف

غزال ضعيف اللحظ ويحيي وانما
جنى ضعف صبري في الهوى ذلك الضعف

هو الخشف الا أنه كلما رنا
جزعت وفي المعتاد أن يجزع الخشف

أرى هجره وقفا على فهل غدا
جزاء على أني على حبه وقف

سلوه برفق هل جنيت جناية
فان قال أي فاسئلوه عسى يعفو

ويصرفني من جوره نحو عدله
فها أنا لا عدل على ولا صرف

سأتنيه نحوى بالقوافي فانها
نسيم ويحكى الغصن لي ذلك العطف

قنعت بأن يهدى الى سلامه
اذا لم يكن زهر من الروض فالعرف

وأنشدني لابي الربيع سليمان بن أحمد البيني ، أندلسي استوطن المشرق ومدح الملك الكامل :

لولا تحديه بآية سحره
ما كنت ممتثلا شريعة أمره

رشأ أصدقه وكاذب وعده
يبرى لعاشقه أدلة عذره

ظهرت نبوة حسنه فى فترة
من جفنه وضلالة من شعره

وأنشدنى عند الوداع لعلى بن هاشم المروزى :

يا موقد النار يذكيها فيخمدها
قر الشتاء بأرواح وأمطار

قم فاصطلى النار من قلبى مضرمة
بالشوق من مهجتى ، يا موقد النار

ويا أخا الذود قد طال الظلماء بها
ما يعرف الرى من جذب واقفار

رد بالعطاش على عينى ومحجرها
تروي العطاش بدمع واكب جار

يا مزمع البين لا كان الرحيل فان
كان الرحيل فانى غير صبار

ان غاب شخصك عن عينى فلم تره
فان ذكرك مقرون باضمار

ثم تهيأ زادى ، وكمل للسفر استعدادى ، وخرجت بعد الاستخارة المشهورة ، ومن حضرة تونس المذكورة فى صبيحة يوم السبت السابع عشر شهر ربيع الثانى عام سبعة وثلاثين وسبعمائة ، وقد نثر المركب

بنوده ، وقلد شراعه وأحكم شدوده ، فركبت فى اليوم المذكور . ثم أحصى الراكبون فكمل فى المركب منهم نحو ألف راكب ، ثم رفع الشراع وسرنا خارجين من المرسى الى أن جزنا جزيرة (قوسرة) ووصلنا الى جزيرة (ملطة) ، ثم هبت ريح اقتلعتنا وأسرعتنا ، واشتدت وحامت فروعتنا وأزعجتنا ، حتى أدخلتنا مرسى جزيرة (أقريطش) (66) فأقمنا فيها خمسة أيام ، وهى جزيرة للروم ، وطولها نحو ثلاثمائة ميل ثم خرجنا منها فلما توسطنا المواسط اشتدت الريح المختلفة ، وعظمت الامواج المضطربة ، وأتت الانواء من كل جانب ، وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة ، فأظلم الجو وتراكم النوء ، وارتفع الصحو ، وتبدل بالكدر الصفو ، واهتاج البحر اهتياجا ، وأربدت الافاق سوادا ، وانتشرت الرياح عصوفا ، وتدفقت الامواج ، وعظم الارتجاج ، وهمى الغمام ، واستشعر الحمام ، وأرسلت شئابيب الامطار كأنها السهام ، وكان ذلك الخطب أعظم من أن يحيط به الوصف ، فرجفت القلوب ، وخرست الالسن ، وجرت الرياح بما لا تشتهيه السفن ، واتصلت الحال فى الزيادة الى أن قربنا (من جزر الرومانية) ، وتفاقم الامر وتعاظم حتى انتهينا الى جزيرة (أشقرباطة) فركبنا الى مرساها ، وأرسينا به فتنزايد الامر وعظم ، حتى قطع المراسى جملة واحدة ، وخرج المركب رغما على الانواف واستقبل عظيم تلك البحار فايقنا بالهلاك ، وغلب اليأس على الامل ، وقلت (أنا الغريق فما خوفى من البلل) وكم يسير بنا فى غير طريق ، والهول يزيد ويعظم ، حتى تفتح المركب من جميع جهاته وصار الماء يدخله من كل جانب حتى ملاء الجو الاسفل واستوى على ظهر الطبقة الثانية من المركب ، وتزايد فيها حتى قرب من الطبقة العليا ، فاستغاث الناس ولم يبق شك فى الهلاك ، واذا بالرئيس

---

66) جزيرة اقريطش جزيرة مشهورة ببحر الروم دورها ثلاثمائة ميل وخمسون ميلا ، ويقول ابن سعيد فى بسط الارض انها واقعة فى الاقليم الخامس وبينها وبين راس أوثان مرحلتان ونصف ، يذكر مؤرخو الاندلس أن الفقهاء توجهوا اليها والى فاس بعد معركة الربض

والبحريين قد أقبلوا عليهم وقالوا ما بقى فى الحياة من طمع الا ان قد رتم على ميح الماء ورمى الوسق ، فقام الخلق بأجمعهم كبيرا وصغيرا وذلك بين العشائين ، وأقبلوا على الميح والرمى ، فما رجع (67) أحد عن رمى ما قام فى وجهه شيء كان ، ما عدا النفس خاصة ، والقليل من الشدائد يصير عند المشاهدة له كثيرا ، كما أن الكثير من الشدائد يصير عند سماعه قليلا ، وأهوال البحر لا تحصى ولا تحصر ، والشيء يسمع فيحتقر حتى يبصر :

هو البحر حدث عنه غير مكذب فما تنقضى آياته وعجائبه

فأقاموا كذلك حتى ظهرت (جزيرة قبرس) وهى جزيرة كبيرة معمورة بالنصارى كالجزر التى قبلها ، فما انفصلنا عنها الا وقد أدركهم الجهد والاعياء ، ولحقهم العطش الشديد والعناء ، وقد كانوا رموا جميع ما كان بقى لهم من الماء المعد للشرب فطلبت قطرة من الماء توجد ، فما رض ضلوعى ولا فض دموعى الا أطفال يضطربون بالبكاء ويستغيثون من العطش ومن الماء حتى أشرف الناس على الهلاك بالعطش ، وتجزع بعضهم من ماء البحر فكنت أراهم مطروحين يعالجون سكرات الموت . فعند ذلك قام صاحب المركب الى شيء يسير كان بقى له ولرجاله من الماء لشربهم ، وحضره الى ناحية وأحصى جميع ما كان فى المركب اسما وعينا بالزمام ، وصار يدفع لهم جرعة واحدة ظهر كل يوم قدرها نحو ثلاث أواقى ، فبينما هم يتمسكون بتلك العلالة ، ويترمقون بتلك المصة والبلالة ، التى كان الناس يتجرعونها ، كرها ، والعطش أشهى للنفس منها ، اذ أمر الله تعالى الرياح ان تسكن . والبحار أن تبيض ، فلم تتحرك فيها للنسيم حركة :

وقد كان بحرا قبل ذلك زاخرا
فغدا بذلك ، وهو بر مقفر

---

67) (فى بعض النسخ) فما رجح أحد .

فتمكن اليأس ، وعظم البأس ، وسقط فى أيدي الناس ، فضجوا بالدعاء ، ونقص لهم النصف من تلك الجرعة التى كانوا يأخذونها من الماء ، واختلفت اليهم أنواع الهلاك والبلاء ، فلما رأيت تلك الشدة ، جمعت الاصحاب من قراء القرآن فاجتمع منهم نحو الثلاثين رجلا ، فقلت لهم ما لنا الا اللجاء الى الله عز وجل ، واتوسل اليه بكتابه وبرسوله فصلينا العشاء الاخيرة وقسمت عليهم القرآن مجزءا ، وأقمنا على التلاوة والقراءة ليتنا تلك فلم يكن الا أمد يسير وشفع الله فينا كتابه العظيم ، ونبيه الكريم ، وهبت ريح سرنا بها حتى أنعم الله سبحانه وظهر منار الاسكندرية فأعلم الناس بذلك ، فضجوا سرورا بالدعاء والبكاء ، وأعلنوا بالحمد والشكر لله تعالى والثناء ، وكادوا أن يقضى عليهم ذلك الامل ومن فرح النفس ما يقتل .

خفقت قلوبهم سرورا بعدما   باتوا بأفئدة يراع خوافق

فما رأيت قبلها بشارة أحلى فى النفوس ، أوقع فى القلوب ، ولا أعظم سرورا من سرور الخلق بها فى تلك الساعة ، وما ظنك بساعة أعلنت بالكرم والجود ، وأعلمت بالخروج من العدم الى الوجود ، وغيها نطق لسان الشكر بما تيسير على الفكر فقلت :

بشراكم لاح المنار الاسعد   ودنا على اليأس المرام الابعد
وتنفس الكرب الذى كنا به   فى حالة البلوى نقوم ونقعد
وافتر من أسكندرية ثغرها   الوضاح فهو منظم ومنضد
فردوا زلال النيل فيها موردا   قد أخصب المرعى وطاب المورد
واستقبلوا النعم العظام بشكرها   فبشكرها أبدا لكم تتزيد
ما خاب قصدكم وطيبة قصدكم   وشفيعكم خير الانام محمد

فوصلنا وجفن الظلام قد انطلق على عين الشمس ، ومضى اليوم مضى الامس ، ودخلنا المرسى بقرب المنار ، فى ليلة الجمعة الثالث

عشر لجمادى الاخرى من عام سبعة وثلاثين المذكور ، ولما بدأ من الفجر سفور ، ونثر الصبح كافور ، وركبت الينا زوارق المدينة ، وخرج الناس لمشاهدتنا فى أحسن الزينة ، نزلنا البر لا نلوى على جريح ولا نصبر ريثما يسكن البحر من ماء وريح ، وأقبلنا الساحل قاصدين تائبين من ركوب البحر أبد الابدين فلما وطيئنا الرمل وسلمنا على الاخوان احتضنا بالشرط والاهوان ، وحملنا باجمعنا الى الديوان هناك شاهدنا الحساب وأرينا العذاب ، وملئوا منا البيوت والرحاب ثم أمرت اليد على القليل الكثير ، والحقير والنقير ، والدفتر والقطمير ، والرفيع الوضيع والغنى والفقير ، وفتشت الاوساط ، وعم الزحام والاختلاط ، وكثر الهياط والمياط ، حتى خرج المخزون والموزن ، وبرز المعكوم والمختوم ، وعند الله تجمع الخصوم ، فأخذ من كل عشرة دنانير ديناران ومن كل عشرة دراهم درهمان ، ظلما وعدوانا وجورا وطغيانا فاستشعرت الاسف، ونسيت كل رزء سلف ، ووددت للنزر الحاضر لو كان مع الشىء الآخر ذهب وتلف وجعلت أنشد :

رمى بى البحر درا فى بلادكم ... لكننى لم أصادف فيكم صدفا
أصبحت بين أناس ضعت بينهم ... كالزهر فى كف مزكزم فوا أسفا

وبعد مرارة تلك المواقف المهينة ، أعقبت حلاوة تلك المدينة :

فنسينا ما لقينا ... وكأنا ما شقينا

* * *

وخلصت من حجر الاسى لمسرة ... فتنت بها الابصار والاسماع
وظفرت من زمنى بحظ لم يزل ... بينى وبين الدهر فيه نزاع

فانتظم الشمل بقصر الموضوع ، بديع المجموع ، يعجب بقطعه المتجاورات ، وحدائق فيها من كل الثمرات ونخل كالكتائب قابلت الكتائب، والعذارى أرخين الذوائب ، فيها قنوان من البسر وألوان تعدى على

العسر . وتهدى الى اليسر فلم أر مدينة أحسن منها وضعا ولا أبدع ربعا ، ولا أسع مسالك ولا أعلى مبانى ولا أسمى مراقى ، ولا أجمل مراسم ، ولا أوضح معالم ، ولا أملح أزقة ، ولا أعجب روقا ورقة . ولا أحسن تفصيلا وجملة .

هى القصور البيض لا ما حدثوا　　عن أرم وغيرها ممن بنا
تخطف الابصار من لالائها　　والنيل قد ألقى القناع الاذكنا

فكأن محاسن الدنيا فيها مفروشة ، وصورة الجنة فيها منقوشة . كوكبها يقظان ، وجوها عريان ، وحصاها جوهر ونسيمها معطر ، وترابها مسك أذفر ، ويومها غداة ، وليلها سحر ، وكفاها أن ليلها كالنهار فى تصرف العباد ، واعادة مسائها كصباحها ، وهو غير المعتاد . وهل هى الاذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، ذكر المفسرون عن ابى ابن كعب فى قوله تعالى أرم ذات العماد : انها الاسكندرية ، فهى من أعجب البلدان ، وفيها بنيان عجيب ، ذكر صاحب الجغرافيا أنها بنيت فى ثلاثمائة سنة ، وان أهلها مكثوا سبعين سنة الا يمشون فيها بالنهار الا معصبين الاعين بخرق سود ، خوفا على أبصارهم من شدة بياضها ، وعلى منارها سرطان من رخام ، والمنار على أربعة أساطين ، وطوله ثلاثمائة ذراع وحيطان المدينة وسورها من رخام ، فيها قبة كانت لفرعون ، وفيها قصر سليمان قد تهدم وبقيت أثاره ، وبها أسطوانة تستدير الدهر كله ، وكان فى القديم على منارها مرآه كبيرة ، صنعها الحكماء ، يتطلع بها على القسطنطينية وبلاد الروم حتى احتيل فى انزالها ، فلم يستطع أحد على صرفها بهذا انتهى ، ومن عجيب صنعها أن بناءها تحت الارض كبنائها فوقها ، بل أعنق وأمتن ، لان الماء من النيل يخترق جميع دريارها ويتخلل جميع أزقتها تحت الارض ، فتتصل الابار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضا ، وعاينت فيها من سوارى الرخام وألواحه كثرة وعلوا واساعا وحسنا ما لا يتخيل بالوهم ، ولقد نلقى فيها سوارى

يقصد الجو بها لا يدرى معناها ، ولا لما كان أصل وضعها . ويذكر أنه كان عليها فى الزمن القديم مبان الفلاسفة ولاهل الرياسة والله أعلم ، ومن أعجبها وأعظمها عمود السوارى ، له قاعدة مربعة هو عليها ، عددت فى أحد جوانبها نيفا على أحد عشر شبرا ، وطالعت فى بعض التآليف أنه أعظم عمود على وجه الارض واقف على كنز من الكنوز ، وان طوله تسع وأربعون ذراعا بالذراع الكبيرة التى فيها ذراعان ، وانه لا يتزحزح عن موضعه ولو تساقطت عليه الجبال الشم ، ومن عجائب الاسكندرية أيضا المنار ، وهو بخارجها قد صعد كالبرج الاعظم فى عنان السماء أساسه كله معقود بالرصاص ، وبنيانه بالحجر المنجور الجافى يزاحم السماء سموا وارتفاعا قد وضعه الله تعالى على يد من سخره لذلك آيــة للمتوسمين ، وهداية للمسافرين يهتدون به فى البحر الى بر الاسكندرية ، ويظهر على أزيد من سبعين ميلا ، عرض أحد جوانبه الاربع ينيف على خمسين باعا ، ويذكر أن فى طوله أزيد من مائة وخمسين قامة ، والفيت فى بعض التآليف المعتمدة ما نصه : وذكر من عبد الله بن عمرو ابن العاص أنه قال عجائب الدنيا أربعة مرآة منار الاسكندرية كان الناس يجلسون تحتها غيرون من بالقسطنينة وبينهما عرض البحر ، وفرس من نحــاس بأرض الاندلس باسط يديه مقابل بكفييه أى ، ليس خلفى مسلك فــلا مسلك فلا يطأ أحد تلك الارض الا ابتلعته النمل ، ومنارة من نحــاس عليها راكب من نحاس بأرض عــاد ، فاذا كانت الاشهر الحرم هطل منها الماء فشرب الناس واستقوا وصبوا فى الحياض فان انقطعت الاشهــر الحرم انقطع ذلك الماء الى آخر ، وشجرة من نحاس بأرض رومة عليها زرزور مــن نحــاس سودانيــة فــاذا كــان أوان الزيتــون صفرت تلك السودانية من النحاس فيعصر أهل رومة ما يكفيهم من الزيت لادمهم وسرجهم فى كنائسهم الى عام قابل ، هذا الذى ذكره عبد الله بن عمرو بن العاص خبر مشهور موجود فى كتب الحكماء ، والمرآة التى كانت بمنار الاسكندرية صح خبرها بالتواتر خاصة ، وانما عمــل

الروم فى افسادها خوفا منها ، ولهذه المدينة من المدارس والمساجد ما لا يستوفيه وصف ذكر الهروى فى بعض تآليفه أن مدينة الاسكندرية احتوت على اثنى عشر ألف مسجد ؛ وذكر أبو الربيع بن سالم الكلاعى فى كتاب الاكتفاء له قال : كتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين فتح الاسكندرية ؛ أما بعد فانى فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف منية (68) بأربعة آلاف حمام ؛ وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية ؛ وأربعمائة حلة للملوك ؛ وعن أبى قبيل ، ان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية وجد فيها اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الاخضر (انتهى) ؛ الى غير ذلك من المعاهد والمفاخر والمشاهد والمآثر ، وفيها تربة بعض الانبياء عليهم السلام ؛ وتربة بعض التابعين رضوان الله عليهم أجمعين ، استوفيت زيارة جميعهم وترددت الى مبارك بقيعهم ، ثم عدت الى لقاء العلماء والاخذ عن الفضلاء فأول من لقيته بها من الائمة وحاملى الآثار والسنة الشيخ الفقيه الامام قاضى المالكية الاحق بالرتبة السامية السنية ؛ وجيه الدين أبو زكرياء يحيى بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن الامان بن خليفة بن أبى أرضين ابن تقين بن تامشت بن على بن رجاء بن عبد المومن بن ذى حى الصنهاجى اليزيدى المالكى ، هكذا أملى علينا نسبه ومولده فى الثالث من شهر ربيع الاول سنة سبع وستين وستمائة امام الفروع والاحكام ؛ والعالم بالحلال والحرام ، والمهتم بطلب العلم أعظم الاهتمام له رحلة قديمة وعى فيها الكثير ولقى الصدور الاكابر ، وحج نحو العشر حجج وجاور سنين وشغل زمانه بالعلم فاستفاد وأفاد ، فيه يقول صاحبنا ورفيقنا الكاتب البليغ الحافل الفاضل أبو اسحاق ابن الحاج (69) وأنشده اياهما بمحضرى :

68) فى الاصل مينة .

69) ابو اسحاق ابن الحاج رحالة مغربى ، ترك مؤلفا فى رحلة ابى عنان الى بجاية وبلاد الزاب ، به اخبار دقيقة عن دولة بنى مرين .

أضحى وجيه الدين أسبق سابــق   فى العلم والعلياء والخلق النزيــه
عجب الورى من سبقه وتعجبــوا   فاجبتهم لا تنكروا سبق الوجيــه

وهو رجل قد أجزل الله تعالى له الحظين : كمال الخلقه ووفــور القوة ، وسعة الدنيا ، ومتانة الدين ، سرى وسيم ، مسكى النسيم ، زكى المناسم فى المبدأ والقسيم ، طلق أسرة الوجه دمث جناب البر رقيق حاشية الطبع ، حسن الاخلاق ، وحسن الهيئة ، جميل اللباس ، سمح اللقاء مليح التأنيس ، حلو المحاضرة ، ذكى المعانى ، نبيل المقاصــد ، سهل الحجاب ، لين الجانب ، يقظ ، حاضر الذهن كأن خاطره جمرة تتقد ، سمعت عليه تآليف كثيرة بمنزله من الاسكندرية واجازنى الاجازة التامة المطلقة العامة وكتب لى بخطه . . . وجرت المحاضرة عنده فأجرى خيله ، وجر الحديث على المذكرة ذيله فاخبرته ان فى كتاب سحــر الشعــر . . . من لا يجد انفعالا عند سماع قول ابن عبد ربه القرطبى .

أشكو اليــك فلا دعائى يسمــع   يــا من يضر بناظريه وينفــع
للورد حــين ليــس يطلع دونــه   وأراه عنــدك كل حــين يطلــع
مــن لى باحور ما يلين كلامــه   خجــلا وسيف جفونه ما يقلــع
منع الكلام سوى اشارة لحظــــه   عنهــا يخاطبنــى وعنها يسمــع

فليتهم مزاجــه وليبادر علاجه « وفى كتاب » الاشعار بهــزات الاشعار « قول ابن عبد ربه » :

يــا لؤلؤا يسبــى العقول أنيقــا   ورشــا بتعذيب القلــوب خليقــا
ما ان رأيت ولا سمعت بمثلــــه   درا يعــود مــن الحياء عقيقــا
واذا نظرت الى محاسن وجهــه   أبصرت وجهـك فى سناه غريقــا
يــا من تقطع خصره من رقــة   مــا بال قلبـك لا يكون رقيقا

وفى كتاب « المطمح » ان أبا الوليد بن عتال لما انصرف من الحج اجتمع بأبى الطيب فى مسجد عمرو بن العاص بمصر ففاوضه قليلا ثم قال له أنشدنى لمليح الاندلس ، يعنى ابن عبد ربه فأنشده هذه الابيات ، فلما أكمل انشادها استعادها ثم صفق بيده وقال :

يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبوا (70) فتناقلتها عنى بالالسن الاقلام ، وكانت سببا لتأنيسى بأولائك الجلة الاعلام .

وممن لقيته بها من الامجاد، والعلماء النقاد، الشيخ العدل شرف الدين أبو البركات محمد بن الشيخ الامام العدل المرحوم فخر الدين أبو بكر محمد بن الشيخ الامام العالم المصنف شهاب الدين أبى محمد عبد الكريم ابن عطاء الله الجذامى الاسكندرى ، له حسب صميم ، وسلف فى العلم قديم ومنهج على السنة قويم ، وبيت له للعلم والدين تعظيم وتفخيم ، فلله ما هنالك من خيم ، ومنادى لا يدخله ترخيم ، ومنتهى لا يعـرف نحوه الا منطق دلق ولفظ رخيم . فهو كريم النجار ، كبير الكبار ، خير الاخيار ، طاهر اللذات ، فاضل الذات ، كامل الادوات ، كثير الآيات ، عالى الروايات ، عالم بالشرعيات ، واقف على الطبيعيات ، عف السريرة ، حسن الصورة والسيرة ، طريف المنازع ، ذكى المبادى والمقاطع ، سهل العبارة نبيه التنبيه والاشارة ، كأنه لطيمة مسك أو شهدة مشتارة . ذاكر الحديث والفروع ، سالك على ألسن المشروع ، عارف بعقد الشروط ناظم لتلك السموط ، عاقد مجيد ، باحث مفيد ، امام مفتى عالم مدرك عـدل مبـرز .

مـن معشـر أوصـافهـم كـالمسـك لـذ لمـن نشـق
فحـديـث آخـرهـم زكـا وحـديـث أولهـم عبـق

70) القصة مشهورة فى كتب الادب نقلها عن صاحب المطمح المغربى فى نهج الطيب ج 262 ص 9 (المطبعة التجارية الكبرى بمصر)

لقيته بدكانه من الشهود بالاسكندرية ، وجالسته كثيرا مغتنما لفوائد مجالسته ، متنعما فى حدائق مؤانسته ، وسمعت عليه وأجازنى اجازة تامة مطلقة عامة ، وكتب لى بخطه .

وممن لقيته بها من العلماء المسندين والاولياء المهتدين : الشيخ العالم شرف الدين أبو العباس أحمد بن أبى الحسن على (ن عبد العزيز ابن عبد الله الكتامى الشافعى ، الشهير بابن المصفى أرضاه الله تعالى: شيخ المعارف والفضائل وامام الاكابر ، وصدر المجالس والمحافل ، بدر الاشارة لسرى النوافل ، له المناقب الثواقب والمواهب السواكب ، والفوائد الفرائد ، والمناهج المباهج وله بالعلم عناية ، تكشف العماية ، ونباهة تكشف النزاهة ، دراية تعضد الرواية فكلامه تنثر طرفه (71) وتتهادى تحفه غارق لين المهاد ، ورافق العبادة والاجتهاد ، وانعطفت قناته وهبت بحركاته سكناته ، ذو خشية لله ومراقبة له كثير الدعاء دائم الصبرة شديد التواضع عالم صالح فاضل .

محامد فاز فى الدنيا بعاجلها وفى القيامة أجر غير ممنون

لقيته بمنزلة من الاسكندرية ، فسمعت عليه تصانيف جملة ، وتلقيت منه فوائد جمة ، وقرأت عليه بلفظى جميع كتاب الشهاب للقضاعى رحمه الله تعالى ، وحدثنى به عن شيخه سعد الدين عبد الرحمن بن حسن بن حمزة لجميعه من لفظه وسنده فى برنامج روايتى وحدثنى به أيضا عن الشيخ أبى البركات هبة الله بن زوير (72) الازدي الاسكندري اجازة ان لم يكن سماعا قال أخبرنا الشيخ أبو القاسم بن حمزة بن موقى السعدى الانصارى سماما عليه من المدارك سماعا عن المؤلف سماعا ، وسمعت عليه جزءا وافرا من كتاب موطا الامام مالك بن أنس رضى الله عنه ،

---

(71) سقطت من الاصل .

(72) (فى بعض النسخ) زوير .

وتناولته (73) أجمع من يده المباركة ، وله فيه علو زائد ، والبسنى خرقة التصوف ، وأخبرنى أنه لبسها عن الشيخ الامام القدرة شمس الدين أبى عبد الله محمد بن موسى بن النعمان الهذلى بسنده فيها ، وقرأت عليه بلفظى جميع الجزء المسمى تنبيه المذنب بالطير والحوت قبل أن يموت تأليف شمس الدين أبى عبد الله بن النعمان المذكور ، وحدثنى به عنه سماعا عليه ، ومما انفرد بالعلوفيه سماعه غير مرة لجميع القصيدة الفقهية فى الحجة والزورة (74) المحمدية على ناظمها الشيخ الامام الصالح مجد الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر البغدادى الواعظ رحمه الله تعالى وأولهـــا :

أيـــا عذبات البان من أيمن الحمى | رعى الله عيشا فى حماك رعينـــاه
سرقناه من ريب الزمان وصرفـــه | ولما سرقنا العيش منه سرقناه
وجاءت جيوش البين يقدمها القضا | فبـــدد شملا بالحجـــاز نظمنـــاه

وسماعه كذلك لجميع القصائد الوترية المضمنة مدح أشرف البرية لناظمها مجد الدين وأولهـــا :

أصلى صلاة تملأ الارض والسماء | على مـــن له أعلى العلا متبـــوأ
أقيم مقاما لم يقم فيـــه مرســـل | وأمست لـــه حجب الجلال توطـــأ
الى العرش والكرسى أحمد قد دنا | ونورهمـــا مـــن نـــوره يتـــلألأ

وقد قرأت جميع ذلك كله عليه بلفظى بمنزله المذكـــور ، وقرأت وسمعت عليه ذلك وأجازنى وكتب لى بخطه ومولده فى شعبان سنع تسع

73) المناولة من اصطلاحات المحدثين . هى نوع من الاجازة وطريقها ان يدفع الشيخ لطالبه اصل سماعه او فرعا مقابلا بأصله ويقول له قد اجزت لك فى روايته عنى.

74) فى بعض النسخ فى الحجة والترويـــة .

وأربعين وستمائة ، وأنشدنى فى غير مرة ، وقال : أنشدنى الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبى بكر الواعظ المذكور لنفسه :

حضرت فكنت فى بصرى مقيما   وغبت فكنت فى أقصى الفؤاد
وما شطت بنا دار ولكن   نقلت من السواد الى السواد

ومن لقيته بها من أهل المجادة ، والعلم والعبادة ، الشيخ العالم ، المسند سديد الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ العدل المرحوم عز الدين أبى القاسم عبد الرحمن بن الشيخ شهاب الدين أبى محمد عبد الوهاب بن الشيخ رضى الدين أبى عبد الله محمد بن الشيخ الامام الاوحد مفتى المسلمين جمال الدين أبى الماضى عطية بن المسلم بن رجا بن منصور بن جامع بن الحسن بن على التنوخى اللخمى الاسكندرى المالكى ، المشهور بابن عطية ، أوحد من برع فى العبادة والزهد ، وفرع ذروة العلم والمجد فجمع الله له بين العلم والعمل ، ومنحه من كل فضل بلوغ الغاية التى لا يقال معها لشىء كمل لو أن ذا كمل ، ووهبه شرف الخلال لجميع خلال الشرف ، وجعل سرفه فى الخير حجة على من قال لا خير فى السرف .

بيته أحد البيوت الرفيعة بالاسكندرية ، وله بها مزية الرفعة المزية ، عمر بالحسنات اناءه ، وتتبع بالقربات آباءه بانيا كما بنوا ، بل زائدا على ما أتوا ، وبادئا من حيث انتهوا ، فهو حبر الاكارم ، وبحر المكارم ، وتاج المفاخر ، وحجة المفاخر ، ودليل كم ترك الاول للآخر ، فمن سبر أحواله وخبر أفعاله وأقواله ، فقد رأى وشاهد ، وحمد ذلك المجد المشاهد ، ويا طالما لازمته فاجتليت شمسه العلية طالعة من شرقها ، وأنوارها الجلية ساطعة فى أفقها ، ولكم أقمت بها خطيبا وأرجت من ثنائها طيبا :

فآنثنى والثناء بأرج من عطفيه   طيبا لم يرض بالند ندا

لقيته بمنزله من الاسكندرية ، وسمعت منه حديث (الرحمة) المسلسل بشرطه ، وحدثنى فيه فى غير هذا ، وقد أخذت ، حديث (الرحمة) هذا عن جماعة كبيرة من أهل الاندلس وغرب العدوة وغيرهم، وخرجت سندى فيه عنهم فى مجموع كبير . سمعت عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أجزاء كثيرة منها جزء فيه مجلس من أمالى الحافظ أبى القاسم اسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندي ، وجزء فيه ثلاثة عشر حديثا مخرجه من كتاب للترمذى ، وجميع ما تضمنته الاربعون الكبرى الصحابية ، للحافظ أبى الحسن المقدسى من الاحاديث النبوية بأسانيدها والكلام عليها ، وهى سبعة أجزاء يجمعها مجلد واحد ، وجميع الاربعين حديثا على أربعين شيخا ، فى أربعين بابا ، لاربعين صحابيا ، وقد استوفيت جميع أسانيد ذلك كله فى برنامج روايتى فذلك موضوعها .

وأجازنى اجازة تامة مطلقة عامة ، وكتب لى بخطه ، ومولده رضى الله عنه خمسين وستمائة .

وممن لقيته بها من كبار المقرئين ، وخيار عباد الله الصالحين ، الشيخ المقرى الصالح فخر الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى الحسين يحيى بن السيورى أبقى الله بركته فخر السنة والملة ، وامام الائمة الجلة ، ولى الله الكريم عليه ، المنقطع اليه ، المشفع بالقراءة والتلاوة بين يديه ، مجد فى الزهادة ، متفرغ للعبادة متوكف ما وعد الله سبحانه للذين أحسنوا من الحسنى والزيادة ، نشأ على عفة وصيانة ، وأمانة وديانة ، فعظم الله شأنه ، ورفع بالعلم والعمل مكانته ومكانه ، وأعلى منار الهداية ورزق الناس الانتفاع به فى البداية والنهاية ، فازدحموا على مورده والمورد العذب كثير الزحام ، والتأموا بمعهده ، وحيث الحب يزدحم الحمام ، وأنشدوا لدى يديه :

لقد حسنت بك الاوقات حتى كأنك فى فم الزمن ابتسام

وللجمهور بالانسياح اليه والانسياب ، لهج الغياب بالاياب ، وطرب الشيب لذكر الشباب ، أخذ القراءة عن جماعة جلة وسمع الحديث

على رجال بأسانيد علية ، حتى انتهى رتبة أوائلها ، وانتهج طرق اعتنائها واعتلائها ، وفضائله كالصبح جلا الافاق ، والنجم أعقب الاخغاق لقيته بموضوع اقرائه من الاسكندرية فسمعت عليه مـن الحديث كثيرا ، وترددت اليه فانتفعت به انتفاعا كبيرا ، ومما سمعت عليه جزأ فيـه ستة أحاديث منتخبة من رباعيات الترمذى ، وفيها حديث واحد ثلاثى تخريج السيد الشريف تاج الدين أبى الحسن على بن أبى الحسن على ابن أبى العباس أحمد القرافى الحسنى بسماعه له قراءة مخرجه المذكور على الشيخ شرف الدين أبى عبد الله محمد بن عبد الخالق بن طرخان القرشى الاموري بسماعه بجميع كتاب الترمذى من أبى الحسن على بن أبى المكرم نصر بن المبارك المعروف بابن البناء قال أخبرنا أبو الفتح عبد المالك بن أبى القاسم عبد الله بن أبى سهل بن أبى القاسـم الكردوخى (75) سماعا عليه ، قال : أخبرنا المشائخ الثلاثة أبو عامـر محمود بن أبى القاسم الازدي وأبو بكر أحمد بن عبد الصمد الغوجى (76) وأبو نصر عبد العزيز بن محمد الترياقى قالوا : أخبرنا أبو محمد عبـد الـجـبـار بـن عـبـد الـلـه بـن أبـى الـجـراح الجـراحـى (77) قـال : أخـبـرنـا أبـو عـبـاس مـحـمـد ابن أحمد بن محبوب المحبوبى المروزي قال : أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، ومما قرأت عليهبلفظى جميع الجزء المسمى «بقضاء حوائج الاخوان واغاثة اللهفان » تأليف الحافظ أبى الغنائم محمد بن على بن ميمون النسرى الكوفى ، بحق سماعه على الشريف أبى الحسن على بن أبى العباس أحمد القرافى المذكور ، بسنده المرسوم على ظهر الجزء المذكور المنتسخ بخطى ، المصحح على هذا الشيخ الفاضل جهدى ، واجازتى اجازة تامـة مطلقة

---

75) (فى بعض النسخ) الكروخى (وفى بعضها) الكردوخى

76) (فى بعض النسخ) التورجى (وفى بعضها) الغروجـى .

77) (فى بعض النسخ) الجراجى (وفى بعضها) الجراصى

عامة ، وكتب لى بخطه ، ومولده سنة ثلاث وخمسين وستمائة بمصر بالفسطاط وأشياخه جملة منهم : أبو عبد الله بن طرخان المذكور . ومنهم الامام أبو عبد الله محمد بن الدهان ، والشيخ المقرىء صالح مكين الدين عبد الله الاسمر بن منصور العمرى ، ومنهم الشيخ كمال الدين أبو الذكر بن عبد القادر الدحراوى ، وغيرهم ممن يطول ذكرهم . رضى الله عن جميعهم ، ونفع بحبهم والترحم عليهم . وممن لقيته من العلماء المتجرين والحفاظ المصنفين : الشيخ المصنف نور الدين أبو الحسن على بن يونس بن عبد الله الهواري (78) التونسى حل كنف العلم والعلاء ، وجل قدره فى الجنة الفضلاء ، ولم يزل على كد الطلب أصبر من عود يجنيه جلب فقطع الليالى ساهرا ، وقطف من العلم ازاهر ، حتى ارتوى من المعارف سجله ، وعرف مكانه من العلم وفضله ، فأثمروا وأورق ، وغرب وشرق ، وجمع وفرق ، وتوغل فى فنون العلم واستغرق ، طلع على الابصار هلالا لان الغرب مطلعه ، وسما فى النفوس موضعه وموقعه ، وأدرك غاية المجد بقدمه ، وأفصح عن سر فضله لسان قلمه ، فجمع أشتات الفضائل ، ورفع ألوية الفواضل واجتلى شمس العلى بتلك الآفاق ، وشاهد فى طلوعها من مشرقها ما لها من الاشراق ، فلله دره بحرا لدرره الاسماع ملتقطة ، وروضا بزهره الاجفان مغتبطة ، فلا أزين من لقائه ولا أحسن من القائه ، ولا أفضل من معاملته ، ولا أجمل من مجاملته ، ولا أحلى من محادثته ، ولا أجلى من مناقشته ؛ لقى الشيوخ الاكابر ، وبقى حمده متعرفا من بطون الكتب والسنة الاقلام وأفواه المحابر كثيرا ما كنت أذكر بأوصافه ، وأفكر فى حمد يقوم بأوصافه ولم أدر أرد أم أرود ، وافد بقلمى على مجالس جود أو مجال سجود ، فأحشر اليه الالفاظ ، وأقوم بها فى مدحه أخطب من قس اياد بعكاظ لقيته بالاسكندرية فسمعت من لفظه جملة من تخميس أبى مهيب لعشرينيات أبى زيد الفزارى وتناولت جميع التخميس

78) فى بعض النسخ (الهواري)

79) (فى بعض النسخ) يجنبه (وفى بعضها) يجنيه .

من يده ، وحدثنى به عن الاستاذ أبى العباس النيلى (80) سماعا لجميعه عليه ، حدثه به عن الناظم ابن مهيب المذكور وسمعت عليه تفقها بعض كتاب التنقيح للامام شهاب الدين القرافى ، وحدثنى به عن المؤلف شهاب الدين المذكور عرضا منى لجميعه عليه وتفقها . وسمعت منه بعض شرحه لكتاب ابن الحاجب الاصلى (81) وبعض شرحه للتنقيح واجازهما لى ، واذن لى فى روايتهما عنه ، وأجازنى سائر تاليفه وجميع ما يعلمه ويرويه اجازة تامة مطلقة عامة وكتب بخطه . ومولده فى ذى الحجة من عام ثمانية وستين وستمائة ، وممن نغته بها من الرواة المتقين الله حق الثقاة الشيخ الفقيه العدل شمس الدين أبو عبد الله بن الشيخ الامام العلامة مفتى المسلمين كمال الدين أبى عبد الله محمد بن محمد عبد الرحمن القرشى الاسكندري حامى المجيزيين ، وحامل لواء العدول المبرزين ، ومجدد ملابس الثناء الثمين ، ومحرز عرائس الالفاظ لحفظ ذمم العالمين ، ذخر الدهر ، فخر القطر ، وسر العدا ، وآفة الجزر ، ومالك بيض الطروس وسمر السطور ، وبالبيض والسمر ، وقار ما مثله وقار ، ومآثر كأنها علم فى رأسه نار ، مفاخر طوالعها صبح ونهار . وشيم تتضاءل لها قطع الرياض ، وتحدث ولا حرج عن بحر الكرم الفياض ، وسجايا عريقة المجد ، ما جدة الاعراق ، خليقة بالمجد حميدة الاخلاق ، قد سقته العلوم زلالها ، ومدت عليه العدالة ظلالها ، وأحلته الجلالة جلالها ، وأرشفته الاصالة عذبها وسلسالها فعلا قدرا ولاح فى سماء السناء بدرا ، وصار لا ولئك الصدور صدرا ، وحق لمن أعلقت بهذا الشرف حبالته أن توارى أنوار الغزالة ذبالته :

شرف يطل على السماك وسؤد كالصبح لا يسع العدا انكاره

---

80) فى بعض النسخ ، النبلى

81) ابن الحاجب عثمان بن عمر بن يونس المعروف بابن الحاجب جمال الدين المصرى (570 — 646) له مختصر فى الفقه المالكى يسمى بالمختصر الفقهى والفرعى ، والجامع من الامهات ، تحدث عنه ابن خلدون فى (فصل الفقه) وعمن شرحه من علماء المغرب وعناية المغاربة به . (وفيات الاعيان ج 1 /395)

لقيتــه بالاسكندرية بحانــوت الوثيقــة ، وحيــث تأثلــت معارفــه تأثــل الروضــة الانيقــة ، فسمعت عليــه اجزاء كثيــرة وكبيرة ، ومنها جزء انتقى من الاخبار لابى بكر محمد بن القاسم الانبارى وسنده عنه مقيد فى أوله ومن أصله نقلته ، وعليه صححته ، وقد قرأته على غيره وسمعته ، واذن لى هو فى روايته وأجازنى جميع ما يحمله ويرويه اجازة تامة مطلقة عامة ، وكتب لى بخطه ، ومولده أول ساعة يوم الاربعاء ثانى جمادى الاولى سنة سبع وسبعين وستمائة ، وأنشدنى لامير المومنين على بن أبى طالب رضى الله عنه :

انمــــا للنــــاس منــــا حســــن خلــق ومــــزاح

ولنــــا مــــا كــان فينــــا مــــن فســــاد وصــــلاح

وممن تدمجت (82) معه وتمتعت به فيها صاحبنا الشيــخ الفقيه المحدث تقى الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن عوام الربعى الشافعى ، سبط الشيخ الولى الشهير أبى الحسن الشاذلى نفع الله تعالى به ، هو من كبار الطلبة الفضلاء ، وخيار السادة الفقهاء ، وسليل الكرام والاكابر والاولياء صالح أراك سيرة سلفه ، وأعفاك من كبره وصلفه ، واقتفى سنن مجده ، واقتدى فى جمل الفضائل بأبيــه وجده ، اماما مدرسا وعدلا مبرزا ، ذاكرا للعرب وانسابها ، حافظــا لغاتها وأدابها ، جذب من العربية أوفر نصيب ، وضرب فى الحديث (83) والفروع بسهم مصيب ، وشارك فى جمل فضائل وجمل مسائل ، وحصل من كرم الطبع وطبع الكرم على طائل ، مع افادته طلبته فى تدريسه ، ونصيحته لمستفيده وجليسه ، فلا فضيلة الا وفضل بحملها وحمــــل فضلها ، وكان أحق بها وأهلها ، واخانى وصافانى فتجاذبنا المذاكرة ، وتعاهدنا المراوحة للشيوخ والمباكرة ، وأفاد كل واحد منا صاحبــه بما تجلبه المذاكرة من وجوه الافادات وتفضل من المشاركة المباركة

---

82) فى الاصل ترجمت .. وهو خطــا

83) فى الاصل التحديث . .

وبذل الجد والمياسرة فى لقاء أولئك الافاضل ، والاخذ عنهم بما أوجب على ذكره معهم والحاقه بهم واضافته الى جملتهم :

حفظا على السؤدد الممنوع جانبه　　من أن يضام واشفاقا على الكرم

وسمعت عليهم بقراءته كثيرا ، وتحصل لى منهم بدلالته حفظا كبيرا ، وأجازنى الاجازة التامة وكتب لى بخطه وأنشدنى أناشيد كثيرة تقيدت فى غير هذا ، ومن ذلك ما أنشدنى ، وقال : أنشدنا شيخنا بخطه : أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان بلفظه ، قال : أنشدنا الفقيه الامام الاديب البارع ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ختام الدين دانيال بن يوسف بن معتوق الخزاعى الموصلى لنفسه :

ألا ان أرض الغرب أفضل موطن　　تساق اليـه الواخذات النجائب
ولو لم يكن فى الغرب كل فضيلـة　　لما حركت شوقا اليـه الكواكب

وأنشدنى وقال : أنشدنا شيخنا السيد الشريف عز الدين أبـو اسحاق ابراهيم بن نور الدين ، أبو العباس أحمد بن عبد المحسـن القرافى الحسنى قال : أنشدنا المحدث : أبو اسحاق عبد الرحمن بن مكى بن حمزة بن موقى الاسكندرى الحافظ اجازة قال : انشدنا الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن بن مكى بن حمزة بن موقى السعدى الانصارى من لفظه قال : أنشدنى الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ابراهيـم الرازى اجازة . قال : أنشدنى الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن بن المظفر ابن عبد الرحمن السلمى النحوى المعروف بالكمال لنفسه :

أسهـرتنـى شجنـا عليـك　　ونمت عـن شجنـى ووجـدى
وجعلتنـــى متقسمـــا　　مـا بيـن اعـراض وصـد
لا تـقـتلـنـى هـجـرة　　فيكـون قتلـى قتـل عمـد
واصـل فـان لام العـذول　　فقـل لـه واصلـت عبـدى

وأنشدنى قال : أنشدنا شيخنا عز الدين المذكور قال : أنشدنا الشيخ بهاء الدين أبو الحسن على بن أبى الفضائل هبة الله بن سلامة ابن مسلم الشافعى اللخمى سبط الشيخ أبى الفوارس الحميدى قال : أنشدنى الشريف الكوفى فى قدمته علينا بمصر قال : حضرت درس الشيخ محيى الدين محمد بن يحيى قال : فلما قضى درسه قام رجل غريب ليس من الفقهاء فأنشده بيتين وهما :

رفاة الدين والاسلام تحيى بمحيى الدين مولانا بن يحيى

كان الله رب العرش يلقى عليه حين يلقى الدرس وحيا

قال فنزع قميصه الاعلى وأعطاه اياه وأنشدنى قال : أنشدنى عز الدين المذكور قال : أنشدنى الشيخ بهاء الدين أبو الحسن على المذكور قال : أنشدنا الشيخ بهاء الدين الطوسى قال : أنشدنا شيخنا محيى الدين محمد بن يحيى لنفسه :

وقالوا يصير الشعر فى الماء حية اذا الشمس لاقته فما خلته صدقا

فلما التقى صدغاه فى ماء وجهه وقد لسعا قلبى تيقنته حقا

ثم قال لى : أنشدنى من شعر الاندلسيين ما (84) آخذه عنك واستفيده منك فأنشدته لابن بكر بن مجبر :

دع العين تجنى الحب من موقع النظر
وتغرس ورد الحسن فى روضة الخفر

امتعها فيه فان تك لوعة صبرت وما ذم العواقب من صبر

فتور العيون النجل يطلب بالهوى وان غفل التفتير لم يغفل الحور

---

84) سقطت (ما) فى الاصل .

وزائرة والليل مرخ رواقه ومن أين للظلماء أن تكتم القمر
حدرت قناع الصون عن صفح خدها فيا حسن ما انشق الكمام عن الزهر
وراودتها عن لثمه فتمنعت وما عادة الاغصان أن تمنع الثمر
رشأ كلما أدمت جفوني خده أشار الى قلبى بعينيه فانتصر
يطالبنى قلبى بتقبيل ثغره لقد غاص فى بحر الجمال على الدرر

وأنشدته لابى الحسين على بن سعيد :

ما بين ملتف الاراك غزال تجرى بجنة خده الجريال (85)
رشا كلما أدمت جفونى خده ويميل قلبى قده الميال
يملى علينا السحر من الحاظه ويسيل فى ألفاظه السلسال
قولوا له يا راحما عشاقه ان كان تنفع عنده الاقوال
ما باله يقسو ورقة خده ما هاجنى الا لها البلبال
ولحاظه رسل الى عشاقه أو ليس يعلم أنهن نبال

وأنشدته لابى محمد عبد الجليل بن وهبون :

ومهفهف بادى العذار كأنما عقد الغرام به على كتابا
لما استراب بما رأى من خضرة فى خده جعل الصدود نقابا
ملك اذا كلمته بضراعة صرف اللحاظ على الكلام جوابا
واذا نظرت الى محاسن وجهه ألفيت فيها رحمة وعذابا
ما كان أصبرنى لسيف لحاظه لو أنه يسقى الجريح رضابا

---

85) حمرة الذهب ، ولون الخمر ، « القاموس » .

وأنشدته لابى الحسن بن الزقاق :

وأغيد طاف بالكؤس ضحى　　وحثها والصباح قد وضحا
والروض أهدى لنا شقائقه　　وآسه العنبرى قد نفحا
قلنا وأين الاقاح قال لنا　　أودعته ثغر من سقى القدحا
فظل ساقى المدام يجحد ما　　قال فلما تبسم افتضحا

وأنشدته لابى الحسن بن حريق :

كلمته فاحمر من خجل　　حتى اكتسى بالعسجد الورق
وسألته تقبيل راحته　　فأبى وقال أخاف تحترق
حتى زفيرى عاق عن أملى　　ان الشقى بريقه شرق

وأنشدته لابى اسحاق ابراهيم بن سهل الاشبيلى الاسلامى :

يا لائمى ان مت فيه أتئد　　أو ما الى أجفانه تحتكم
غرقت فى بحر هواه وذا　　ك الردف منه موجه الملتطم

وأنشدته من نظمى بديها :

شكوت هواه الى ردفه　　وهل يسمع الموج شكوى الغريق
وأرخصت لؤلؤ دمعى به　　ولم أدر كيف يباع العقيق

فقال لى الآن حصحص الحق ، وها أنا أعترف للاندلسيين بالسبق ، فقلت له ليس المشارقة لاعترافك بمنكرين ولتجدن (87) أكثرهم شاكرين .

86) كذا بالاصل والصواب وجنته .
87) فى الاصل ولا تجد .

وفى صبيحة يوم الثلاثاء أول يوم من رجب الفرد المبارك من عام سبعة وثلاثين المذكور اجتمعت به مع أخى أبى بكر محمد وكان خروجه من بلدنا قنتورية المذكور أولا فى ضحوة يوم السبت أول صفر خمسة وثلاثين وسبعمائة فلما قضى الله تعالى حاجته وحجته ، وبلغه منها مراده وبغيته ، كر راجعا الى بلاد الصعيد والديار المصرية فقيض الله سبحانه من أوقع خبرى عليه ، وألقى جملته اليه ، فما راعنى الا دخول البشير على بقدومه ، واجتلاء غرته مع تسليمه ، فتلاقينا بالتحية وتلافينا وبكينا حتى ابكيناه ووالينا بحمد الله تعالى وأثنينا وكم لله من نعمة علينا ، وأنشدته على البديهة بيتى منصور الفقيه وهما :

على خير أوقات الزمان آيات   على الطائر الميمون والبركات

قدمت فقرت بالقدوم عيوننا   وقد كن أيام النوى قرحات

ولم نزل نسرح فى روض من ذلك الاجتماع ، ونشرح ما وجدناه من البعد والانقطاع ، الى أن تهيأ نفرنا ، وتأتى فى البر سفرنا ، فخرجنا من الاسكندرية فى يوم الثلاثاء ثامن يوم من رجب المذكور ، وسرنا فى بسيط من الارض عريض مرداه لا يخترقه النسيم بمسراه ، ويكاد البصر يقف عند مداه ، بين مدائن عليها نضره النعيم وبساتين اعتمارها من التعميم ، وسرحات مونقة ، ودوحات مورقة ، ونخلات طلع ، وخامات زرع ، تموج بدائعها موج البحر ، وتلوح طلائعها بين كتائب الزهر من لم ير أرض مصر فى أوان ربيعها ، وابان زروعها ، لم ير منظرا نضيرا الى أن وصلنا الى مدينة (القاهرة) فدخلناها فى آخر يوم الاحد الثالث عشر لرجب من العام المذكور فنزلنا منها بقرب الجامع الاعظم المشهور بجامع ابن طولون الذى بناه ابن طولون فيما يذكر على مثال المسجد الحرام بمكة المشرفة طولا وعرضا ، ولما أنبت كافور

الفجر من المسك الغياهب ، وظهرت الشمس المنيرة على الانجم الثواقب :

حمدت السرى اذ انزلتنى ربوعها وأيقنت أنى فى اغترابى موفق

وسرنا فى أقطار تلك الحضرة التى أرضها سندسية اللباس ، وروضها متنوع الجناس ، وروائحها عنبرية الانفاس ، ومنظرها يجلب أنواع الايناس ، فهى بغية النفس ، وغاية الانس ، ومنية الطرف ، ومسرح الظرف وسلوة الفكر ، ونبعة العلم والذكر ، وشغل الخاطر والذهن ، ومحل الهناء والامن :

ما عداها من جنة الخلد الا أننا لا ننال فيها الخلودا

رياضها تشرق ، وأطيارها تنطق ، وكأن بكل عود عودا يخفق :

وما كنت أدري قبل ذلك والهوى فنون ، بأن الروض يهوى ويعشق

وفتحت لى راحة القلب أبواب النزهة ، فأطلقت عنان طرف الطرف نحو الجهة فرأيت فيها من المبانى الهائلة والاسواق الحافلة والمساجد العتيقة والمدارس الانيقة والمرابع البارعة والمصانع الناصعة والازهار والاشجار الباهرة والاثار العامرة والجنود الوافرة والامم المتكاثرة ما تحار فى ذلك الاوهام وتكل دون وصفه الالسن والاقلام ، القاهرة وما أدراك ما القاهرة الظلال الوارفة والمياه الهامرة والارض الاريضة والروضات العاطرة منابر قام السرور فى منبر دوحها خطيبا ، ومشاهد بذت مغانى الشعب طيبا ، الى أغصان عقدت الجداول خلاخل بسوقها ، ولئالىء مثلت من الرياض بسوقها ، فمن حيث استقبلت تلك المدينة أشرقت وكيفما لمحت أساريرها برقت ومعلوم أنها قاعدة المشرق وأم المدائن ومقر الملوك ودار الطمأنينة ، قد كمل الله حضرتها ، وجمل نضرتها بأن قلد بها أمور المسلمين ، وخلد فيها العزو والتمكين للسلطان الناصر الدنيا والدين أبى المعالى محمد بن السلطان الملك المنصور قلاوون

الصالحى قسيم الملك أمير المؤمنين أبى الربيع سليمان بن الخلفاء العباسيين فاستمرت سلطنته الآن مدة من خمسين سنة فجاءت الدنيا فى أيامه غضة ، وزهرة الايام بهجة ، لما منح الله على يديه من الامن والسكون والدعة وظلال المسرة والهدنة فانسحب ذيل العز ، وانضرب رواق الامن ، وانسدل ستر العافية على الملأ والكافة والاقطار النازحة والغربية وخصوصا على هذه المدينة وما ظنك بمدينة عذب غيها البحر وفاض عليها من الجنة واستقبل بها النهى والامر وانحشر الناس اليها فخيل لرائيها الحشر :

وافى اليها النيل من بعد غاية   كما زار مشغوف يروم وصالا

وعانقها من فرط شوق بحسنها   فمد يمينا نحوها وشمالا

ركبت بحر نيلها العذب فى جملة وافرة من الصحب أخلاقهم أعذب من مائه وشمائلهم أرق من صفائه ، فاستوينا على جارية من تلك الجوارى المنشئات وسابحة فوق لجة الماء العذب الفرات وتحسبها جامدة وهى تمرمر السحاب وتنساب فى الحباب كالحباب ولما ضمت الينا ، ودخلناها وقلنا اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ولا فرش غير ريحان منضد ، ولا سقف غير كتان ممدد ، تمخر البحر ، فامتطينا بأجوقتها مطاه ، وتذلل فصفعنا بأجنحتها قفاه وسرنا فى منزهات تلك الاقطار الرفيعة الى أن قضينا أجمل الاوطار وتمتعنا من تلك المنازل الرفيعة بالحدائق الغضة والنسيم المعطار ، بحيث تضاحك الورد والبهار، وتفاوح الروض والعرار ، وأرضها مخضر نبت صاغ النور تاجه ، وحاك القطر ديباجه ، وسماؤنا ملتف أيك سال الماء لجينا بين أكنافه ، وحاك الزهر وشيا بين اعطافه ، فماء الندى مسكوب ، ورواق الظل مضروب ، والريح تصفق والغصن يتثنى ، والقبر يصرصر والبلبل يتغنى ، والطير قد تكلم ، والعود قد ترنم وقد خيم السرور ، وتضاعف بتضاعف النيل الحبور ، وبدا لنا يوم حسن ، وحسن يوم تمنت حسنه البدور .

يـوم لنـا والنيـــل مختصـر ولكـل يـوم مسـرة قصـــر
والسفن تغـذو فى الفرات بنـا والمـاء مرتفـع ومنحـــدر
فكـأنمـا أمـواجـه عكـــن وكـأنمـا دارتـــه ســـرر

أخبرنى هناك من أثقه من العلماء ، قال أخبرنى أحد كتاب السلطان انهم كتبوا وأحصوا المراكب الجارية فى هذا النيل المعدة لا يساق الزرع خاصة ، فألفوها تنيف على مائة ألف مركب ماعدا الزواريق الصغـار التى للصيد والركوب ، وغير ذلك فكأنها أكثر من أن تحصى وأخبرنـى الشيخ الامام القدوة شمس الدين الكركى قال عد الصاحب الوزير الملك الطاهر وأحصى الجمال الداخلة الى القاهرة بالماء فى كل يوم فبلغت مائتى ألف جمل ماعدا البغال والحمير والسقائين الذين بالزقوق وغيرهم فان ذلك شىء لا ينضبط ولا ينحصر وهذه الجمال المذكورة تحط بالمدينة فى كل يوم من أيام الصيف سبع آلاف وفى الشتاء أقل من ذلك ، قال وأحصى دكاكين السقائين المعدة للسقى بالقاهرة فبلغت ستين ألف دكان ما عدا السقائين الذين بالاكواز والاكواب فى الطريق والاسواق وغيرها ، ولو لم يكن للقاهرة ما تذكر به الا (المارستان) وحده وهو قصر عظيم من القصور الرائقة حسنا وجمالا واتساعا ما لم يعهد مثله بقطر من الاقطار أحسن بناء ولا أبدع انشاء ولا أكمل انتهاء فى الحسن والجمال وانتماء من قد نعمت أدواحه وخبت على خضر الاغصان وزرق الغدران أرواحه فلا غرو أن أمن ورقى ، ثم لما كسا وأطعم سقى ، آية نعمى وفت بالميعاد ، وحسنا مثلها يعد للمعاد قد رويت جوانحه الصادية ، وجمعت فى شرعته السارية والغادية ، فهـا هو غخره بادى الغـرر والاوضاح ، منبجس بالماء القـــراح .

متماثـل بالحسـن كيـف لحظته مـا شئت من أرض به وسمـاء
ينسـاب رونقـه فتحسب أنـه متسربـل بنسيجـه مـن مـاء

لمـا رأى فيض الـزلال أديمـه   طلب الغئور بـه مـن استحياء
فأراك دمعة ضاحك لـم تنحـدر   وتحيـرت فى مقلـة حـواء
أو ثغـر باسمـة تهلـل ظلمـه   وبـه مجاجـة ريقـة شنبـاء
ليس الذى يجرى هنالـك سلسلا   لكـن ذلـك ترقـرق الاهـواء

أخبرنى الشيخ العالم المؤرخ شمس الدين الكركى المذكور أنه يكمل فى كل يوم من المرضى الداخلين اليه والناقهين الخارجين منه أربعة آلاف نفس وتارات يزيدون وينقصون ولا يخرج منه كل من يبرأ فيه مـن مرض حتى يعطى احسانا اليه ، وانعاما اليه كسوة للباسه ودراهـم لنفقاته ، وأما ما يعالج به المرضى من قناطير الاشربة المقنطرة والاكحال الرفيعة الطيبة التى تسحق فيها دنانير الذهب والابريـز وفصوص الياقوت النفيس وأنواع اللؤلؤ الثمين فشىء يهول السماع ويعم ذلك الجمع الى ما يضاف الى ذلك كله من لحوم الطيور والاغنام علـى اختلافها وتباين أصنافها مع ما يحتاج اليه كل واحد ممن يوافيه ويحل فيه لفرشه (88) وعرشه من غطاء ووطاء ومشموم ومذرور وشبه ذلك مما هو معد على أكمله هنالك وما ليس مثله الا فى منزل أمير أو خليفة ، وقد رتب على ذلك كله من الاطباء الماهرين والشهود المبرزين ، والنظام العارفين ، والخدام المتصرفين ، كل ما هو فى معالجته موثوق بعدالته مسلم له فى معرفته غير مقصر فى تصرفه وخدمته ، ولو استقصيت الكلام فى هذا المارستان وحده لكان مجلدا مستقلا بنفسه اذ فى مبانيه الرائعة وصناعاته وتواريخه المذهبة ونقوشه العجيبة المنتخبة التى ترغل فى ملابس الاعجاب ، وتسحر العقول والالباب ، ما يفتن النفوس ويكسف أنواع البدور والشموس ، وتعجز عن وصف بعضها خطى الاقلام فى ساحة الطروس ، فما وقعت عين على مثله ولا سمعت بشبهه وشكله :

---

88) فى بعض النسخ فراشـــة .

تجاوز حد الوهم واللحظ والمنى وأعشى الحجا لالاؤه المتضاوىء
فتنعكس الافكار وهي خواسر وتنقلب الابصار وهي خواسىء

وفى مصر مارستان آخر على مثاله ولكن ليست حاله كحاله فما كل صهباء خمرة ، ولا كل سوداء ثمرة ، ولا كل حيوان انسان ، ولا كل مارستان :

وما كل دار اقفرت دارة الحما ولا كل بيضاء الترائب زينت .

وبها الاهرام القديمة المعجزة البناء الغريبة المنظر البديعة الانشاء كأنها القباب المضروبة قامت فى جو السماء ، ولاسيما الاثنان منها يقصر الجو بهما سموا واتساعا ارتفاعها مائة ذراع بالذراع الكبيرة من أحد أركانها الى الركن الثانى ثلاثمائة خطوة وست وستون خطوة وأقيمت من الصخر العظام تركيبها بديع الالصاق ، وهى محدودة الاطراف لا سبيل الى الصعود اليها الا على خطر ومشقة فتلفى أطرافها المحدودة كأوسع ما يكون بين الرحاب لورام أهل الارض بناءها لا عجزهم ذلك وبها كان يجعل الطعام فى أيام يوسف عليه السلام ، وعلى النيل رجل مبنى من صخرة فيه علامات لخروج النيل فى زيادته ونقصانه وقد وكل به قوم يتعاهدونه فاذا خرج سقى جميع ضياعهم ومزارعهم ومزارعهم وهم يزرعون على ذلك السقى ولا يحتاج زرعهم الى سقى آخر بقدرة السميع العليم ، ومخرج النيل من جبل القمر ولا يكاد يتوصل اليه أحد لبعد المشقة وطول المسافة وفى كتاب الاكتفاء ما نصه ، وكان عمرو بن العاص يقول ولآية مصر جامعة تعدل الخلافة وقال نيل مصر سيد الانهار سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب فاذا أراد الله أن يجريه أمر الانهار فأمدته بمائها وفجر له الارض عيونا فاذا انتهت جريته الى ما أراد الله سبحانه أوحى كل ماء أن يرجع الى عنصره انتهى ، ثم جلنا من مصر فى أعظم المصر ، وحللنا منها أكرم المحل واسنى القطر ،

واجتليناها أوضح من البدر عند الفجر وأعطر من الزهر غب القطـر فنسى كل ذى غربة وطنه وودان لو قطع فيها عمره وزمنه وكفاك منها قــول القائــل :

لعمرك مــا مصر بمصر وانمــا هى الجنة الدنيا لمــن يتبصـر
فأولادها الولدان والحور عينهــا وروضتها الفردوس والنيل كوثر

كنت أتردد بها الى المسجد العتيق الحافل الذى بناه عمرو بـــن العاص رضى الله عنه واليه ينسب اليوم فارى جامعا منيرا ومسجدا كبيرا له صحن فسيح وسوار حافلة ومقاصر من العود عجيبة وتواريخ مكتوبة بالخط الحافل المذهب كثيرة فمنها ما كان مكتوبا على المحراب ونصه بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليــوم الآخر النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا وسيدنا الامام المستضىء بأمر الله أبى محمد الحسن أمير المومنين أمر بتجديده الملك الزاهد الناصر المجاهد صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف وفقه الله تعالى لطاعته فى سنة ثمان وخمسمائة ، وفى داخل القاهرة شاهدت المشهـد العظيم حيث رأس الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو تابوت فضة قد بنى عليه بنيان محتفل يقصــر الوصف ويقف الطرف فيه ولا يحيط الادراك بــه مجلد بأنواع الديباج محفوف بأمثــال السوارى الكبار من الشمع الابيض موضوعة فى قواعد فضة خالصة ، ومنها مذهبة وقد علق عليه قناديل الفضة وصفف أعلاه كله بأمثال التفافيح ذهبا فى مصنع شبيه الروضة يقيد الابصار حسنا وجمالا ، فيه من أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع ما لا يتخيله المتخيلون ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون ، والمدخل الى هذه الروضة المباركة على مسجد مثلها فى الحسن والغرابة والترصيع البديع والامثال البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع والناس من لازدحام على هذا المشهد الكريم والاحداق به والانكباب عليه والتبرك به والتضرع لديه كل مرىء

هائل عظيم والامر فيه كبير يفوت التقدير ولكنا اختصرنا القليل من الكثير ، ووقفنا موقف العجز والتقصير ؛ (وبداخل القاهرة) أيضا شاهدت المشهد العظيم مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها فرأيت مسجدا عظيم الاحتفال قائما فى الحسن فيه من الذهب وأنواع الصنعة به يحصره العد ولا يجمع الا ذلك النضد ينتهى اليه الداخل بعد ثلاثة أبواب هائلة بديعة بين كل باب وباب فضاء واتساع تجرى بينها مياه غزيرة عذبة وفى قبلة المسجد باب من المسجد حافل فوقه مكتوب بالذهب هذا مشهد السيدة نفيسة بنت الحسين بن زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ؛ وفى داخله مسجد آخر أصغر منه جرما وأتم حسنا وأعظم اتقانا وصنعة ؛ وفى قبلته باب بديع الى قبة عجيبة تتوقد ذهبا وتلألأ جمالا تكل الافهام ؛ وتحار الاوهام فى تخييلها وتمثيلها . فمنها متشابهات فى النقوش ؛ ومؤتلفات ومختلفات فى الرقوش . وقد أنارت بالمضاوي ابهاؤها فتساوي صباحها ومساؤها ؛ وتحت هذه القبة الضريح المبارك حوله من الرخام البديع المجزع الغريب الترصيع وشبابيك العود البديعة التخريم وكواكب الفضة والذهب وقناديل التبر الخالص الابريز واستار الديباج الغريبة التطريز وسوارى الشمع الابيض المتناهية الغلظ الرائعة الصنعة على قواعد الذهب والفضة . ما يستوقف الاحداق حسنا وجمالا ويختبل الاذهان الثاقبة اختبالا وترف ظلاله على المشهد الكريم أموالا وشاهدت (بداخل القاهرة) أيضا المسجد المعظم حيث مشهد السيدة زينب (89) رضى الله عنها وهو على هيئة هذا المتقدم الذكر ونوعه وعلى بابه مكتوب هذا مشهد السيدة زينب ابنة الامام أمير المومنين على بن أبى طالب رضى الله عنهما ودخلت بخارج القاهرة المشهد العظيم المقدس حيث تربة زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وهو مثل ما تقدم من الصفة والترتيب ولهذا فى جملة أبوابه دفة من الحجر الصلد المنحوت لوحا واحدا أعددت فى طولها تسعة

(89) فى بعض النسخ شهد السيدة رقية وهو خطا .

أشبار وفى عرضها خمسة أشبار ، ثم قصدت القرافة وهى ما بين مصر والقاهرة بلدة كبيرة منفردة بنفسها مستقلة بأسواقها ومساجدها وهى احدى العجائب بما تحتوى عليه من مشاهد الانبياء صلوات الله عليهم وأهل البيت رضوان الله عليهم والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والاولياء ذوى الكرامات الشهيرة والانباء الغريبة نفعنا الله تعالى بحبهم وأفاض علينا من بركاتهم بمنه ، ومما رأيت فيها قبر أبى النبى صالح عليه السلام وقبر يعقوب أخى يوسف عليهم السلام وقبر آسية وقبر جماعة من أهل البيت رضى الله عنهم على كل واحد منها بناء حفيل بديع الانتقان عجيب البنيان عليها تواريخهم مكتوبة باسمائهم منها قبر على السجاد زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم وقبر القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد بن زين العابدين المذكور وقبر ابنه عبد الله بن القاسم رضى الله عنهما وقبر معاد بن جبل رضى الله عنه وقبر عقبة بن عامر الجهنى حامل راية النبى صلى الله عليه وسلم . وقبر أبى الحسن صانع مولى حديفة بن اليمانى رضى الله عنه وقبر عبد الله بن حذافة السهمى رضى الله عنه وقبر حليمة التى كانت رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر محمد بن أبى الصديق رضى الله عنهما وقبر أشهب وأبى القاسم صاحبى مالك رضى الله عنهما وعنه وقبر محمد بن مسعود بن محمد بن هارون الرشيد المعروف بالسبتى رضى الله عنه وقبر الرجل الصالح المعروف بالاقطع المغربى رضى الله عنه ، وقبر بنان العابد رضى الله عنه وقبر القاضى عبد الوهاب والقاضى الانبارى وقبر ورش المقرى وقبر شيبان الراعى وقبر الطبرى وقبر الرودبادي وقبر ذي النوى بن ابراهيم المصرى وقبر شيخه شقران رضى الله عنهم وقبر الرجل الصالح الزاهد المعروف بصاحب الابريق وقصته عجيبة فى الكرامة رضى الله عنه ، وقبر الناطق الذى سمع عند وضعه يقول فى لحده يقول : اللهم أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ، رضى الله عنه وقبر الصامت الذى يحكى عنه أنه لم يتكلم

أربعين سنة رضى الله عنه وقبر الجوهرى الواعظ رضى الله عنه وقبور أصحابه بازائه رضى الله عنهم ، وقبر أصبغ بن الفرج رضى الله عنه وقبر المزنى صاحب الامام الشافعى رضى الله عنهما ، وقبر عبد الله بن الحكم وابنه محمد رضى الله عنهما ، وقبور جلة لا يحصى عددهم الا الله تعالى ، وبقبلى القرافة المذكورة بسيط متسع يعرف بقبور الشهداء وهم الذين استشهدوا مع سارية رضى الله عنهم أجمعين .

وقفنا على رسم الديار فسلمنا　　وقلنا له يا رسم أين نأوا عنا

وجدنا بدمع كالرذاذ على الثرى　　فصم المنادى وانصرفنا كما كنا

وما ذلك الا أن ربع ديارهم　　به كالذى نلقى فقد زادنا حزنا

فلما يئسنا من جواب ديارهم　　نزلنا فقبلنا الثرى قبل أن رحنا

ومما شهدت من المواضع المعظمة مشهد الامام أبى عبد الله الشافعى رضى الله عنه وهو مسجد عظيم القدر ومتناهى الاحتفال ، مفرط الاتساع ، يصل داخله اليه بعد دخول أربعة أبواب هائلة حافلة بين كل باب وباب فضاء واسع ، ومدى بعيد ، والمسجد كله قبة كبيرة فائقة الحسن ، فائقة الصنعة ، نادرة الاختراع فيها من الذهب الخالص والتبر المسبوك ما يغشى الابصار ويذهل الالباب ويفوت وصف الواصفين قد حار فيها أهل حران وأربت على مبانى سجستان ونجران ، وصارت غاية فى السمو والاتقان وانعطفت بما يفضل معاطف التيجان الفائتة باقترانها لاقتران حواجب القيان ، وتحتها فى وسط المسجد المبارك الضريح المكرم له من الرخام المجزع ، الموضع والشبابيك المفضضة المذهبة الاستار ، المدبجة المطرزة ، والشمع الابيض أمثال السوارى العظام على قواعد الذهب والفضة ما يقصر عنه الوصف ، ويحار فيه العقل ، وبازائه قبور جله كرام ، وعند رأس المشهد المكرم سارية من الرخام الابيض منقوش بالخط الحسن ما نصه وان ليس

للانسان الا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزيه الجزاء الاوفى هذا قبر السيد الامام أبى عبد الله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد زيد بن هشام بن المطلب ابن عبد المناف جد النبى صلى الله عليه وسلم ولد رضى الله عنه سنة خمسين ومائة وعاش الى سنة أربع ومائتين ومات يوم الجمعة آخر يوم رجب من السنة المذكورة ودفن من يومه بعد العصر رضى الله عنه وارضاه آمين وعند منتهى القبلة من داخلها مكتوب فى الدائرة بالخط العجيب والذهب الرائق ما نصه بسم الله الرحمن الرحيم :

الشافعى امام الناس كلهم فى العلم والحلم والعلياء والبأس
أصحابه خير أصحاب ومذهبه خير المذاهب عند الله والناس
له الامامة فى الدنيا مسلمة كما الخلافة فى أولاد عباس

والسلام ، ومما كتب فى القبة المذكورة من نظم شرف الدين ابن عبد الله الدلاصى البوصيرى :

بقبر الامام الشافعى سفينة رست من بناء محكم فوق جلمود
وقد غاض طوفان العلوم بقبره فقل استوي فلك الضريح على الجودي

ومما أنشدنى هناك بعض الفضلاء لبعضهم رضى الله عنهم أجمعين :

زرت الامام الشافعى ولم أكن يوما زيارة قبره بالتارك
ووجدت مولاى الحبيب يزوره وظفرت عند الشافعى بمالك

وبازاء هذا المسجد العظيم مدرسة مختلفة الصنعة سامية المنية أعظم المدارس اتساعا واعلاها سموا وارتفاعا فيها من المنازل الرفيعة

والرواتب الموقفة ، والمياه الجارية ، ما يقر بالعين ويملأ اليد باليمين ويريك ذوائب الذهب فى سبابيك اللجين ، قرأت بها وبالمسجد الاعظم المذكور وسمعت من كتب الحديث النبوى تآليف جملة على امام ذلك المقام الشافعى المعظم ولى الله تعالى الكريم عليه المتوجه اليه الشيخ العالم الصالح تقى الدين أبى التقى صالح بن مختار بن صالح بن أبى الوارس الاسندي رضى الله عنه هو من أحد المتقين وعباد الله المخلصين قد سما بجلالة قدره ونبذ الدنيا وراء ظهره ، ووضع الله له البركة فى عمله وعمره ، فظل يقطع ليله مستعبرا ، ويهش للجميل مبتدرا ، عالما أنه سيحمد عند صباحه السرى فحافظ على السنن وانتهج أقوم السنن ، واعتصم من الطاعة باوقى الجنن ، حتى كأنه أبو حازم ، أبو الحسن ، له علو ومعرفة فى الرواية ، وامامة كبيرة فى العلم والدراية ، ومراتب علية فى الزهد والولاية ، وكرامتها عند الخالق أعظم الدرجات وأكرم العناية ، وقد حيل الله النفوس على مودته والقلوب على محبته وأنشدنى :

واذا أحب الله يوما عبده ألقى عليه محبة للناس

فما رمقه طرف الا وأحب أن يفديه بسواده ، ولا نال أحد دعوته الا ورأى بركتها فى نفسه وماله وأولاده ، نفعنا الله تعالى به ، وبالصالحين من عباده بمنه وقد أثبت سماعى عليه واستوفيته فى غير هذا ، واجازنى الاجازة التامة ، ومولده رضى الله عنه فى شهر رمضان المعظم من عام اثنين وأربعين وستمائة بمدينة اعزاز (بالعين المهملة والزاى قبل الالف وبعده) وهى من أعمال حلب ، ومن جملة ما قرأت عليه بلفظى بحيث ذكر وهو عال جميع الاربعين حديثا لابى بكر محمد بن الحسين الآجرى وحدثنى أنه سمع جميعها على الشيخ أبى العباس بن عبد الدائم بن نعمة المقدسى يوم الجمعة العاشر لربيع الاول سنة خمسين وستمائة بحق سماعه لها من الثقى بسماعه من أبى على الحداد بسماعه من

الحافظ أبى نعيم بسماعه من المؤلف أبى بكر الاجرى ، ومن جملة ما سمعت عليه جميع الاربعين حديثا البلدانية للحافظ أبى طاهر السلفى رحمه الله ، وحدثنى بها اجازة عن الشيخ أبى عبد الله محمد بن عبد الهادى بن قدامة باجازته من السلفى ان لم يكن سماعاه ولنطرز ذكر هذا القطر باسم سيده ووحيده شيخ الشيوخ امام الائمة ، قدوة الفقهاء نخبة النحاة والادباء ودرة العلماء الفضلاء ، وحجة العرب العرباء ، أثير الدين أبى الحيان (90) محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان النفزى الاندلسى الغرناطى ، هو من سفر عن بدر الكمال الزاهر ، وسجر ببحر الكلام الزاخر ، وحسر عن ساعد الجد فى اقتناء المعالى والمفاخر ، فشأى كل ذى شأو ومغرب ، وأوتى منه زمانه بكل بديع مغرب ، تبلج منه الافق الاندلسى الغرناطى عن غرة غار منها فلق الصباح المشرق ، واشتمل منه الجو المصرى والمجلس السلطانى على تحرير ، أقرت بفضله صناديد المشرق ، فكيف يوصف هطل غمام ، أو ينصف أفضل امام ، لا يدانيه لقس اياد ، ولا موئل منه لسحبان وائل ، وايم الله ان المسرف فى وصفه لمقتصد ، وغير الرامى فى تعريضه لمقتصد ، نجم نجم سعوده المؤذن بانجاز وعوده ، وابراز موعده ، فتنقل فى سماء السعادة بدر اوحل فى ذروة الاجادة صدرا ، وبلغ من فنون العلم وضروب الادب الى أعلى المنازل وأسنى الرتب حتى طار ذكره فى الافاق ، وسار متواترا على السن الرفاق ، وضربت اليه أباط الابل واجياد العتاق ، وشدت الى لقائه الرحال من أقاليم الشام واقاصى العراق ، فروى من بحوره العذبة ظماء الاكباد ، وغذى بأسرار علومه قلب الحاضر والباد ، وغير كثير ، فى وصف الاثير ، نثر الدر المنظوم ، ونظم الدر النثير ،

---

90) اثير الدين محمد بن يوسف بن على النحوي الغرناطى (654 — 745 ، دخل مصر ودرس بها النحو والتفسير وكان من الذين وطدوا قواعد المدرسة النحوية الاندلسية ، اشتهر بكتابة (البحر المحيط) المطبوع سنة 1328 . ولخصه برهان الدين الصفاقسى وشهاب الدين احمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبى الشافعى الشهير بالسمين .

دخلت عليه منتزهه الذى دنا له النيل ، فالزمان يخوله غيه يناء وينيل والدهر قد سفر له عن محياه ، والزهر قد تبسم له وحياه ، والطير بين يديه يخاطب اياها وتخاطب اياه ، فاقبل على بالبشر والترحيب ، ومهد الى ارجاء جانبه ، وأرانى بشاشة المحب عند لقاء الحبيب ، وتتبع أخبار الاندلس وأهلها ، وأعرب عن سيرها الحميدة وفضلها ، وأنشدنى من أبيات لـــه :

وبيننـــا نسب نرعى وان بعدت   لكوننـــا ننتمـــى فيها لاندلـــس

قرأت عليه بعض القرآن العظيم بالقراءات السبع بقراءة الامام أبى عمرو الدانى وبالادغام الكبير لابن عمرو بن العلاء وبقراءات يعقوب الحضومى جمعا بين روايتى روح ورويس عنه ، وأخبرنى أنه قرأ بحرفى الحرمين جمعا ماعدا من أول سورة مريم الى آخر القرآن على أبـــى جعفر أحمد بن سعيد بن أحمد بن بشير الانصارى شهر بالغزاز بسنده المشهور ، وقرأ عليه جميع كتاب التيسير ثم سمعه ثانيا عليه، واخبرنى أيضا أنه قرأ بالقراءات السبع على الشيخ أبى العباس أحمد بن علـــى بن عيسى بن عباس الرعينى الشهير بالطباع ، وأخبره أنه قرأ بهـــا على الخطيب الجليل المجاب الدعوة أبى محمد عبد الله بن محمد بن حسين العبدرى الشهير بالكواب ، وقرأ أبو محمد الكواب على الاستاذ الجليل أبى بكر محمد بن على بن حسون الحميدى على شريح بن محمـــد ابن شريح بسنده ، (وقرأ أيضا) بالقراءات السبع جمعا فى ختمـــة واحدة على الشيخ أبى الطاهر اسماعيل بن هبة الله بن المليخى بقرائنه للسبع على أبى الجود غياث بن فارس بن مكى اللخمى المنذري ، وقرأ أبو الجود على أبى الفتوح ناصر بن الحسين الزيدى الخطيب بمصـــر وقرأ أبو الفتح على أبى الحسن على بن أحمد الابهرى الصينى الضرير ، وقرأ على الاهوزى ، وقرأ أبو الفتوح أيضا على أبى الحسن بن يحيـــى ابن الفرج بن الخشاب المصري ، وقرأ على أبى العباس بن النفيس ،

وممن سمعت عليه وترددت اليه واحتلفت الى منزله واعترفت بفضله وتطوله ، الشيخ العالم الكبير تقى الدين أبو الحسن على بن عبد الكافى السبكى امام من أئمة الشافعية ، وعالم من كبار علماء الديار المصرية ومن يعترف له بالرتبة العلية ، ويرشح للخطة الكبيرة القاضوية له عدالة الاصل وأصالة العدل واصابة النقل ورزانة العقل وجزالة القول والفعل ومتانه الدين والفضل ، الى تحصيل وتفنن وتأصيل ، فى المنقولات والمعقولات وتمكن ونظر راجح وحفظ راسخ وتقدم فى التحديث والرواية عال شامخ ، كريم شهد له العيان اليه يعزى البيان ، ومن بحره يخرج الؤلؤ والمرجان ، الى آداب غضة وفضائل مرفضة ومساع كغرته مبيضة :

فمساعيه شهود أنه	خير فرع جاء من أكرم أصل

لقيته بمنزله من القاهرة فتراكمت على سحائب أياديه الهامرة وأسمعنى كل مسموع مفيد ولم أزل من كرمه الواكف كل يوم فى عيد ، ولما أكملت سماعى عليه واستوفيته لديه رسم لى الاجازة التامة العامة بخطه رسما كملت أوصانه وأوجبه فضله وأنصافه قرأت عليه كثيرا من شعر الامام أبى عبد الله الشافعى رضى الله عنه فاستحسنت منه قوله :

لما عفوت ولم أحقد على أحد	أرحت نفسى من هم العداوات
انى أحيى عدوى حين أبصره	لادفع الشر عنى بالتحيات
ولست أسلم ممن ليس يعرفنى	فكيف أسلم من أهل المودات

وممن سمعت عليه اياما وشفيت برى الرواية عنه أواما ، الشيخ العالم المحدث تاج الدين أبو محمد عبد الله بن على القلعى الاطفيحى أحد المشيخة الدين تقرط بحلى أنبائهم الآذان مصيخة فترشحوا للعلاء ، وتوشحوا بغر الحلى ، وكرعوا فى بحر علم لا تكدره الدلاء ، طلب العلم من صغره ، ولازم كبراء رجاله ، وعمر طويلا وروى وأسند كثيرا فتحلى

من علو الرواية أجمل حلية ؛ وأخذ عن جماعة من العلماء عليه فهو فـي الرواية وحيد عصره . وفريد دهره . مع مشاركة فى معارف أخـرى واستيثار فى جميع ذلك بالحظوة والاثر . واذا يراجعك الحديث فخـذ منه وحدث عن أبى ذر . لقيته مرار كثيرة وسمعت عليه جملا مفيدة . وكتاب شرف أصحاب الحديث للحافظ أبى بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيـب البغدادي . وسمعت جميعـه عليه بقراءة شيخنا معـين الديـن ابـن عبـد اللـه محمـد بـن فتـوح المصغونـى وبقصد الرواية عنها بحق اجازتهما من الشيخ أبى العز عبد العزيز عبد المنعم بن على بن نصر بن منصور بن هبة الله بن الصيقل الحرانـى النميري بسماعه عن أبى القاسم ضياء بن الخريف بسماعه من المصنف أبى بكر محمد بن عبد الباقى بن محمد الانصارى بسماعه من المصنف أبى بكر أحمد بن على المذكور واجازنى الاجازة التامة وكتب لى بخطه . سمعت بها أيضا . وقرأت على سوى من ذكرت . (ثم) خرجنا منها فى صبحية يوم الاثنين الثامن والعشرين لرجب الفرد من عام سبعة وثلاثين المذكور مستقبلين الارض الصحراء الجذبة القفراء حتى تحار فيها القطا . ولا تهتدي اليها الخطا ؛ ويعدم بها الماء . وتضن عليها السماء . ويغنى فيها الزاد . ويعيى بسلوكها العباد . نحدو بالجمال . ونخفض الاقتاب لرفع الرحال ؛ ونقطع بالسير موصول تلك الرمال . حتى اشرفنا على مدينة (غـزة) فدخلناها ضحوة يوم الثلاثاء السابع لشعبان المكرم من العـام المذكـور وقـد :

تبسم ثغر الزهر عن شنب القطر ودب عذار الظل فى صفحة النهر

فزينة الارض مشهورة . وحلة الروض منشورة . والبسيطة مدت بساطا مفوفا . واهدت مـن مطارف وشيها وزخارف نورها الطافـا وتحفـا :

فالجـو رقـراق الشعاع مفـرق   والمـاء فياض الآتـى معسجـد
والارض فى حلى الربيـع كأنمـا   قطـف الغمائم لؤلـؤ وزبرجـد

فأرحنا فيها تعب الابدان ، وسرحنا منها فى بلد من أحسن تلـك البلدان ، بلد حسنه يغقه من كان بليدا ، حتى يعود ـ لييدأ ، فسيحـة الساحة ، مستطيلة المساحة ، نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة ، ما شئت من منظر عجيب ، وجانب رحيب ، وبسيط خصيب ، وساحل قريب ، ومكان مؤنس لكل غريب ، يزهر بالحسن المحض ، والنور الغض، وناهيك بالشام ، شامة الارض كما قال عرقلة الدمشقى :

هذا هو الزمن الربيـع المونـق   والعيشة الرغد التى هى تعشـق
فعلام تصحو والحمام كأنهـا   سكـرى تغنـى تـارة وتصفـق
وتلوم فى حب الديـار جهالـة   هيهـات يسلوهـا فؤاد شيـق
والشام شامة وجنة الدنيا كمـا   انسان مقلتهـا الغضيضـة جلـق
من آسهـا لـك جنة لا تنقضـى   ومن الشقيق جهنـم لا تحـرق
سيما وقد رقـم الربيع ربوعهـا   وشيا به حدق البرايـا تحـدق
فى روضة ضحكت ثغور أقاحهـا   لمـا بكاهـا العـارض المتدفـق

فبتنا ببعض بساتنها وهناك جريان الانهار ، وحفيف الاشجار ، وتغريد الاطيار ، ما أذكر قول ابن حصن كاتب المعتمد بن عباد :

وما هاجنى الا ابن ورقاء هاتـف   علـى فنن بين الجزيرة والنهـر
مفستـق طـوق زوردي كلكـل   موشى الطلى أحوى القوادم والظهر
ادار على الياقوت اجفان لؤلـؤ   وصاغ على الاجفان طوقا من التبر
حديد شبـا المنقار داج كأنـه   شبا قلم من فضة مد فى حبـر

---

(99) شاعر دمشقى من شعراء صلاح الدين توفى سنة 567 ، (الاعلام)

توسد من فرع الاراك أريكـــه | ومال على طــى الجناح من النحر
ولمــا رأى دمعى مراقا أرابــه | بكائى فاستولى على الغصن النضر
وحث جناجيــه وصفق طائـــــرا | وطار بقلبى حيث طار ولا أدرى !؟

وأقمنا حتى بدا النور ، وتكلم العصفور ، وسرنا نحث السرى ، ونعاصى الكرا ، حتى ذهب الظلام وأشرفنا على مدينة الخليل عليه السلام ، وأشرقت لنا تلك الربا والاعلام ، فدخلناها فى ضحوة يـوم الخميس التاسع لشعبان المذكور فحللت منها قصرا عظيم البركة ظاهر الرحمة ، لائح الانوار ، كريم المئاثر ، والاثار ، ينبى عن الشام بطيب أنبائها ، وحسن آلائها . ورقة هوائها ، وبهجة بهائها ، وجدا جداولها ، وجنا جذاذلها ، وتضوع أريج أسحارها وتنوع بهيج أوهارها ، وريـا رياضها ورونق جواهرها وأعراضها ، وغرة أرضها وصحة هوائها وقلة أمــراضهـــــا :

بلاد بهــا الحصباء درو تربهـا | عبير وأنفــاس الرياح شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلـق | وصح نسيم الروض وهو عليـل

وقدمت والزمان فى عنفوانه ، والربيع فى ريعانه ، والروض فـى حسنه وأحسانه والزهر فى زهره وزهوه ، والطير فى شوقه ، ونشوه ، والدوح بالورق بين أوراقه فى جدوه ، والنوار قد شب وشاب ، والهزار قد لب ولاب ، والعندليب قد طرب وغنى ، والحبيب قد ظرف وتجنى ، وللاندية أنداء ، وللادوية أوداء ، وللصبا صبابات ، وللبيب لبانـات وللشمال شمول ، وللقبول قبول ، وللعرار شميم ، والباهر نسيم ، وللنرجس عيون وللورد وجنة . وللكمام أجنة ، وللغمام دجنة وللاقاح ثغور ، باسمة وللاغصان قدود ناعمة وللافنان فنون ، وللحديث شجون ولجبهة الغدير من حركة النسيم غضون ، ولهزة المساري اعطاف يقـال لهـا غصـون :

---

100) ن ، و 3 وجـلا جداولها (و ن 5) جنادلهـا .

والمـاء تحـت الغصـن مطـرد والغصـن فوق المـاء منعكـس

فآويت الى ايوان، ونزلت أحسن مكان، وأمكن احسان ، ثم دخلت المسجد الاعظم فرأيت من حسنه عجبا ، ومن بنيانه ما شئت فضة وذهبا ، لا تدرك مبانيه السامية ، ولا تلحق أثاره العالية ، له أبواب حافلة مـن الحديد وشباك منه بديع ، وبنيان بالرخام والاحجار العظام الهائلة المنحوتة الضحام ، عددت فى طول الحجر الواحد منها أربعة وثلاثين شبرا ، وفيها أكبر من ذلك وأصغر ، قد أسس ذلك المسجد العظيم عليها وبنى ظاهره وباطنه منها فجاء جامعا عجيبا واسع الساحة ، بديـــع الصنعة ، أحدق بجميعه سور جليل ، بناؤه من الصخر الجسيم ، قـد جمع الحسن والحصانة والعلو والمتانة ، يشرق بياضه على بعد المتأمل وكذلك حال المدينة منازلها وقصورها من الاشراق والبهجة التى تشوبها خضرة الحدائق الملتفة بها المكتنفة بساحتها ، وداخل المسجد الاعظم موجه القبلة بالرخام المجزع المختلف الالوان ، الغريب الترصيع الفائق الحسن قد أفرغ فيه الذهب المضروب والتبر الخالص افراغا ، وفى وسط المسجد الكريم ، التربة المقدسة تربة الخليل أبينا ابراهيم عليه السلام قد جن بها من الشماعات العظام المذهبة والاستار المكللة المطـــرزة والمصابيح البديعة المموهة كل حسن رائق رائع ، وامامه ضريح زوجه رضوان الله عليها وتجاه ذلك من الجانب الجوفى قبة أخرى عظيمة القدر متناهية الانتقان تحتها ضريح النبى يعقوب عليه السلام وأمامه زوجه رضى الله عنها وتحتها طبقة وقبة فيها ضريح النبى يوسف الصديـــق عليه السلام والاستار المدبجة والرسوم المذهبة بأسمائها المباركة على جميعها والله سبحانه وتعالى أعلم بصحة ذلك كله وما بين المسجد الكريم والقبة الجوفية صحن عظيم كبير جدا فيه فى المسجد أيضا هو مجتمع الواردين والمقيمين من الاغنياء والفقراء والامراء والكبراء للضيافـــة المباركة ضيافة لخليل عليه السلام فى كل يوم بعد صلاة العصر علـى توالى أحقاب الدهر وفيه حضرتها مع جملتهم متبركا بذلك ثم اختلفته

الى لقاء الفضلاء وأخذت عمن بذلك القطر المبارك من العلماء ؛ منهم شيخ الوقت سناء وسنا وعلما ودينا الشيخ العالم الصالح شمس الدين أبو عبد الله محمد بن كافل الشافعى رضى الله عنه شيخ العلم والوقار ومحل المناقب المغرسة فى أرفع البقاع وأمنع القرار وأهل المكارم السنية الانوار السنية الآثار نزيه الاحوال نبيه القدر زكى الخلال ما عرى من أثواب عفاف ولا تعطل من حلى برو انصاف له الحكم الظاهرة والنباهة الحاصرة والنزاهة التى أدعنت لها الدنيا وترجى لها الآخرة فما قيس ابن عاصم منه بأحلم ولا عبد الرحمن بن القاسم بأعلم ، ولا الاغلب ممن سالم بأجل فى النفوس وأعظم ولى القضاء بعدما أكره عليه وجذب راغم الانف اليه ، فلم يعلق به طبع ولا زال من الزهد والورع بمرءي ومسمع ثم نبذ الامر وخلاه ، وأسلمه لمن ولاه ، تخلى هو لعباده مولاه فهو الآن بذلك المسجد العظيم والمقام النبير الكريم لا يفتر من العبادة ولا يدخل منزله الا للعادة ، الله أكبر حين تسئله وحى على الفلاح . سمعت من لفظه هناك بين المنبر والمحراب أجزاء غير واحدة وأستفدت فى مجلسه غير ما فائدة وسألته عن أشياخه فأخبرنى أنهم جماعة كبيرة منهم الشيخ الزاهد أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد الرقى الشافعى نزيل دمشق رحمه الله تعالى سمع عليه كثيرا وأنشدنى لنفسه :

وصل الحبيب لسم الهجر ترياق — وقربه لاسير البين اطلاق
أما السلو فدين لا أدين به — وكيف يسلو عن الاحباب عشاق
أم كيف يجمل فى سلوى جمالكم — وبيننا فى الهوى عهد وميثاق
قلبى القريح عليكم حشوه حرق — ولوعة وصبابات وأشواق
لا غروان كان قلبى شيقا قلقا — قلب المحب الى الاحباب تواق .
ان أبعدونى فأهل للبعاد وان — هم قربونى فان القلب مشتاق

أنشدنيها عن ناظمها المذكور وكتبتها من أملائه وصححتها بعد قراءتى عليه ومن شيوخه أيضا الشيخ أبو الحسن على الواسطى قال لى وكان رحمه الله ما انقطع عن الحج والزيارة مدة حياته فسأله أهله أن يقيم معهم ويدع الحج سنة واحدة فلما عزم على ذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال له يا على عزمت على الاقامة عنا . فقال سألنى الاهل فى ذلك فقال له ان أقمت عنا أقمنا غيرك مقامك ، فلما استيقظ عزم على الحج والزيارة فى ساعته وسأل الله تعالى أن يجعل قبره ما بين الحرمين الشريفين فتوفى ما بين بدر وحنين رحمه الله تعالى ، وقد سمعت عليه أبعاض كتب كثيرة وتناولتها من يده وأجازنى الاجازة التامة المطلقة العامة وكتب لى بخطه .

ومنهم علم الاعلام وامام الاسلام الشيخ العالم الراوية شمس الدين أبو عبد الله محمد بن على بن أحمد بن ابراهيم الاموى القرشى هو الامام الذى رفعه العلم قبل شبابه وعرفه بركات ما مله الحميد وطلابه ومهد له من السعد فى نيل القصد رحيب مغناه وفسيح جنابه ، وسهل له آرابا وأوطارا ، ولم يزل مترسما من أشرف الافعال وأعرق الاقوال من معالم المآثر ومآثر المعالم ، وأعيان ذوى الاقدار والاخطار أعلاها مقدارا ، متسنما من مراتب الصفات وصفات المراتب أقصاها منالا ، وأسماها منارا ، مترسما من أخلاق المجد ومجد الاخلاق أزهارها نظارة وأنظرها أزهارا ، متحليا من الشيم الفاضلة بأنفسها دارا ، ومتحليا فى سعودها الشارقة بدرا متجنبا عن كل ما يعقب الاقبال على السعادات ادبارا ، محرزا فى ميدان طهارة الاردان خصل السباق ، متميزا فى عنفوان شبابه بحسن الخلق واحسان الاخلاق ، مثمرا لرأس مال العفاف ، ساحبا من حلله الضافية الافواف ، مقبلا على ما يزيد مجده مآثرا وآثارا الى رواية فاز بفريدها الثمين وعلقها ، ونام على ليل اهمالها وقام بحقها ودار حول قطبها ، ومرقى مطالع أفقها وأنعم بها سحا ومدارا الى علوم حديث اقتصر عليه مع أدواته الثابتة الفضائل الواضحة

الدلائل اختصارا ، وهصر أفنان خمائله الباسنل وقد تناءت مساقا
وتناهت ايراقا وأزهارا . وكرع فى مشارعها السلسبيلية ومناهلها
الزلاليـة . آمنا صدرا واصدارا وعطف على محلها المرغوع ، واستند
اليها استناد المحمول الى الموضوع . وأسند من حديثها الحسن الصحيح
لا المختلف الموضوع أثارا وأخبارا الى المنصب الذى أحسب مناه والمنسب
الذى أراه فى المحتد القرشى متمناه والبيت الذى قر على عمد المجد
قرارا ، متخذا للورع دثارا . وللزهد شعارا ، فاشتهرت فى الغابر
والسالف بفضلها التالد والطارف اشتهارا . وظهر فى الطهارة والنزاهة
علما يحمل نور الانارا . فعذب فى مشارعها مشربا وثبت فى مناكبها كبكبا ،
وسرى فى منازلها السعود كوكبا سيارا ، والى مكانة فى العلماء معروف
قدرها . مشاهد بتصديق خبرها الحسن خبرها . ذائع عرفها ونشرها
وجلالة فى الحسباء لا تنكر معارفها ولا تخلق برودها الفضفاضة
ومطارفها ، ولا يتقلص من ظلالها السابغة ممدودها ووارفها اعظاما
لمحلها الرفيع واكبارا . فحين ساغ له هذا المشرب الزلالى العلمى العملى
ورد وارتوى ، وعلم أنه ظفر من ضالته المنشودة وبغيته المقصودة بما
ابتغى . ونوى ، فألقى عصى التسيار فى مناهج لقاء أولى العلم الاخيار
واستقرت بعد النوى استقرارا ، وأقبلت على افادة العلوم . بين تلك المعاهد
الشريفة والرسوم بساحة سنية ورساخة علمية عالية منارا ، ساطعة
أنوارا متصلة عوائده الدينية وفوائده العلمية بقاء واستمرارا . فتجلى
الشك عن اليقين ، وتسفر عن مثل الصبح المبين أسفارا فيها هو محمول
من الترفيع والتعظيم على واجبه مكفول من البر والتكريم بمزيده
ومتعاقبه قد تجلت له صور الرعاية والمبرة شموسا وأقمارا ، وتحلت به
من ذلك الافق المقدس أزمانا وأعصارا ، متصلة الاشراق ومشرقة
الاتصال ليلا ونهارا :

كساها وقد عاش فيها المشيب ... برونق أيامها الاوله
فلا سلب اللـه ثوب البقاء ... عنه وهناه ما خوله

لقيته بالحرم الخليلي الشريف فسمعت عليه كثيرا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من الاجزاء والكتب فى فنون شتى وأجازنى الاجازة التامة المطلقة العامة وكتب لى بخطه ؛ وأشياخه جماعة كثيرة جدا ومولده رضى الله عنه بحلب المحروسة فى سنة بضع وستين وستمائة (101) خرجنا منها ضحوة يوم الاحد ثانى شعبان المذكور عشى ذلك اليوم بنفسه دخلنا مدينة بيت المقدس كلأها الله تعالى .

هى بلدة الافق المنير ونجمه ؛ والنجم الذي لا تمتطى صهوته وصلناها والليل فى سن الاكتهال وأيدينا ممتدة بالشكر لله تعالى والابتهال غوافينا مدينة واسعة الرقعة طيبة البقعة ؛ سامية الارتفاع ؛ مشرفة البقاع مباركة الاغوار والتلاع ؛ عذبة المراد ؛ منمنمة الابراد ؛ ممرعة الجنبات ؛ متنوعة النبات ممدودة الظلال ؛ مودودة الخلال ؛ مأمولة السعادة مسعودة الآمال ؛ ضخمة البناء ؛ واسعة الفناء ؛ تشهد لسكانها بالثراء والسناء ؛ قد أخذت من كل المحاسن نصيبا ؛ وفوقت الى هدف الفضائل سهما مصيبا وملئت ظرفا وأدبا وأوتيت من كل شىء سببا :

محل كأن الشمس تخجل كلما نضت ثوبها عن معطفيه مغيبا
تنم رياح الخلد منه لاهله وبضفح تسنيم ويرشح طيبا

ظل ظليل ؛ وماء سلسبيل ؛ تنساب مذانبه انسياب الاراقم بكل سبيل ؛ ورياضات تحى النفوس بنسيمها العليل تتبرح لناظرها بمجتلى صقيل ؛ وتناديهم هلموا الى معرس للحسن ومقيل ؛ فنزلنا منها منزلا بديعا قد عذب ماؤه ؛ وراق روضه ؛ ورق صفاؤه وهواؤه ؛ وتفسحت مساحاتها ؛ وتأرجت أرجاؤه :

---

(101) ن 2 وسبعمائة وهو خطأ .

وكـم مبسـم للاقحوانة حولـه مؤلفـه ريـق من الطل أشنـب

ولمـة حقـف لـم يرمهـا مخيـل مـن الريح يسرى أو من السرب يلعـب

يقـر بعينـى أن تفـىء ظلالـه وان يتثنـى دوحـه المتأشـب

وان كان لا يمضى النسيم بغصنه اذا اجتـاز الا خائفـا يترقـب

ثم قصدت الحرم الشريف ، والمسجد العظيم المنيف ، الذى بارك الله حوله ، وعرفت كل أمة فضله ، المسجد الاقصى موضع المعـراج والاسراء ، وكفى بهذا شرفا وفخرا ، فرأيت بقعة لها نور ، وفضـل مأثور ، وشرف معلوم مذكور ، ومسجد له حرمات ، ومقام تخطر فيه خطرات ، وتعرض مقامات ، ومحل تفيض عليه بركات . وتستجاب فيه دعوات ، ومكان يمكن فيه الالتفات ، وتقصر عنه الصفات ، وتكـل فى تصنيف محاسنة الياءات والالفات ، قد جمع شرف المقدار الى طيـب التربة وفضيلة الدار ، وشهرت مفاخره ، فأية البقاع تفاخره ؟ وراقت محاسنه فلا منظر يحاسنه ! وفاقت مئاثره جميع من يكاثره ، وأمتع بكل سليم الود سلم وحيا ، وأطلع نور البشر فى أفق المحيا :

كأنـه مـن حسنـه لـم يـزل يستخدم التوفيـق والا سعـدا

رسـت بجنـاه وعـلا سمكـه تطـاول الجـوزاء والفرقـدا

وهذا المسجد الشريف هو أعظم مساجد (1) الدنيا طوله سبعمائة وثمانون ذراعا وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعا فيكون تكسيره فـى المراجع المغربية مائة مرجع ، وسواريه أربعمائة وأربع عشرة سارية وأبوابه خمسون بابا يطيف به سور سعته ثلاث خطوات قد أسس

102) ن 4 رست بجنبـاه

2) راجع هندسة بناء المساجد الاسلامية فى المغرب وتأثرها نفن المعمار الشرقى الاسلامى والرد على من يزعم انها تاثرت (بالبازيليكا) الرومانية فى كتاب الحضارة المغربية عبر التاريخ . للحسن السائح .

بالحجارة العظيمة وألواحه الكبار المنحوتة الهائلة بنته الجن لسليمان عليه السلام والمفتوحة الآن من أبوابه اثنا عشر بابا كل باب منها له الوجه المنقش المحسن المرقش فيهـا باب مصفح بالعقيان واللجين مغمـد بهما قد قام على ما راق الابصار وأعجب النظار (ومنها باب الرحمة وباب التوبة بابان من الجهة الشرقية وروى المفسرون عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعن ابن عباس أيضا فى قوله تعالى فضرب بينهم بسور أنـه سور بيت المقدس الشرقى له باب يسمى باب الرحمة من بيت المقدس قال : كعب باطنه المسجد . وظاهره وادى جهنم وفى الجهة القبلية المسجد الاعظم الحافل الذى عليه اليوم اسم المسجد الاقصى فيه الخطبة والجمعة والمنبر الذى جمع الله فيه من كل ابداع عجيب واختراع غريب والمقاصر التى لا نظير لها غرابة صنعة وجود انشاء والسوارى المفضضة الملونة من ألوان شتى من حمرة قانية وصفرة فاقعة وبياض ناصع ومـن الجبرية (104) الحالكة الصافية ومن الخبرية المجزعة العجيبة البديعة كلها مطلية الرؤوس بالذهب الذائب والتبر الخالص وقد قامت بين يـد المحراب منتظمة ، بـه عظيمة جليلة منقسمة على أفنان معقـودة بأقواس محنية متراكبة مدخلة على ألوان شتى ، وتصنيف غريـب ، مذهبة ما دخلها فى التثمين والتسديد والتربيع بتذهيب مشجـر مورق بالذهب مصنف محكم قد رونق الحسن استتمامها واستوفت من حظوظ البراعة أقسامها ، لها منظر رائع ورواء لامع فتراها تشتعل ذهبـا وتستقل عجبا ، فيها تواريخ مكتوبة بالذهب فى أرض فيروزية (105) وفى أرض حمراء زنجفورية (وبأعلى المحراب) مكتوب بالذهب فى أربعـة أسطار ما نصه ، أمر بتجديد هذا المحراب المقدس ، وعمارة المسجد الاقصى

---

104) فى بعض النسخ الجبرية الخبرية وباقى النسخ الخبرية ، والخبر شجـر السـدر والاراك .

105) فى الاصـل بدارض بيروزيـة ،

الذى هو على التقوى مؤسس عبد الله ووليه يوسف بن أيوب المظفر الملك الناصر صلاح الدين والدنيا عندما فتحه الله على يديه فى شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وهو يسئل الله ايزاعه شكر هذه النعمة ، واجزال حظه من المغفرة والرحمة (وبشرقى) هذا المسجد متصلا بـه وداخلا فيه المسجد المبارك ، الذى بناه أمير المومنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبجوفه تربيعه خلفها محراب زكرياء عليه السلام ، ومكتوب عليه بالذهب يا زكرياء انا بشرناك بغلام اسمه يحيى ، وبخارج المسجد الاعظم من ناحية المشرق مسجد بقبتين ، يعرف بمسجد عيسى ، وفى شرقيه باب له مدارج كثيرة تفضى تحت الارض الى موضع كبير حسن كمسجد فيه مهد مصور من الحجر الصلد يذكر أنه مهد عيسى عليـه السلام ، وبغربيه مسجد حسن للمالكية يسمى بمسجد المغاربة تلاصقه من ناحية الغرب مدرسة حافلة تسمى الفخرية ، وبخارج المسجد الاعظم صحن عظيم كبير مثمر بأنواع الثمار والاشجار الكبار المختلفة الانواع ومن أكثرها الزيتون ، وفيه أجياب كثيرة ذكر عبد الملك بن حبيب بسنده أن عمر بن الخطاب لما قدم بين المقدس خرج رجل من أصحابه يستسقى فى جب سليمان وهو جب فى داخل المسجد فخرت دلوه فى الجب فنزل بها يستخرجها فبينما هو يطوف فى الجب اذا أتاه ملكان فأخذا بعاتقه فذهبا به حتى أدخلاه الجنة فجعل يسريان به فيها فكان كلما مرا بـه علـى شجرة لها ثمر يمد يده الى ثمرها فيؤخره الملكان حتى مرا به على شجرة ذات أغنان فمديده فأخذ ورقة واحدة فقال له الملكان لو ملكت يدك لسرنا بك الى يوم القيامة ثم انصرفا به الى الجب فخرج عنـد صلاة الظهر فأتى عمر فأخبره بالذى كان وضبط يده على الورقة فقال عمر ، أضمم يدك عليها ثم بعث الى كعب الاحبار فأتاه فقال يا أبـا اسحاق ! هل تجد فى علمك أن رجلا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يدخل الجنة ثم يخرج منها قال نعم يا أمير المومنين قال فهل تسميه قال نعم فهو شريك بن حماشة النميرى قال فانظر هل تراه فنظر كعبا مليا

ثم قال هو ذا فقيل لكعب صف الورقة قال نعم كانت مثل الكف العظيمة أشبه شىء بورق الزراقين يعنى الخوخ ففى بيت المقدس أثنا عشر جبا ، ليس فيهـا جب أطيـب ولا أعـذب ولا أبـرد مـن هـذا الجـب وهو يسمى ببير الورقة انتهى ، وفى هذا الصحن ساقية مـاء تأتـى من مسافة شاقة ومهوى بعيد من الارض قطعت لها الجبال وصدعت لها الصخور الجليلة صدعا بالمال الجسيم والايدى الشديدة حتى أنصبت منها المياه على المسجد الاقصى فاروت وأغدقت وفاضت وأفضت الى (خســة) من رخام كبيرة أمام المسجد الاعظم فى وسطها فوارة يجرى فيها الماء (وفى وسط هذا الصحن) صحن آخر عال مرتفع يصعد اليه بأدراج عالية كثيرة من جهات ثمانية وهو مفروش بالرخام الابيض وفى وسط هذا الصحن الاخير المرتفع القبة العظيمة القدر الكبيرة الخطر التى كان محاسن الدنيا مجموعة فيها ومحصورة فى نوحيها فهى من أعاجيب الدهر وأحسن ما يرى بالبصر ويتخيل فى الفكر (قبة الصخرة الكريمة) وهى مصنوعة من قبة مثمنة الحائط والاركان من داخلها وخارجهـا مستوية السقف ، اعلاها ذهب مضروب فى صنائع عجيبة وجوانبها كلها من داخلها ملبسة بألواح الرخام المنثور الملصق الصاقا محكما مخططا بالخطوط الكحل تخطيط القدرة الربانية فجاء منها خواتم عجيبة وطوالع مختلفة الصناعة غريبة ، وفى وسط هذه القبة المثمنة المستوية السقـف قبة أخرى قد بعد فى السماء مرتقاها حتى تساوى ثراها مع ثرياهـا وجازت الجوزاء سمتا وعزلت السماك الاعزل سمكا وارتقت فى الهوى وأسرت الى السماء النجوى ، وانتهت فى الحسن الغاية القصوى فكأنما صورت جنة الخلد واشربت حبة القلب وأوسعت قرة العين ، ونقشت فى عرض الارض وأبرزت فى الابريز الخالص المحض قد اتفق الذكر فيها وضرب المثل بتناهيها ، وبلغ الخاصة والعامة خبرها وبعد فيهم ، صيتها وارتفع ذكرها وعظم خطرها وتوافى الناس اليها من البعد والقـرب والشرق والغرب متأملين لها متعجبين من مونق مرعاها ورونق سناهـا

والتقى رجال برجال قد دخلوا البلدان واستبدلوا الاوطان وجالــوا فى الامصار وجابوا فى الاقطار فأقسم كل وحد منهم بجهد قسمه أنه ما رأى لتمام محاسنها تماما ولا بثانق ما انتظمته مطالعها انتظاما ولا بعجيب ما تضمنه ايواؤها ، ومنحتــه أفناؤها فى النقوش السرية ، والصنائــع السنية التى لا يبلغها نقوش أهل الهند ولا تنتهيها نمنمة (106) أهــل الصــين تدركها رقوم أهل رهــا ، ولا تساميها دباسج تستــر ولا يقارن بها وشى صنعاء ولو لم يكن لها الا السطح المدد المشرف علــى الصحن الكبير والقبة وعجائب ما تضمنته من انتقان الصنعة وفخامــة الهمة وحسن المستشرق وبراعة الملبس والحلة ما بين مرمر مسنــون وذهب موضون ، وعمد كأنها أفرغت فى القوالب ، أو أعيرت ملمس النضار الدلامس ، ونقوش كقطع الحياض ، وتشجير كألفات الرياض ، يتسنم بين ذلك كله أنه سنام الدنيا ، سلسل برود يفرغ أمامه من تماثيل عجيبــة الاشخاص فى خوابــى رخام تهد الجبال ضخما ولا تهتدى الاوهام الى سبيل الالفاء بها ولقد أخبرنى الشيخ العالم القدوة شمس الديــن الكركى قال بلغت زنــة الرصاص الذى على سقف قبة الصخرة هــذه ثلاثين ألف قنطار بالدمشقى وهو بالمومنى مائة ألف وعشرون ألف قنطار كاملة ، وذكر عبد الملك بن حبيب رحمه الله ان عبد الملك بن مروان بنى القبة على الصخرة وجعل على الجانبة التى أعلا القبة ثمانية آلاف صفيحة من نحاس مطلية بالذهب فى كل صفيحة سبعة مثقال وأغــرغ على رأس الاعمدة مائة ألف مثقال ذهبا وفى وسطها مكتوب بالذهب فى أرض سماوية لا زوردية على الدائرة ما نصه : ــ بسم الله الرحمــن الرحيم ــ أمر بتجديد تذهيب هذه القبة الشريفة مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد المؤيد من السماء ناصر الدنيا والدين

---

106) 1 و 3 غنيمة اهل الصين والنمنة هى خطوط متقاربة شبه ما تنمنم به الريح من دقاق التراب .

محيى العدل فى العالمين وظل الله فى أرضه القائم بسنته وفرضه محرر ممالك الدنيا ومظهر كلمة الله العليا مشيد أركان الشريعة الشريفة ، سلطان الاسلام الشهيد الملك المنصور قلاون تغمده اله برحمته وذلك فى شهور سنة ثمان عشرة وسبعمائة وتحت هذه القبة العجيبة الصغرة الشريفة التى هى كالجبل الراسى والطود العظيم معلقة وسط الفضاء بين الارض والسماء لا صعودا ولا نزولا ، انما يمسكها الذى يمسك السماوات والارض أن تزولا ، وقد انصنع بهذه الصخرة الشريفة والبنيان الدائر بها نوع مغارة كبيرة تفضى اليها ادراج جملتها خمسة عشر درجا وفيها سطح مفروش بالرخام المجزع المختلف الالوان البديع الصنعة وهو موضع مبارك للصلاة ، وفى الطرف القبلى من الصخرة الشريفة أثر قدم النبى صلى الله عليه وسلم يتبرك به الناس ويمرغون خدودهم فيه وقد طاف بالصخرة الشريفة شباك من العود ، وبعده شباك ءاخر من الحديد ، ثلاثة أبواب وبين الشباكين فضاء واسع للصلاة ، وللقبة المثمنة أربعة أبواب فالباب الجوفى منها يسمى باب الجنة وبأعلاه مكتوب بالخط الحسن هذا باب الجنة وبأعلى الباب الثانى منه لوح نحاس كبير مكتوب فيه بالنقش المحكم ما نصه : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى لا اله الا هو الحى القيوم لا شريك له الاحد الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفؤا أحد ، عبد الله ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون آمنا بالله وبما أنزل على محمد وبما أوتى النبئون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، صلى اله عليه وسلم على محمد عبده ونبيه والسلام عليه ورحمة الله وبراكته ومغفرته ورضوانه ، مما أمر به الامام المامون أمير المومنين أطال الله بقاءه فى ولاية أخيه أمير المومنين أبى اسحاق ابن أمير المومنين الرشيد أبقاه الله وجرى على يد صالح بن يحيى مولى أمير المومنين فى شهر ربيع الاخير سنة ست عشرة ومأتين ، وأعلى الباب الثانى من الباب الشرقى لوح آخر من

نحاس أيضا مكتوب هذا النص المذكور بجملته ، وأمام باب الجنة المذكور قبة تغشى النواظر بشعاعها وتخطف الابصار بالتماعها تسمى قبة السلسلة التى كان يحكم بها داوود عليه السلام وهى قبة عجيبة قامت على أسوار مختلفة وصناعة على الحسن مشتملة بوسطها تاريخان مكتوبان بالذهب أحدهما فى أرض خضراء زرعية ونصه : بسم الله الرحمن الرحيم وداوود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما وعلما ؛ كمل تجديد بطن هذه القبة السلسة المباركة ونقش سقفها وتبليطها فى شهور سنة ست وتسعين وخمسمائة ، وفى الركن الغربى (108) من هذا الصحن المرتفع المذكور مسجد فيه قبتان منتظمتان عجيبتان فيهما رسوم مذهبة وتواريخ مختلفة أقربها عهدا وهو ما نصه : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وصلواته على خير خلق الله محمد وءاله وصحبه ، أما بعد فما زالتهمم ملوك الاسلام تتناصر على اثبات مفاخر يبقى ذكرهم ببقائها وانشاء محاسن يباهون الامم ببهائها ، فيحيون رسوما طالما نسجت عليها العناكب . ويرقمون على صفحات الايام من الخيرات رقما تتشرف اليه الكواكب فتظل عيون الامانى بمآثرهم قريرة وأعواد احبالهم بمفاخرهم مورقة نضيرة أعطاهم الله قدرة فصرفوها الى رفع اقدارهم ، وأتاهم الدنيا فلم يتركوها غفلا من محاسن ءاثاهم :

(فتراهم دون الرجام وذكرهم   باق بها فكأنهم أحياء)

فلله در فتى تبقى مساعيه بعده مشكورة ، ومناقبه ما بقيت أثارهم مذكورة ، ولما تشعت السقف الذى كان أنشأه الملك المعظم الواقف المذكور رحمه الله انتدب لاحيائه عبد الله الفقير اليه أسد الدين

____

108) ن 2 والركن المغربى .

عبد القــادر سبط الواقف بحكم ما اليه من النظر الشرعى فى أوقاف جــده فجدده وبذل وسعه وطاقته فيه ابتغاء مرضاة الله تعالى وكان الفراغ منه فى ربيع الاخير سنة تسع وعشر (109) وسبعمائة مـــن الهجرة النبوية وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، وفى الجهة الغربية ثلاث صوامع واسم المأذنة أو المنار أحق من اســم الصومعة لان ــ الصومعة هى التى للراهب وهى بفتح الميــم . وفى الجهة الغربية والجوفية قباب مختلفة تركت وصفها اختصارا ، منهــا قبة الركن المشرقى الحافلة وقبة المعراج وقبة الميزان الرخامية وقبة موسى البديعة وقبة سليمان الرائقة وفى كل مسجد من تلك المساجد ومدرسة من تلك المدارس ، وقبة من تلك القباب امام عاكف به قائم عليه ، ولقد عددت مواضع الاشفاع وصلاة التراويح بها فى شهـــر رمضان المعظم فألفيتها نحو الاربعين موضعا وفى الجهة الغربية مــن الصحن الكبير المثمن مدرسة عجيبة غريبة الشكل غزيرة المياه حافلة الصنعة بابها ملاصق لباب الحرم تسمى الذنقيدية . ويسكنها الصوفية وقد حف بها من الرسوم المذهبة العجيبة والخطب الادبية الغريبــة والالفاظ البعيدة القريبة كل من أتى بالعجب، وسفر عن الحسن المنتخب ووجب أن كتب هناك بذوب الذهب ، اخترت أخصرها ونقلت أيسرها ، فكان الذى ارتضاه الاختيار واقتضاه الاختصار ما قيدته من مبــاح الطبقة العليا ونصه : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى رفــع لبيت المقدس فى سائر الملل ذكرا ، وفضله على أكثر البقاع شرفــا وفخرا ، وجمع القلوب على محبته تعظيما لرتبته، وقدرا، وأسرى بخير خلقه اليه ثم أنزل عليه صلوات الله عليه ، سبحان الذي أسرى ، فيــا بشرى لمن بنا لله فيه بيتا ولو كان شبرا ، ويا أسعد (110) من اسدى للناس فيه ثوابا وبرا ، لقوله تعالى وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه

---

109) ن 2 ستــة عشــرة

110) ن 2 وباويــح

عند الله هو خيرا وأعظم أجرا ، فأى خير أعظم من انشاء هذا المكان وبناء هذا الايوان . الذى باب الرحمة مفتوحا بين يديه . والطور (111) أمامه والشجر تحت قدميه . والجامع الاقصى كالقمر ناظر اليـــه ، والصخرة الشريفة كالشمس مقبلة عليه ، وهو كالهلال قد ظهر بـــين الشمس والقمر .

ما الشمس ما البدر فى لالاء بهجته   فى كل ناحية من وجهـــه قمـــر

أرجو لبانيه ، أن يعطى أمانيه . وأن يفوز من الملك الجليل بالعطاء الجزيل والثناء الجميل والظل الظليل وحسبنا الله ونعم الوكيل . وهذا الطور المذكور جبل عظيم منه رفع عيسى عليه السلام الى السماء فيما يذكر . وهو بشرقى هذا الحرم العظيم فيه تلعة مباركة فى أعلاها مسجد شريف حافل مؤسس بالسوارى الحسنة الضخمة والرخام الابيـــض الصافى والحجر المنجور الجافى (112) يقصده الناس تبركا ودونـــه بيسير قبة مباركة يفضى اليها ادراج تحتها تربة الصالحة الولية رابعة العدوية رحمها الله تعالى ودونها على بعد قبة كبيرة مختلفة فيها تربة مريم عليها السلام تفضى اليها ادراج هابطة الى التربة الكريمة عددت فيها ثمانية وأربعين درجة وفى هذه المدينة الكريمة بقاع طاهرة عليها بركات ظاهرة وبها قبور الانبياء صلوات الله عليهم وأثارهم نفع اللـــه بالقصد والنية فى زيارتها برحمته وما هذا الذى ذكرت من وصف تلـــك المشاهد الشريفة الذكر . والمساجد العظيمة القدر . والمعاهد الكريمة الفخر الا كالنقطة الواقعة فى البحر ، والذرة الساقطة فى القفر ، والشرارة من الجمر . ولما لاحت نيرات هذه الانوار . وفاحت نسيمات تلـــك الاسحار ، وشاهدت احد المساجد الثلاثة التى لا تشد الا اليها الرحال وعاينت الحرم الشريف حقيقة قد أحلنى لديه الترحال ، اخترت مجاورته

---

(111) ن 2 والطـــور
(112) 3 المنجـــور الجابـــى .

وأثرت ملازمته وقلت أين أذهب عن موطن مهبط الرحمة وموضــع محشر الامة ، ومحل تفرج الكربة والغمة ، حدثنى الشيخ الفقيه القاضى شمس الدين عبد الله محمد بن سالم بن عبد الناصر الكنانى الغربى الشافعى قاضى مدينة بيت المقدس حرسها الله تعالى سماعا منى عليه بحرم المسجد الاقصى الشريف بقراءة شقيقه الشيخ الامام الاوحد ، علم الدين أبى الربيع سليمان وبقصد الرواية عنهما ومن أصلها نقلت، قالا حدثنا الشيخ الامام المحدث علاء الدين أبو الحسن على بن ابراهيم ابن داوود العطار رحمه الله . قال الاول منهما ، سماعا عليه فى رجب سنة أربع وعشرين وسبعمائة وقال الثانى قراءة عليه فى يوم الجمعــة ثانى صفر سنة سبع عشرة وسبعمائة بدمشق المحروسة يرفعه الى أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد الرســول ، والمسجد الاقصى ، رواه البخارى ومسلم ، ولمسلم قال نما يسافــر الى ثلاثة مساجد الكعبة ومسجدى ومسجد ايلياء وبهذا السند الى أبى العطار يرفعه الى ذى الاصابع رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم رضى الله عنه ، قال قلنا يا رسول الله أرأيت ان ابتلينا بالبقــاء بعــدك أين تأمرنا . فقال فعليك ببيت المقدس فعسى الله أن ينشىء لك ذرية يغدون الى ذلك المسجد ويروحون . وبه عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ، من زار بيت المقدس محتسبا لله عز وجل حرم الله لحمه وجسمه على النار . وبه عن أبى الدرداء عن النبى صلــى الله عليه وسلم انه قال : أفضل صلاة فى المسجد الحرام على غيره مائة ألف صلاة وفى مسجدى ألف صلاة وفى بيت المقـــدس خمسمائة صلاة وبه عن أبى ذر رضى الله عنه قال قلت يا رسول الله الصلاة ها هنا أفضل أم الصلاة فى بيت المقدس . قال صلاة فى مسجدى خير من أربع صلوات فيه ، ولنعم المصلى هو أرض المحشر والمنشر، وبه عن يزيد بن عبد الله رحمه الله قال من خرج الى بيت المقدس بغير

حاجة الى الصلاة فيه فصلى فيه خمس صلوات صبحا وظهرا وعصرا ومغربا وعشاء خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه ، وبه من أبى يزيد قال لما خلق الله بيت المقدس حزنت فقال لها الرب جل جلاله ما يحزنك، وقد سميتك من حبى باسمى أنا المقدس وأنت المقدسة قالت ربــــى فاذا شغلت هذا فمن أتانى غصلى فى فتقبل منه ، ومن سكننى فارزقه ، ومن مات (113) فى فاغفر له وارحمه ، فقال لها الرب لك ما سألت. وقال الامام أبو حامد الغزالى رحمه الله قد سأل سليمان عليه السلام ربه أن من قصد هذا المسجد لا يعنيه الا الصلاة فيه الا تصرف بصرك عنه ما دام مقيما فيه حتى يخرج منه ، وان تخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فأعطاه الله ذلك وقوله سبحانه الذى باركنا حوله ، يعنى بالمــاء والشجر وأقدام الانبياء ، كان كعب رضى الله عنه يقول بيت المقدس أقرب الارض الى السماء بثمانية عشر ميلا ، ولو تتبعت الاحاديــث الماثورة والاخبار المشهورة لأملات وملأت ورويت ورويت هذا الى ما اطلعه الله فى ذلك الافق المنير من بدور العلماء وامتنع من صـدور الاولياء الذين وردوا على طاهر تلك البقاع وقصدوا الى العبادة فيهـا والانقطاع ، فسن الله الى البغية ولقيتهم أجمعين ورويت عنهم ولمـا كثر على تعدادهم وقل على نظراؤهم وأندادهم ، انتقيت منهم هاهنا خمسة يتبرك بذكرهم وتعطر الاندية بشكرهم (فأولهم) فى الحلبـة وأولاهم بالتقديم على هذه العصبة الشيخ الخطيب العالم زين الدين أبو البركات عبد الرحيم بن بدر الدين أبو عبد الله محمد بن ابراهيم ابن أبى الفضل بن سعد الله بنجماعة بن على بن جماعة بن حازم بن صخر الكنانى الشافعى سليل العلمــاء العالمـين وقليـل النظـــراء فى عباد الله الصالحين ، تجلى من مراقب الفضائل والمعارف وتحلــى بالمجد التليد والطارف قصرت الاوهام عند كنه فضله ونقصت الاحلام عن رجاحة عقله وعجزت الاقلام عن وصف مثله كنز من كنوز الكرم

لا ينفذ على النفقة ولا يسئم من الصلة والصدقة من رجل ما زادتـــه الرغبة الا تواضعا عجبا ، ولا أبقت له المعلومات فى العجب أربا برع بأحسن صوره ، ورفع من المجد أرفع سوره ، وجمع جمال سمـــات وجمال سيرة زين به ذلك المسجد الشريف ومحرابه وعين للامامـــة والخطابة فيه ، وما بقل عذاره ولا كمل شبابه ، فجلس على الكرسى الاكبر ورقى ذروة المنبر

فلو أن مشتاقا تكلف فـــوق مـــا فى وسعه لسعى اليه المنبر

خطة ورثها من الفاضل أبيه ورتبة ما برح يتوخى فيها السنـــن الرضى ويقتفيه ، ولو لم يكن لديه الا اقتفاء سير أسلافه الصالحـين والرواية عنهم وعن والده قاضى القضاة بدر الدين رضى الله عنهـــم أجمعين ، لقيته بالمسجد الاقصى عمره الله تعالى بالذكر وضاعـــف لمجاوره جزيل الاجر فأدخلنى الى منزله الكريم الذى التصق بابــه بمحراب ذلك المسجد العظيم فرأيت منزلا جليل القدر سامى الخطر مكلل الجوانب مرصع الارز ، فذهلت فى نقشه وخجلت من وطـــئ فرشه (114) ثم ذكرت ما أعده الله تعالى لاوليائه فى دار كرامته مـــن النعيم المقيم وتلوت : قل ان الفضل بيد الله يوتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وقد سفرت فى زوايا مجالسه خدود الورد الغـــض . وتراكمت سحائبه بعضها فوق بعض ، فعجبت من ظهوره فى غير أيامه، وأكببت على انتشاقه والتثامه وذكرت به ما ذكره أبو الحسن جعفر بن الحاج اللورقى فى كتاب مجد الشعر له وذلك انه ورد الاديب أبو الحجاج يوسف بن هارون الرمادي رحمه الله على بنى أرقم بمدينة وادي آش أهدي اليهم ورد فى قمعه من مدينة بجانة أول ظهوره فأكب الرمادي عليه يقبله استشارا به وفرحا ، ففهم المتعجب من فعله ذلك من حضر فأنشد ارتجالا :

يا خدود الحور فى اخجالهـــا	قــد عرتهــا حمــرة مكتسبـــة
اغتربنـــا ، أنت مــن بجابــة	وأنـــا مغتــرب مــن قرطبـــة
واجتمعنا عنــد اخــوان صفــا	بالنـــدي أموالهـــم منتهبـــة
عصبــة ان سئلــت عــن نسبــة	فالـــى أرقمهـــا منتسبـــة
ان لثمـــى لــك مـــن بينهـــم	ليس فيــه حالـــة مستغربـــة
لاجتماع فى اغتــراب بيننـــــا	قبــل المغتــرب المغتربــــة

فاستحسن رضى الله عنه ما ذكرته من ذلك ، وأجزل صلتى مما حضر هناك ، ولم أزل أتردد اليه واسمع منه ، وأقرأ عليه حتى تحصلت لى منه جمل مفيدة ، ومقيدات عديدة ، ومما قرأت عليه بمنزله المذكور جميع الجزء الذى ألفه وخرجه عن شيوخه فى أحاديث نبوية ، وفوائد جمة ، وجميع الجزء المسمى بتنقيح المناظرة ، فى تصحيح المخابرة ، وجميع كتاب المنهل الروى فى علوم الحديث النبوى ، وهو اختصار كتاب ابن الصلاح رحمه الله تعالى ، وجميع الخطب المختصرة مـن خطب ابن نباتة رحمه الله تعالى ، ومما سمعت بلفظه بعض كتاب غرر التبيان لمن لم يسم من القرآن ، وبعض كتاب تجنيد الاجنـــاد ، فى وجهات الجهاد ، وبعض كتاب مستند الاجناد فى آلات الجهاد ، وكلها من تأليف والده سوى الجزء الاول ، وتناولت ما لم يكمل لى سماعه عـن يده المباركة وأخبرنى بذلك سماعا عن المؤلف والده . المذكور وقرأت عليه وسمعت منه غيرها حسبما كتب لى لذلك وأجازنى اجازة تامة . والثانى أعوذه بالمعوذتين والسبع المثانى الشيخ العالم الامام الحافظ مفتى المسلمين صلاح الدين خليل بن كيكلدى (115) بن عبد اللـــه

---

115) الكيكلدى : محدث كبير ترجم له ابن السبكى فى الطبقات وهو غير الـذى شرح لامية العجم المشهور بالصفدى الشامى .

الملائى (116) الشافعى الدمشقى نزيل بيت المقدس نفع الله تعالى به رجل من أكبر كبار المشرق . واستقبل بالامامة فى جميع فنون العلم ولما يشب له سواد المفرق ، واستقر بالنيرين ، نور علمه ونور جبينه المشرق ، فجلى من حسن الصورة بما قصرت عنه مخدرات القصور ، وأتى من الشجاعة ما يرعد به مفارق ومفاصل الليث الهصور ، ومنح من الكرم ما تخلى عنه اسخياء هذه الازمنة وكرماء هذه العصور ، ولما أكمل تعالى عليه نعمته فى كمال خلقته واعتدال قامته وبنيته أحب أن يزيد كمال حلاه البدنية ، وصفاته بكمال نفسه السنية ، وذاته البهية ، فجمع فى صدره ما تشتت من فنون العلم ، والقى عليه سكينة الوقار والتقى والحلم ، والبس أديم الحسن ناعم ذلك الجسم ، فلم تر عينى على عظيم ما رأيت من مخلوقات الله تبارك وتعالى رجلا أتم حسنا ، ولا أكمل معنى ، ولا أنبل تحصيلا ، ولا أفضل جملة وتفضيلا ، منه فى صورته وسيرته وعمله ، ولبسه وعقله وفضله ، واعتداله وكماله وجزالته وبسالته وشجاعته وبراعته ودهائه وحيائه وحبائه وكرمه وكلمه وحفظه ولفظه وفصاحته وسماحته وزكائه ونباهته ونزاهته وعبادته وزهادته وورعه ودينه واخلاصه ويقينه وحركاته وسكونه وتصرفاته فى جميع فنونه .

لولا عجائب صنع الله ما ثبتت ... تلك الفضائل فى لحم ولا عصب

يمينا بئاياته السافرة ، وآياته السائرة ان الاحبار لفى حيرة بافادته كالمحابر والمنابر ، باجادته ، وان أوضح الملفوظات ما تلقاه فالقاه ، وأصح المحفوظات ، ما أحرزه فأبرزه ببصيرته يحتذى البصرى ، وبكفايته يقتدي الكوفى وبنكتته يستصحب الصاحب وعلى انشائه يعتمد ابن العميد ، وأما الاثار فعليه مدارها ولديه ينفق عندها وبنذارها . لا جرم أن ذا التحصيل والرأى الاصيل ، من طاف بسدة سيادته ، وجنح

---

116) فى بعض النسخ الملائى .

لمعلم علمه فاستعدى الرشاد والسداد واستملى (117) امتن والاسناد ليسعد جده بالحمل على الجادة ، ويتحقق فى كل صورة ومادة ، بيـــن الصبح لذى عينين ، وما قلت الا بالذى علمت سعد، لقد حضرت مجالس تدريسه التى هى منتدى الاعلام ، ومنتهى جهد الاسماء الاعــلام ، وميدان فرسان الطروس والاقلام ، وقلائد اعناق مدارس الاسلام . فكان كل من حضرها من علماء الامصار يحلف انه ما سمع بمثلها من مثله فى هذه الاعصار ، وان الله أخلصه بخالصة ذكرى الدار ، وجعله ن اولى الايدى والابصار ولقد حل أول شهر رمضان معتكفا بالمسجد الاعظم لالتزام الاوراد والاذكار ، والتسبيح والاستغفار ، فما كان يبرز منه الا للافطار ، وقضاء ما خف من الاوطار ، ولقد شاهدته بطول الشهر المذكور وقد اختص به واحتل بمنزله من طلبة العلم وغيرهم ما ينيف على الاربعين رجلا سوى عائلته والجميع من عنده يأكلون واليه ينضمون ويأوون ، فسألت ذلك فقيل لى ذلك دأبه وعادته فى رمضان كل سنة على تعاقب الدهور والازمنة . وهذه نبذ من عظام فضائله ، ولمع من حسان فعائله ، فلنقف عندها ، وهى تدل على ما بعدها ، ثم نذكر بعض مـــا سمعت من لفظه ونقلت من خطه أو حفظت فمن ذلك كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم القاضى أبى الفضل عياض بن موسى بن عياض رحمه الله تعالى سمعت جميعه من لفظه بالمسجـــد الاقصى الشريف وحدثنى به بسنده المكتتب بخطه فى اجازته لى وقرأت بلفظه جميع كتاب الشفاء هذا ، وسمعته بلفظ غيرى على جماعة كثيرة من أهل الاندلس غرب العدوة وأثبت سندهم فيه فى برنامج روايتى وسمعت عليه بعض كتاب مسلم بن الحجاج رضى الله عنه وجميع الجزء الذى صنفه فى تقرير الوحدانية لله تعالى ، يشتمل على تفسير قوله تعالى: يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق ، الآية. وجميع بغية الملتمس فى عوالى حديث مالك ابن أنس من تخريجـــه

117) ن 1 و 3 واستملا وهو خطأ لان استملا الدين جعله فى الاغنياء الثقة .

أيضا وهو ستة أجزاء خرجها من كتاب الموطا ، وقرأت وسمعت عليه غير ذلك مما هو مثبت بخطه كذلك وله شعر رائق ونثر فائق أسمعنى من ذلك جملة وأنشدنى . ومن خطه نقلت لشيخه الامام العلامة فريد دهره ووحيد عصره قس الفصاحة ملك البلاغة شهاب الدين ابن أبى الثناء محمود بن سليمان الحلبى كاتب السلطان بدمشق كل فريدة فيداء وحديقة غناء رائقة النظم والرصف فائقة الوسم والوصف مالكة القلب والطرف .

يقود عنان السمع حسن نشيدها — فتزرى بالحان الغريض ومعبد

وأنا أول من جلب شعر شهاب الدين هذا فأدخله بلاد المغرب وقصيدته اللامية الحافلة التى استوفت كثيرا من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم وهى من القصائد العجيبة والقلائد الغريبة وأولها .

هذا اللقاء وما شفيت غليلا — كيف احتيالى ان عزمت رحيلا

يا دار من أهوى وحقك لم أجب — داعى التفرق لو وجدت سبيلا

وعددها مائة بيت وواحد وثمانون بيتا ، وقال لى شيخى صلاح الدين رضى الله عنه قرأت وسمعت ذلك مع مجموع شعره عليه وأجازنيه ، فمما أنشدنى له على طريقة مهيار وكتب بها الى محيى الدين ابن عبد الطاهر رضى الله عنه .

شام على الابرق برقا باديا — فأنشأت اجفانه الغواديا

وعاج بالركب وقد بدا له — برق الثنايا وكفاه هاديا

وساق بى العيس قطار دمعه — لما غدا له الزفير حاديا

ما لاح عن قرب مدى وانما — قربه الشوق فكان نائيا

يا برق حق ما ، رأى أم شوقه — أدنى له ما ليس منك دانيا

حن الى ماء النقى ولم يزل اليه والماء كثير صاديا
يا حبذا ماء العذيب منهلا وحبذا وادى الاثيل واديا
وحبذا من النسيم شمألا فيه ومسرى رقة يمانيا
وحبذا والورق فى غصونه تدرس فى أوراقها الاماليا
حيث ترى الادمع فى رياضه مستبقات والنسيم وانيا
والغصن الرطب وما أشبهه بالطل أو بالدمع فيه حاليا
ترى الاقاح بالثغور ضاحكا والغيث فيه كالجفون باكيا
وتحسب العشاق فى عراصه لولا الانين الرمم البواليا
فكم حوى الظل نحولا مثله لولا التهاب الوجد كان خافيا
وافاه معتل النسيم عائدا وجاءه ورق الحمام راقيا
يا برق اذكيت بقلبى حرقة منك فما شأن الحيا وشانيا
جزت على دار الهوى فهل غدا زندك فى رى ثراها واريا
عار على دمعى اذا ضن الحيا ان تغتذي أغصانها عواريا
اذ كرتنى برق الثغور لائحا فظل دمعى رائحا وغاديا
بالله ان جزت بأرض رامة فصف وان لم يسئلوك حاليا
وقل لهم خلفت فى الحى لكم ميتا قضى وما قضى الا مانيا
أرخص فيكم دمعه كروحه وكان كالصبر عزيزا غاليا
ومن حمى الوادى عريب أشرعوا دون القدود مثلها عواليا
جاورت فيهم والندى شعارهم فاطلقوا لى من دموعى جاريا
يا صاحبى قد ضاع قلبى فابكيا عليه فى ناديهم وناديا

واستخبروا السـرب ولا تتهمـا   عليـه فى ذا الاعـين الروانيـا
فـان أتى فحبـذا وان أبـى   أرسلـت دون ناعييه ناعيـا
بى منهم ظبـى رنـا فصادنـى   يفديـه قلبـى صائـدا أورانيـا
شاكـى السلاح لا تـرى بجفنه   فى الحى الا باكيـا وشاكيـا
يـا صارما جفونـه جفـونـه   فعلـك أضحى فى القلوب ماضيا
ويـا قوامـا لحظـه سنانـه   اذكرتنـى الطعـن وكنت ناسيـا
ويـا وشاحا ضم خصرا مثلـه   لا ترج مثلى من سقيـم شافيـا
ما لك والخلخال يشكو ربه (118)   مثل الذى جلت عليـه ظاميـا
ويا جبينـا ما انجلى صباحـه   حتى طوى من فرعـه لياليـا
سامرت والافـلاك فيـك مقتلى   دون النجوم الادمـع الحواليـا
كأننـى والجـو روض ناظـر   بـت لاسراب النجـوم راعيـا
كأننـى فى مدح محيى الدين قـد   حاولـت أن أنظمهـا قوافيـا

وأنشدنـى لـه أيضـا :

ما ضر من شفع الصدود ببعـده   لو علـل الكلف المشوق بوعـده
أو لو شفاه بزورة بعـد النـوى   ليـرى الذي فعل البعاد ببعـده
ظبى مـن الاتراك خال بالـه   من حال ملئان الفؤاد بوجـده
ريان من ماء الشباب اذا مشـى   يثنى الغصون علـى تثنى قـده
ما كنت أشكو من قسـاوة قلبـه   لو أنـه أغرتـه رقـة خـده

---

118) ن 1 و 2 يشكو ربـه

أبكى ويضحكه التدلل عن سنى — بـرد شفـاء محبـه فى بـرده
وأمير حسن ناظرى ، والقلب من — أعوانـه أبـدا علـى وجنـده
علما بأن اللحـظ منه صـارم — عضب ومـا حـذرا مواقع حـده
لـو زارنى لفضضت ختم رضابه — وضممت مـا ضمت معاقـد بنده
وجنيت منه الروض غب سمائـه — وجليت منه البـدر ليلة سعـده
ووردت مـن وجناته ورضابـه — مـا بغيتـى فى ورده أو ورده
وأجلت كفى من مجـال نطاقـه — فى غورة وكففتهـا عـن نجـده
قالـوا بـه سقـم فقلت لعلـه — فى جفنـه أو خصـره أو عهـده
يـا سالبـى طيب الرقاد وانمـا — أسفى علـى فقد الخيال لفقـده
لولا انتظار الطيف يطرق فى الكرى — مـا راح دمعـى سائلا من خـده

وأنشدنى له أيضا يعرض بالشيـخ شمس الدين الايكى أحـد المدرسين بدمشق وكان بلغه عنه أنه تنقص بالامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه وذكره بسوء فانتصر له شهاب الدين أبو الثناء المذكور بهـذه الابيـات :

بنت فبـات الطيف لـى مسعـدا — يبيـحنى جنـة خـديـك
وطـالمـا حاولتهـا قبلـة — فصـد عنهـا سيـف جفنيـك
لـو لـم أخـل حمـام اللـوى — فى الايك يغنـى عـن رقيبيـك
لغـر نومـا كان مثـل الصبـا — يعطـف لى ان ملـت بعطفيـك
فلا راعى اللـه حمـام اللـوى — ولعنـة اللـه علـى الايكـى

وأنشدني لـه أيضـا :

اذا مـا بـدا مسفرا ضاحكـا وقد ميلتـه الصبـا والجنـوب
فلاح الصبـاح وفـاح الاقـاح وماس القضيـب ومـاج الكثيب

والثالث أكبرهم سنا . وأكثرهم بالمعانى الادبية معنى الشيخ الفقيه المحدث الاديب علاء الدين أبو الحسن على بن أيوب بن منصور المقدسى الشافعى أبقى الله بركته شيخ النظم والنثر وامام الحديث فى ذلك القطر خطب حسناء الادب سنين ، وانعقد النكاح بينهما بالرفاء والبنين ، واعتنى بالرواية فأخذ عن جلة من الشيوخ الغابرين فطلع فى ذلك زمنه ، وأطار فيه وسنه ولم يثن لغير العلم همته ، ولا جر فى سواه رسنه ، فروى وقيد وشيد من مبانى العلم ما شيد ، فهو اليوم وان قرب من الفوت رحلة هذا الوقت له سبلة منسدلة يروق ايماضها ويفوق السواد بياضها ، على وقار وسكينة وجلالة مكينة وحصاة رزينة وهيئة زينت بأحسن زينة ينصب مجالسه المباركة لعلوم الحديث فى القديم من الزمان والحديث ، فيعلوها منه الصدق ويغتنمها لديه الخلق ويطرق اليها من أقاصى البلاد ، فيلحق فيها الاصاغر بالاكابر والابـاء بالاولاد . سمعت عليه بمجلسه من المسجد الاقصى الشريف جميع صحيح الامام أبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى رضى الله عنه بعد أن كنت سمعت عليه جميع الثلاثيات المخرجة منه وحدثنى به عن الشيخ الامام تاج الدين أبى محمد عبد الرحمن بن ابراهيم بن سباع الفزارى ، وعن الشيخ الحافظ شرف الدين الحسين على بن محمد بن أحمد اليونينى قراءة منه على كل واحد منها بجميعه بدمشق المحروسة قالا أخبرنـا الشيخ الصدوق أبو عبد الله الحسين بن أبى بكر المبارك بن محمد بـن يحيى بن الزبيد أخبرنا الشيخ الثقة أبو الوقت عبد الاول بن عيسى بن

---

119) ن 5 ولم ادر ان حمـام اللـوى .

الشجري أخبرنا الشيخ أبو الحسن عبد الرحمن ابن محمد المظفر الداوردي أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حموية السرخسى ، أخبرنا أبو عبد الله البخارى ، وقد كنت قرأت عليه بلفظه جميع صحيح الامام أبى عبد الله البخارى بالمسجد الاعظم من مدينة مالقة حرسها الله عـام ثلاثة وعشرين وسبعمائة على الشيخ الخطيب الصالح الولى لله تعالى أبى عبد الله محمد بن أحمد الهاشمى الطنجالى ، وسنده فيه مشهور لجودته ، وسمعت على شيخى هذا بالمسجد الاقصى الشريف ، جميع أحاديث الرباعيات المروية عن مسلم رضى الله عنه وجميع الجزء الذى فيه التساعيات من شيخه ابن البخارى ، وجميع الجزء الذى فيه ثمانية وثمانون حديثا من مشيخته أيضا وجميع جزء الانصارى وجميع الثمانية عشر حديثا وحديثين عن ثمانية عشر شيخا ، وشيختين لابن الطاهر ، وأسانيد هذه الاجزاء كلها مستوفاة فى برنامج روايتى ، وسمعت عليه بحيث ذكر جميع قصيدته الرائيتين التين نظمهما فى فضائل المسجـد الاقصى شرفه الله تعالى ، وأجازنى بالاجازة التامة وكتب لى بخطه ومولده يوخذ من قوله فيما كتب لى به فى استدعاء وأنشدنيها بلفظه رضى الله عنـــه :

(اجازهم المسئول فيــه بشرطــه | على بن أيوب بن منصور بالقدس)
(ومولده مــا بين ستين حجــة | وسبعين بعد الستمائة بالحدس)

ورابعهم فى التعداد ، العديم الاقران والانداده ، الشيخ الفقيه المقري الصالح شمس الدين أبو عبد الله محمد بن على محمد بن مثبت الخولانى الاندلسى ، أحد العباد الموفقين ، والعباد المتقين ، يذكرك سيره السلـف الصالح بعمله الموهوب ، وعقله الراجح ، ما تراه أو تلقاه الا يروعك دينه وتقاه ولا تبصر مجلسه أو ممشاه الا وتهابه وتخشاه اشتغل بما يعنيه ، واشتمل دهره اما على علم ينجيه ، أو الى عمل يجنيه ، قد عزل عن الناس نفسه وجعل بالله وبكتابه انسه ، فليس له هم الا فى اقـراء القرآن ،

وايراده عند اغفـــاء الاجفان ، أو فى اطعام كبد جائع واغاثة ملهــوف مغترب شافع فهو مأوى الغرباء وجنـــان الفقراء ومظان قضاء جوائــج الاخوان والاولياء :

قبلـــة فى السماح يجتمع الســـــا بـــق فى فضلهـــا مع المسبـــوق

رحل عن الاندلس فتى غرا فجرعه البين كاسه مرا ، والى هلم جرا يذكر أوطانه فتفيض دموعه حمرا ويهب له منها نسيم فيذكى ضلوعــه جمرا ، لا جرم أن الزمان أخذ بيده ، فبلغه أسنى مقصده وانجزه أكرم موعده فوعى وفهم وعمل بمـــا علم واستفاد وأفاد ، ورزق المال والاولاد فهم الآن بذلك الحـــرم الشريف من خيار المدرسين وكبـــار الرؤساء لا المرءوسين ، كثيرا ما كنت أحضر مجالسه العلية وفوائده العلمية ودوله الفقيهية والنحوية فاغبط من حضر والتقط الدرر :

وأمنح الطرس من الفاظه نبـــذا وأخلـــط العنبر الوردى بالعفـــر

ومما قصدت رواية لعلوه فيه ، كتاب عوارف المعارف تأليف الامام شهاب الدين أبى حفص السهرودى (120) رحمه الله تعالى سمعت أكثره بلفظه وتناولته من يده ، فحدثنى به عن الشيخ كمال الدين عمر بن الياس المرعنى سماعا عليه بجميعه حدثه به عن الشيخ الامام قطب الدين أبى بكر بن محمد بن أحمد القسطلانى قراءة عليه عن المؤلف شهاب الديـــن المذكور سماعا عليه من لفظه أيضا ، اكثر رسالة الشيخ أبى القاســم القشيرى رحمه الله وناوليها ، وحدثنى بها عن الشيخ شهاب الدين أحمد ابن يحيى بن اسماعيل بن جهبل قراءة منه عليه لجميعها حدثه بها عن الشيخ شرف الدين بن هبة الله بن عساكر سماعا عليه عن الشيخ أبـــى

---

120) السهرودى بضم السين كما ضبطه المحلى بآخر جمع الجوامع وابن خلكان فى الوفيات .

محمد عبد الوهاب بن شاه الشاذا باخى سماعا ، عن المؤلف المذكــــور وسمعت من لفظه جميع الاحاديث التى خرجها الشيخ الامام فخر الدين أبو الحسن على السعدى المقدسى الحنبلى ، وحدثنى بها عن الشيــخ شهاب الدين بن أحمد بن جهبل المذكور ، قراءة عليه حدثه بها عن مخرجها فخر الدين المذكور سماعا ، قراءات وسمعت غير ذلك واجازنى اجازة تامة وكتب لى بخطه (وأوترهم) بل أوثرهم بمسك الختام ، وملك الكلام وخامس الاربعة الكرام ، وحامل لواء البيان بين صناديد مصر وغدول الشام ا الشيخ الفقيه الاديب الابرع جمال الدين أبو بكر محمد بـــن محمد بن الحسن بن أبى الحسين بن صالح بن على بن يحيى بن طاهر بن عبد الرحيم بن نباتة المصنف صاحب الخطب الشهيرة أبرع خلـــق الله اذا نظم أو كتب ومن جمع الله له الادب والحسب ، ورحب فى تلك الطباع ، أملح الانطباع وأمد الباع أن تغزل أو نسب ، الذى مد أرض البلاغة ودخلها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، يستخرج بن بحره اللؤلؤ المنظوم والمنثور فيسحر الحور ويفتن الحور (121 ويطمع المهـــارق ويؤيس النحور ، فرفقا يا دره النفس ومهلا يا مرجانه المسطور ، غازلت الغزلان ، وبدرت ابدور ، وعلمتنا نبذ المباسم وننسى الثغور فنحن فى روضة مدبجة نخرج من زهرة الى زهرة ؛ ولما ملكه الله تعالى ملاك هذه الطريقة الادبية وقوامها وحطت لديه هذه الصناعة السنية رحلها وزمامها ومدت له فى الادب غاية كبا دونها أهل الاداب ، ورفعت له فى الشعر راية مشى تحتها كثير من الشعراء والكتاب ، تنافست ملوك الشام فى لقائه وتهافتت على اصطفائه وارتقائه فخولته مقاصد وقصورا (122) ووهبته ولدانا وحورا ، وأنالته نعيما وملكا كبيرا ، فانضوى اليهم زمانا ، وتلقى منى وأمانا فزهت فى يمينه الاقام ، ونهت وأمرت بين يديه الليالى والايـــام :

---

121) الحور فى الكلمة الاولى جمع احور وفى الكلمة الثانية جمع حوراء .

122) فى بعض النسخ معاصر ، وهى الكريمة من النوق .

ورف اليهـــم بنـــات النهـــى   فأمهر نقـدا ولم يخش نقـــدا
ونظمهـــا بجبيـــن العلـــى   غزانـــت كما زين الجيـد عقـدا

خطب حسناء المعالى فلم يغفله المهر . ونهى وأمر فامتثل اليـه النهى والامر ، وأنيل أمله النظم والنثر . وحلل سحرهما وقد حرم السحر ، فقرط وشنف ، ودبج وفوف ، وألف وصنف . وعنى ببنات فكره القلوب ممن عنى ، وعنف ، وسحرتنى ألفاظه . ولقد كنت بعيدا من أن أصاب بسحر ، الا أنه اليوم قد آثر الراحة من حراسهم وحجا بهم . واستغنى بباب الله عن الوقوف الى أبوابهم ، فما يطأ لهم ناديا . ولا يلبى منهم مناديا ، بل أقبل على ما يعنيه ، وأعرض عما كان يتعبه ويعنيه ، بهمة تشرق فهى الشمس أو تسمو الى الغايات فهى زحل .

لقيته بحرم المقدس أتاه من دمشق زائرا ، وخرج من بيته مهاجرا . وقد كان عرف أنى فى الطريقة من أنسابه وعلى الحقيقة من المتعلقين بأهدابه ، فحين رآنى أسرع فى القيام ، وبادر الى اللقاء والى السلام . فخجلت من فعله وعجبت من فضله واستنشدنى من شعرى . فانشدته لـــى ولغيرى ، وتحصل بينى وبينه ذمام أكيد . وعهد بفضل اللـــه حميد ، ثم سألته فى تقييد شىء من شعره فاخرج لى ما ارتضاه منـــه واختاره فى نسخه تغار عليها حبات القلوب اذا تبديها . وتود الاحداق اذا رمقتها لو تبديها فياضها بياضها وسوادها بسوادها . فاستعرتها منه، وكتبتها عنه فلما رمق ما كتبته أحب اقتناءه تجديدا للعهد وحفظا للـــود نا‌ستوهبه منى محتشما ، واسعفته فيه فقبله وقبلت (123) ضاحكا مبتسما ، ووهبنى أصله وأكمل لدى طوله وفضله فأنا أول من جلب ذلك الدر النفيس من بحره ، وتقلد فى جيده ونحره ، وفاز بشرفه وفخره ولما قرأت عليه أخذ القلم بمحضرى وكتب على ظهر الاصل ما نصه (اللـــه

---

123) ن 1 و 3 فقبلـــه وقبلـــه .

الموفق قرأ على الشيخ الامام العالم الكامل الفريد أبو البقاء خالد البلوى الاندلسى شكر الله بره المغدق وأصله المعرق ، وحرس شخصه الذى تقول المحاسن أطلعه الغرب فأرنا مثله يا مشرق أكثر هذا النبذ من شعرى والرسالة من انشائى قراءة ملأ بها سمعا وذهنا ، وأربح بها للشعر نقدا ووزنا ، وفضها سبط حلى فهو اما يقلد عنقا واما يقرط أذنا وأحكمها ببيانه وصوته ، فما سمعت أطيب من حالته اعرابا ولحنا ، وأجزت له روايتها وجميع ما تجوز لى روايته معترفا بفوائده الممتازة ، عالما أنه كان يجب أن أجيز من الجائزة لا من الاجازة متطوقا عوارفه التى عز بها الجيد ولا كرامة للدر ، ولا عزازة ، ونحلته هذه النسخة . وسألته اصلاحها بعد أن تعرضت عنها بنسخة من خطه الذى يتنافس فيه البصر والسمع ، وقطرات أقلامه التى اذا نافستها أقلام الفضلاء تولوا واعينهم تفيض من الدمع والله تعالى يرحم أسلافه ، ويبقى منه على كرمه الطاهر ما أبقى الكرم من السلافة قال ذلك وكتبه محمد بن الخطيب بن نباته العبشمى المصري ثم الشافعى وذلك فى شوال سنة سبع وثلاثين وسبعمائة بحرمة القدس الشريف وهذا الذى أثبته من نثره يدلك على جلالة قدره وحفاوة بره وها أنا أثبت من نظمه ما يسمعك عجبا ويريك ألفاظه ياقوتا ولجينا وذهبا :

من كل بيت لو تدفق طبعه ... ماء لغص به الفضاء مسيلا

وكل قصيدة للعقول مقصودة ومقطوعة ، على الحسن مطبوعة ، فمن ذلك قوله يمدح السلطان المؤيد صاحب حماة رحمه الله تعالى من قصيدة العينية :

سرى طيفها حيث العواذل هجع ... فنم علينا نشره المتضوع
وبات يعاطينى الاحاديث فى دجى ... كأن الثريا فيه كأس مرصع
أجيراننا حيا الربيع دياركم ... وان لم يكن فيها لطرفى مربع

شكوت الى سفح النقا طول نأيكم وسفح النقا بالبين مثلى مـــروع
ولابد من شكوى الى ذى مـروءة يواسيك أو يسليـك أو يتوجـع
فديت حبيبا قد خلا عنـه ناظـرى ولم يخل منه فى فؤادى موضـع
مقيم بأكناف الغضا وهى مهجـة والا بوادى(124) المنحنا وهى أضلع
أطال حجاز الصد بينى وبيــه فمقلتـه حـور ودمعـى ينبـع
لئن عارضت من دون زورته الفلا فيـا رب روض ضمنا فيه مجمع
محـل ترى فيه جوامع نزهـة بـه تخطب الاطيار والقضب تركع
قرأنا بـه نحو الهنـا فمـلابس تجـر وأيـد بالمدامـة ترفـع
وقـد أمنتنـا دولـة شادويـة فما نختشى اللاوى ولا نتخشـع

وقـال يمـدح مـن قصيــدة (126) :

ملى الحسن حالـى المرشفيـن متى يقضى ، وعود الوصل دينـى
أبثـك ان عـاد لـى المعنـى رآك بعيـن حب مثـل عينــى
فحاكـى قلبـه قلبى خفوقـا وحكمـك الهـوى فى الخافقيـن
لمثـل هواك تجنح كـل نفـس وتسفـح كـل ناظـرة بعيـن
صددت فمـا الاسى عندى بقـل ولا دمعـى بـدون القلتيـن
بروحى عاطـر الانفاس ألمـى رشيـق القـد ساجـى المقلتين
يهـز مثقفـا مـن معطفيـه ومن جفنيه يجـذب مرهفيـن

124) ن 2 بالملاحـة
125) الـلاوى الشـدة
126) القصيدة فى مدح الملك الافضل بن المؤيد وكان يلقب صغيـرا بالمنور : الديـوان .

لـه خـالان فى دينـار خـد تبـاع لـه القلـوب بحبتـين
وحـول نقـا سوالفـه عـذار كمـا شعرت نقـوش فى لجيـن
أظـل اذا نظـرت لوجنتيـه أنـزه فى النقـا والرقمتـين
فياللـه مـن غصـن فريـد وفى خديـه كانتـا الجنتـين
أما وحباب مبسمـه المفـدى علـى معسول كـأس المرشفين
لقـد عـذبـت مـوارده ولكـن نـدى المنصور أحلـى الموردين

وقـال أيضـا :

واغيد تعـرف مـن جفنـه علامـة الثانيـث بالكسـرة
أرخـى على اعطـافـه شعـره قـد جذبتنـى فيـه للحسـرة
فأعجـب لمـن جار عليه الضنى حتـى غـذت تجذبـه شعـره

فقـال يطلـب الاذن :

مـا يقـوم المقام أيـده اللـه ولا زال للسعـود يحـوز
فى ولـى ببـابـه تركب الخلـق ووافـى يجـوز أم لا يجـوز

وقـال :

أهـواه لـدن القـوام منعطفـا يسـل مـن مقلتيـه سيفـين
وهبت قلبـى لـه فقـال عسى نومـك أيضـا فقلت من عينـى

وقـال :

للـه خال علـى خـد الحبيب له فى العاشقين كما شاء الهـوى عبث
أورثتـه حبة القلب القتيل لـه وكـان عهدى ان الخال لا يـرث

وقــــال أيضـــا :

بقلت وجنــة المليح وقد ولــى زمان الصبــا الذى كنت أملــك
يــا عذار المليح دعنــى فانــى لست فى ذا الزمــان من خل بذلك

وقــــال أيضـــا :

رأيــــت فــى جلــق غـــزالا تحــار فــى حسنــه العيـــون
فقلــت مــا الاســم قال موسى قلــت بــذا تحلــق الذقـــون

وقــــال أيضـــا :

أهـــواه معسول الرضاب منعمــا ولكــم يعذبنــى الهوى بمنعــم
يــا قلب هــذا شعره وجفونــه صبرا على هذا السواد الاعظــم

وقــــال :

لا ينكــر الكاســر أجفانـــه دم الشهيـــد الصابر المغـــرم
فالريح ، ريــح المسك فى خــده كما ترى ، واللون لــون الــدم

وقــــال :

علقتهــا غيــداء حاليــة الطــلا تجنــى على عقل المحب وقلبــه
بخلت بلؤلؤــؤ ثغرها عــن لاثــم فغدت مطوقــة بما بخلت بــه

وقـــــال :

بروحى معسول المراشــف أغيد كثير التجنىما أغر وما أغرا (127)
تثنى قضيبيــا فاح مسكا رنا طــلا سطا أسد ، غنى حماما ا بدا بدرا

وقـــــال :

وأغيد جارت فى القلوب لحاظه(128) وأسهرت الاجفان أجفانه الوسنى
أجل نظرا فى حاجبيه ولحظـــه تر السحر منه قاب قوسين أو أدنى

وقـــــال :

وضعت سلاح الصبر عنه فما له يقابل بالالحــاظ من لا يقابلــه
وسأل عذار فوق خديــه جائــر على مهجتــى فليتق الله سائلــه

وحين ودعته تأسف للفراق وأعقب بارسال دمعه المهراق وأنشدنى وهو مما يجب أن يكتب على الاحداق لا على الاوراق :

فقــالــى لـــى :

أودعكـــم وأودعكـم لقلبـــى وعــون الله حسبكـم وحسبـى

فقلــت مــرتجــلا :

وأرعى حبكـم مــا دمت حيــا وأرجــو فضلكـم رعيـا لحبــى

127) فى الديوان : بروحى فتان اللواحظ اغيد .. شديد التجنى ما اضر وما اضر .
128) فى الديوان : واغيد جارت فى القلوب فعالــه .

ثم تألف بتلك المدينة الركب ، وأشتاق الى البقاع الكريمة القلب فأعددت الزاد . وشددت الاقتاب والاقتاد (129) ، وخرجت من مدينة القدس الشريف . فى عشى يوم الاربعاء الثانى عشر لشوال من العام المذكور . وقد تضمخ حبى الاصيل بالعبير ، وكادت الشمس تسقط من الغرب على شفير (130) ، فبتنا بقرب سورها ، وأخذنا من الامور بميسورها ، وودعت بمنزلنا ذلك أخى محمد المذكور المتقدم الذكر وداعا استولى على الفكر . فشغلت مقل بالدموع ، وأكباد بالجمر ، وطالت النوى لوجدان الاسى وعدم الصبر :

ومـدت أكف للوداع وصافحـت وكـادت عيون لنفراق تسيـل
ولابـد للالفين مـن دمع لوعـة اذا مـا خليـل بان منه خليـل

ولما غاض نهر المجرة ، وابتسمت (131) أسنان الكواكب المفترة ، سرنا الى أن خيمنا بظلال روضات الغيور ، وقد استل سيوف الجداول وترشح خمائل النور معدت حينئذ فى صفة الشعراء :

وتحدث الماء الزلال مـع الحصـا فجرى النسيم عليه يسمع ما جرا
وكـأن فوق الماء وشيا ظاهـرا وكـأن تحت الماء درا مضمـرا

فترامينا علـى تلك المياه بين تلـك الظلال مستتين وأنشدتهم لكاتب ميـا فارقيـن :

وقانـا وقـدة الرمضـاء ظـل وقاه مضاعـف الظل العميـم
يراعـى الشمس أنـى قابلتنـا فيحجبهـا وبـأذن للنسيـم

---

129) القتـب : رحال صغير قدر السقام ، والقتد خشب الرحل .
130) فى الاصـل خبيـر .
131) ن 3 وهتمت : اى سقطت
132) فى بعض النسخ فعدت .

وسقانـــا علـى ظمـأ زلالا الـذمـن الـمـدام لنـديـم
تروع حصاه حاليـة الغوانـــى فتلمس جانـب العقـد النظيـم

ثم عبرنا واديه الكبير ، بعد أن لقينا الجهد الكثير ، وسرنا سيرا مجدا ، لم نأل فيه جهدا ، الى أن اجتمعتنا بالركب الصفدى بخارج حسبان . وصلناها والاصيل قد ولى ، وعامل الظلال قد تولى ، فبتنا جميعا بها ولم نفرق بين ظهور المطـى وقتبها حتى عبث الابتســام بالوجوم ، وفاض مهر المجرة على حصباء النجوم ، فنبهنا أيدى المطى على سنة السكون وحركنا منها ما كان مبنيا على السكون ، وسرنا الى أن وافينا مدينة (الكـرك) (133) المحروسة العيـا ، التى هى من أمنع معقل ، فى الدنيا ، فوصلنا اليها فى ضحوة يوم الاحد الثالث والعشرين لشوال المذكور فرأيت مدينة عظيمة الجرم ، سامية الرسم ، كأنها على مرقب النجم . يحصر دونها الناظر ويقصر عنها العقاب الكاسر يكاد من علاها يعرف حوض الغمام ، ويقف على هام السحاب والقتام ، متناهية فى الحصانة ، موصوفة بالوثاقة ، ممتنعة على الطلب والطلاب ، مختصة بكثرة الحراس وشـدة الحجاب منصوبة على أضيق المسالك وأوعـر المناصب صماء عن الراقى ، عالية على المرتقى نائية للمراقب لن تزدها الايام الا نبو أعطاف ، واستصعاب جوانب وأطرف ، فهو حمى لا يراع ومعقل لا يستطاع ، كأن الايام صافحتها على الاعفاء من الحوادث ، والليالى عاهدتهـا على التسليم من القوارع ضخمـة المأوى رحبـة المثوى (134) ، معشوقة السكنى رائقة المغنى .

تحسب النجم فى دجى الليل زهرا فى رباهـا وتحسب الزهر نجمـا

قد ساوت الفرقد بالوهاد والنجد ، وفتحت أبوابها أنقابا فى وسط الحجر الصلد ، والعجب كـل العجب أنها على بعد مرقاها ، وسمـو

---

133) ن 1 و 2 مدينة الكرك قلعة بنواحى البلقـاء .
134) فى الاصل : جنـة المثـوى

مرتقاها ، قد أينعت فى أعلاها الثمار وتفجرت منها العيون والانهار فكلما هب فيها النسيم غردت الاطيار .

فهـــى لا تسئـــل الغمـــا م ولا تشتاق كالارض كلها اذار

فنزلنا بخارجها فى الثنية العلية ، وقد وصل بوصولنا المحمـل الدمشقى والمركب الحلبى وتألفت هنالك ركبان الشام وأعدت عدة السير لزيارة أفضل الانام عليه أتم الصلاة وأكمل السلام ، ثم تجهز الركب الكركى للسير أولا على عادته الحسنة فتجهزت معه مبتغيا بركة التقدم والاسراع وقاصدا السبق فى أول وافد على تلك البقاع وخرجنا منها ضحوة يوم الاثنين من غد اليوم المذكور وهو اليوم الرابع والعشرون من شوال فسرنا فى جيش كثيف وعدة ظاهرة تحت اعلام فخمة وطبول هادرة ، وأخذنا نجد السير ليلا ونهارا ، ونصل السري اظلاما واقمارا ، ونقطع أرضا صحراء مخوفة القطع ، جرداء كالنطع ، سوداء مثل القطع ، يخطى الدليل سمتها ، ويضل السبيل عوجها وأمتها (135) نخترق منها كل خرق وسبسب ونموج فيها عند كل صبح وغيهب وتلك الجمال المباركـة تمد أعناقها ، وتحدق أحداقها ، وتفري من الفيافى أزرارها وأطواقها ، وتشكو اليها أسرارها وأشواقها ، ويطربها الحداة فتبل دموعها محاجرها وآفـــاقهـــا :

(تثنـــى الـــى حداتهـــا أعناقهـــا كأنهـــا تأخـــذ عنهـــم خبـــرا)

والنوم قد طار عن الاجفان ، وكاد يسير بكبد الظمئان اللهفان ، ويسرى لبيت الرسول من الزوار ولله من الضيفان فأول ماء وردناه من مياه تلك الصحراء كان يعرف بالحساء وهو ماء عذب زلال ، حوله أسس وأطلال ، تنبى عن استصعاب أبد ، واقتراب من عهد لبـــد ، فبتنـــا فيه

---

135) الامـــت : الارتفـــاع
ن 2 ليبيـــت

ليلتنا وأروينا فيه غلتنا ، وسرنا صباحا نجد السير ، ونسرع اسراع الطير ، لا تستقر بنا حرارة منزل ، ولا نبيت بحمى الا والكري عنا بمعزل ، الى أن وردنا ماء مغان وهو ماء كثير عذب نمير ، فبتنا بـه وقد عزمنـا على الرحلة وأتينا صدقاتها نحلة ، ثم سرنا فى قفر صفر ، واقتحمنا صدر فلاة تروع كـل سعـادة :

ومهـامـه كـالبحـر لا أثـرا فيهـا لمفتقـر ولا سنـن

لـو سار فيها النجم ضل بهـا حيـران لا شـام ولا يمـن

الى أن وصلنا الى تبوك التى غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلدها اليوم خراب ، وعلى كل جدار غراب ، فوردنا البير المبارك التى فاضت ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرحنا بنزولها وسرحنا فى ظل نخيلها ثم سرنا فى مهامه تجمع بين النفس والجزع ، وتتصيـد عنقاء البسالة فى شرك الفزع ، الى أن وصلنا الى العلا بعد مدى بعيد ، وعناء شديد ، وهى بليدة ذات منظر جميل ، كثير المياه والنخيل ، وبينها وبين تبوك مسيرة ثمانية أيام ، نهارا وليلا وهى مسافة لها مهابـة ومخافة ، تتعب فيهـا الركاب ، وتفقد الرفقاء والصحاب : وتكابـد الخطوب الصعاب ، وقديما ضربت العامة بها مثلا فقالت : ترك أبوك بين العلا وتبوك ، ثم رحلنا من العلا صباحا ، وسرنا غدوا ورواحا ، الى أن وردنا بيرا يقال لها (بير الناقة) بقرب الموضع المعروف بمبرك الناقة . ويعنون بالناقة ها هنا ناقة النبى صالح صلى الله عليه وسلم فوافينـا البير بجهد عظيم وعطش عميم ، وهجير كأنما أرسل من نار الجحيم ، فبتنا بها ثم أدلجنا منها ، وتبلج الفجر ونحن نسير فى مدن النبى صالح عليه السلام ، فعاينت منها عجبا ، بيوتا منحوتة من الصخر ، ومجالس مكونة من الجبال لا تفنى الى آخر الدهر ، وغرفا معلقة فى الهوا مأوى للنسر ، وقصورا مقصورة على الوحوش والطير ، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين فأدرك النـاس

العبر ، وعاينوا منظرا لا تشرحه عبارة الخبرة ، لا يخبر عنه الا منظره ، ولا يشفى من حديثه الا محضره ، وما عدا ذلك فنجم من سماء ، ونقطة مـن مـاء :

كمـا قابـل الزنـد بركان نـار   وحقـف الثمـاد القليـل بحـار

ولم نزل نسير ، وقد جد المسير وحمى الهجير ، وعدم الماء ، وتحكم العناء ، وعم العطش والاعياء وكاد أن يستولى علينا الفناء :

ولـذة جسمـى ذاك الضنـى   وراحـة قلبـى ذاك الالـم

ولم تزل الحال كذلك حتى وردنا ماء هدبه فأغثنا به غلل الاكباد ، وعادت الارواح للاجساد ، ولما شارفنا أرض هدية ، تفاءلنا بأن تكون لنا هدية ، وقصد عربان الفلا أن يتخذونا كاسمها ويجعلوننا فى الدروس كرسمها ، فضربوا على ذنب الركب فى رأس المضيق ، وأذاقوه دون برد الماء بأطراف الاسنة عذاب الحريق ، فآنبرى من الركـب من صرفهم عن تلك النية وصافحهم بيد البلية ، ثم حللنا عرى السفر ، وحللنا بساحة هدية الظفر ، فأحدقنا بها احداق الهدب بالعين ، وأطرنا بمختلس وصالها وغربان البين ، واجلتينا منها عروسا قد مد بين يديها بسـاط الماء ، وتوجت بالهلال وقرطت بالثريا ووشيت (136) بنجوم السماء ، وبتنا تلك الليلة مسرورين بالقرب مستبشرين ، حامدين الله تعالـى شاكرين مرتقبين لوشك الرحيل منتظرين :

طال الوقوف برسم الدار يا حادى   فمل عسى خبر من جانب الوادى
عرج بمنعرج الوادى لعـل بـه   منهم شفاء لقلب الهائم الصادى

ثم ارتحلنا صبحا ، وسرنا نتلقى نجحا ، ولم نزل نفرى الفـلا ونجذب البرا ، ونجد السير ونؤثر السرى ، حتى بدت أعلام وادى القرى

---

136) ن 1 ووشمت ن 2 و 3 ووشحت .

فدنــا الانس ، وانشرحت النفس ، ونسخ باليوم الامس ، كلمــا قيل غدا تدنو الدار ، ويقرب المزار طربت على السماع ، وترقبت الملتقى من ثنيات الوداع ، وكفكفت العبرات ، وتمثلت بهذه الابيات :

قالــوا غــدا تدنــو فواحسرنــا ... لــو كان بالعمر غــدا يشتــرى
أسمــــع بالقـــرب ولكننـــى ... لا تنطفــى نــارى حتــى أرى
يــا ليلــة قد بقيــت هل تــرى ... أحمد فى صبــح رجــاك الســرى

وحين وصلنا الى ثنية (المدينة النبوية الكريمة) علمنا أن لمشاركة اسمها استحقت الثنايا القبل ، ولما انجلت عنه من بارقة اللقاء اتصف بها الاشتراك واتصل ، فشاهدنا نورا خالف العادة اشراقه ، وعز على ضوء النسرين لحاقه عرفته البصائر قبل الابصار وانكرته النواظر لعلو جوهر نزره على الانوار ، ففسحت لطرف طرفى فى ذلك الافق مجالا ، وأرسلت دمعى سجالا ونظمت ارتجالا :

اللـــه أكبــر حبــذا اكبــاره ... لاح الهــدى وبدت لنــا أنــواره
لاحــت معالم يثــرب وربوعهــا ... مثــوى الرسول وداره وقــراره
هــذا النخيــل وطيبــة ومحمــد ... خير الوري طرا وها أنا جــاره
هذا المصلى والبقيــع وها هنــا ... ربــع الحبيب وهــذه آثــاره
هذى منازلــه المقدســة التــى ... جبريــل ردد بينهــا تكــراره
هذى مواضع مهبط الوحى الــذى ... تشفى الصدور من العمى اسطاره
هذى مواطىء خير من وطئى الثرى ... وعلا على السبع العلا استقــراره
ملا الوجــود حقيقة اشراقــه ... فأضــاء منــه ليلــه ونهــاره
والروضة الفيحــاء هب نسيمها ... والبــان بــان ونم منه عــراره
وتعطرت سلــع فسل عن طيبهــا ... لم لا تطيب وحولهــا مختــاره

بشرك يا قلبى فقد نلت المنى ‏ ‏ ‏ وبلغت ما تهوى وما تختاره

قد أمكن الوصل الذى أملته ‏ ‏ ‏ وكذاك حبى أمكنت أسراره

قد كان عندى لوعة قبل اللقا ‏ ‏ ‏ فالآن ضاعف لوعتى ابصاره

رفقا قليلا يا دموعى أقصرى ‏ ‏ ‏ فالدمع يحسن فى الهوى اقصاره

قد كانت العين الكريمة فى غنى ‏ ‏ ‏ عن أن يغيض بتربها تياره

أيضيع من زار الحبيب وقد درى ‏ ‏ ‏ ان المزور بباله زوراه

أيخيب من قصد الكريم وعنده ‏ ‏ ‏ حسن الرجاء شعاره ودثاره

أيؤم بابك مستقيل عاثر ‏ ‏ ‏ فيرد عنك ولا تقال عثاره

حاشا وكلا أن تخيب آملا ‏ ‏ ‏ فيعود صفرا خيبت اسفاره

يا سيد الارسال ظهرى مثقل ‏ ‏ ‏ فعسى تخف بجاهكم أوقاره

رحماك فيمن أوبقته ذنوبه ‏ ‏ ‏ فكأنما اقباله ادباره

ليس الصغار وقد تعاظم وزره ‏ ‏ ‏ والعفو تصغر عنده أوزاره

شط المزار ولاقرار وشدما ‏ ‏ ‏ يلقى محب شط عنك مزاره

وافى حماك يفر من زلاته ‏ ‏ ‏ واليك يا خير الانام فراره

وأتاك يلتمس الشفاعة والرجا ‏ ‏ ‏ اقتاده وظنونه انصاره

والعبد معتذر ذليل خاضع ‏ ‏ ‏ ومقصر قد طولت اعذاره

متسول قد اغرقته دموعه ‏ ‏ ‏ متنصل قد أحرقته ناره

قدفت به فى غربة أوطانه ‏ ‏ ‏ ورمت به لعلائكم أوطاره

فامنن وسامح واعف واصفح واغتفر ‏ ‏ ‏ فلانت ماح للخطأ غفاره

صلى عليك الله ما حيا الحيا روض الربا وترنمت أطياره

ثم تحدرنا من الهضاب ، وقذفتنا بطون الاودية من أفواه الشعاب ولاحت لنا الانوار النبوية من تلك القباب وشرفنا الجباه بوطء ذلك التراب :

ولما رأينا ربع من لم يدع لنا فؤادا لتذكار الديار ولالبا
نزلنا على الاكوار نمشى كرامة لمن بان عنه ان نلم به ركبا

ومن آداب الزيارة اذا أشرف الزائر على المدينة أو على البيت أن يترجل ولما قدم الجوهرى المدينة ترجل وجعل يقول :

رفع الحجاب لنا فلاح لناظرى قمر تقطع دونه الاوهام
واذا المطى بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرحال حرام
قربتنا من خير من وطئ الثرا فلها علينا حرمة وذمام

ومشى حتى بلغ الى المسجد وهو ينشد :

هذه دارهم وأنت محب ما احتباس الدموع فى الاماق
والمغانى للصب فيها معان فهى تدعى مصارع العشاق
حل عقد الدموع وأحلل رباها واهجر الصبر وآقض حق الفراق

ووصلنا الى المدينة النبوية ، المقدسة الشريفة المخصوصة بالصفحة الزهراء والتربة البيضاء ، والبقعة المشرفة بمجد صلى الله عليه وسلم سيد الانبياء صلى الله عليه وسلم صلاة تتصل مع الاحيان والاناء ، فنزلنا بها من ضحى يوم الخميس التاسع عشر لذى القعدة من العام المذكور ثم ابتدرنا الى الحرم الشريف ، والكرم قد فتح الباب ورفع الحجاب وملا بالبر الرحاب ، فاستعظمنا الاقدام على المقام ، وعجزنا عن أداء ما يجب من السلام فعبرت العبرات عن الكلام ووقفنا بين يدى ساكنه

عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، فيا لها تحية أرق من النسيم اذا سرى وسلاما أندى على الاكباد من قطر الندى ، والذى فى الاجفان من سنة الكرى ، وحين فزت بهذه النعمة فوزا عظيما ، ودخلت مع تلك الفوحة مدخلا كريما ، وثبت بعد الاستغفار بالتربة والرحمة لقوله تعالى ولو أنهم ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ، وأخذت فى تلاوة القرآن المنزل عليه فى حضرته ومثلت نفسى جالسا بين يديه الكريمة أعرض عليه درسى بعد استيذانه ومشورته ، ثم ختمت الختمة بالدعاء ، واضرمت نيران الاشواق بماء البكاء ، وهنأت نفسى ببلوغ المنى وزوال العناء :

وعفرت خدى فى شدا ذلك الثرى　　　ومتعت طرفى بالحبيب ومسمعى

ثم اقبلت على ذلك الحرام الشريف . والمسجد الرفيع المنير ، أتأمل محاسنه ، وأتخيل فيه بين أصحابه الابرار ساكنه ، فمن أبدع ما رأيته وأبرعه قصيدة فريدة كتبت بالخط المذهب الرائق البديع ، وأثبتت فى ألوان الاذهان التى تخجل زهر الربيع ورفعت أمام المقدسة فى سقف المسجد الشريف الرفيع فنحلت القراطيس لؤلؤها ، ونقلت كل ما كان قبلها وبعدها ، وها هى تسفر عن غرتها الواضحة ، وتعبق عن نسمتها النافحة ، وتشهد لناظمها بالقريحة الراجحة والعقيدة الصالحة :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ،

سلام كنشر الورد من مسقط الندا　　　عليك رسول الله يا منزل الهدى

ويا مهبط الاملاك والوحى لم تزل　　　أنيسا بزوراء الرسول ممجدا

ويا تربة المختار أفديك تربة　　　بنفسى وان كانت أقل من الفدا

ويا بيته حيا ومثواه ميتا　　　لك الفخر فى حاليك بيتا ومشهدا

تضمنت أعضاء الرسول مبوءا مهادا من الفردوس فيك ممهدا

سقى الله منك الترب أفضل ما سقى وصلى على من حل فيك موسدا

فيا منزل الابرار حييت منزلا ويا مسجد الابرار شرفت مسجدا

كأنى أرى صحب النبى محمد بارجائك انبثوا ركوعا وسجدا

ففيك بدت من جنة الخلد روضة تطوف بها الاملاك مثنى ومفردا

سلام من الرحمن يذكو أريجه أخص به خير الامام محمدا

سلام ورضوان وروح ورحمة على روحه ما راح ساع وما غدا

فيا خير أهل الارض بيتا وعنصرا وأشرف خلق الله نفسا ومحتدا

وأوسعهم خلقا وأزكى خلائقا وأطيبهمخيما (137) وأطيب مولدا

ويا صفوة الرحمن من خير خلقه وأطولهم طولا وأعظم سؤددا

شهدت بأن الله لا رب غيره وان رسول الله حقا محمدا

وأشهد أن الله أهداك رحمة الى خلقه واختارك الله سيدا

فصلى عليك الله يا خير مرسل ويا خير من بالمعجزات تفردا

وصلى عليك الله ما لاح بارق وما ناح طير فى الغضون مغردا

وصلى على الابرار أهلك أنهم بنورهم يأتم من قد تزهدا

هم القومعنهم اذهبالرجس كله وركب فيهم كل خير وأوجدا

وصلى على أصحابك الغر انهم نجوم بها ينجو غدا من بها اهتدى

صلاة الاهى والسلام مضاعف على المصطفى المختار ما اتصل المدى

---

137) ن 2 اوسعهم حلما ، والخيم : الطبيعة والسجية

اللهم ادم العز والتمكين والنصر والفتح المبين لعبدك المسكين ، الذى أوليته أمور المسلمين واخترته على كثير من العالمين السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين ، وأبو المعالى محمد قسم أمير المؤمنين سلطان الاسلام والمسلمين . قاتــل الكفرة والمشركين . قاهر الفجــرة والمتمردين ، حامى حوزة الدين ، سلطان الديار المصرية والعراقية ، والبلاد الشامية ، ملك البحرين خادم الحرمين الشريفين ، ولد السلطان المرحوم ، الملك المنصور ، سيف الدنيا والدين قلاون الصالحى ادام الله أيامه ، ونشر فى الخافقين رايته وأعلامه ، وجعل السعد والاقبال حيثما توجه أمامه ، وكان ابتداء العمل فى شهر ربيع الاول ، وانتهاؤه فى جمادى مستهل الاخير سنة احدى وسبعمائة للهجرة النبوية انتهى .

والروضة المقدسة مع آخر الجهة القبلية من المسجد الشريف مما يلــى الشرق ، ولها خمسة أركان بخمس صفحات وشكلها عجيب ، لا يكاد يتأتى تصويره لاحد ولا تمثيله ، والصفحات الاربع محرفة من القبلــة تحريفا بديعا لا يتأتى لاحد استقبالها فى صلاته ، لانه ينحرف عن القبلة وقيل ان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه اخترع فى تدبير بنائها مخافة أن يتخذها الناس مصلى ، وفى الصفحة الغربية منها صندوق من أبنوس مختم بالصندل مصفح بالفضة مكوكب بها هو قبالة رأس النبى صلى الله عليه وسلم ، وطوله خمسة أشبار وعرضه ثلاثة وارتفاعه أربعــة أشبار ، وفى الصحفة القبلية أمام وجه النبى صلى الله عليه وسلم مسمار فضة هو قبالة الوجه الكريم فيقف الناس أمامه للسلام عليه صلــى الله عليه وسلم والى قدميه رأس أبى بكر الصديق رضى الله عنه ورأس عمر الفاروق رضى الله عنه مما يلى كتفى أبى بكر رضى الله عنه فيقف المسلم مستدبر القبلة ومستقبل الوجه الكريم فيسلم ثم ينصرف الى وجه أبى بكر ، ثم الى وجه عمر رضى الله عنهما ، وأمام هذه الصفحة المكرمة نحو العشرين قنديلا معلقة من الفضة ، وفيها اثنان من الذهب وتوقد كل ليلة مع غيرها مــن الشمع العظيم العجيب ، فجميع سعــة

الروضة المباركة من جميع جهاتها مائة شبر واثنان وسبعون شبرا ، مؤزرة بالرخام البديع النحت ، الرائق النعت وينتهى منها الى نحـو الثلث والى حيز الرخام تنتهى الاستار من الديباج وهى لا زوردية اللون مختمة بخواتم بيض مثمنة ومربعة ، ومنظرها منظر رائق بديع الشكل، والجدار المكرم قد علاه تضميخ المسلك والطيب متراكما عليه علـى طول الازمنة وتعاقب الايام ، والذى يعلو مع علو الجدار شبابيك عود متصلة بالسمك الاعلى لان أعلى الروضة المقدسة متصل بسمك الجدار الشريـف ، وبين الروضة المقدسة والشبابيـك المباركة مدى واسـع ، وللشبابيك أبواب مكتوبة على كل باب منها ما نصه (بسم الله الرحمن الرحيم خدم بهذه الدار بزينة للحرم الشريف مولانا السلطان الملـك الظاهر ركـن الدنيا والدين أبى الفتح بيبر الصالحى ، قسيم أميـر المومنين فى سنة ثمان وستين وستمائة ، وفى جوفى الروضة المقدسة حوض صغير مرخم فى قبلته شكل محراب قيل أنه كان بيت فاطمة رضى الله عنها وقيل أنه قبرها والله أعلم ، وعن يمين الروضة المقدسة المنبـر المبارك الذى قصر الصانعون عن صنعته ونبت الافهام عن مرام شبهه فقام فى أدق نمنمة ، وأوضح رقم من رفيع الابنوس ونغيس الصندل الاحمـر والاصفر والبقس واللبع والبقم والشوحط والقيقـب (138) بأحكم تصنيف وأبدع تركيب وما بينهما الروضة التى جاء فيها الحديث أنها من رياض الجنة فتزاحم الناس فيها للصلاة وحق لهم ذلك وبازاء الجهة القبيلة عود يقال أنه مطبق على بقية الجدع الذى حن للنبى صلـى الله عليه وسلم وقطعة منه فى وسط العمود ظاهرة يقبلها الناس ويتبركون

138) البقس واللبع (أو) (النبع) والبقم والشوحط والقبقب ، انواع من الاشجار معروفة يصبغ بطبخها (البقس) شجر معروف كالآس ورقا وحبا ، صلب تتخذ منه المغالق والابواب والمعالق والاوانى و (اليفم) شجر يصبغ بـه قيل هو العندم (دخيل معرب) ورقه كاللوز وساقه احمر . والشوحط ضرب من النبع تتخذ منه القسى وهو ما ينبت فى الحضيض والنبع ما ينبت فى الاعالـى .

بلمسها ومسح خدودهم فيها ، وطول المسجد الكريم مائة وست وتسعون خطوة وسعته مائة وست وعشرون خطوة وهو بالذراع ثلاثمائة ذراع طولا ومائتان عرضا وتكسيره من المراجع المغربية أربعة وعشرون مرجعا ، وعدد سواريه ثمانمائة وتحفه من جهاته الاربع بلاطات مستديرة به ووسطه كله مفروش بالحصا والرمل وفى صحنه قبة بيضاء كبيرة أمامها خمس عشرة نخلة نصف جدار القبة الاسفل رخام موضوع ازار على ازار مختلف الصنعة واللون مجزع أبدع تجزيع ، والنصف الاعلى من الجدار منزل كله بالذهب قد أنتج الصناع فيه نتائج غريبة من الصنعة فيها تصاوير أشجار مختلفات الصنعة ماثلات الاغصان فيه بثمرها ، والمسجد المكرم كله على تلك الصفة لكن الصنعة فى جدار القبلة أحفل والاحتفال فى هذا المسجد المبارك أكثر من أن يأتى عليه الوصف وللمسجد الكريم أربعة أبواب كبار هى المفتوحة الآن فى الغرب منها اثنان يسمى أحدها باب الرحمة والثانى باب الخشية وفى الشرق واثنان يعرف الواحد بباب جبريل عليه السلام ، والثانى بباب الرخاء ، ويقابل باب الرحمة مدرسة لم أر أحسن بناء منها ولا أبدع صنعة ، ويقابل باب جبريل دار عثمان رضى الله عنه وهى التى استشهد بها وبازاء المقصورة لجهة الشرق خزانتان كبيرتان تحتوى على كتب ومصاحف موقفة على المسجد المبارك ، ويخارجه لجهة الشرق دار أبى بكر الصديق رضى الله عنه وبأزائها دار عمر بن الخطاب رضى الله عنه ودار ابنه عبد الله رضى الله عنه ، وللحرم الشريف أربع صوامع فى الاربعة الجوانب ، وبظاهر المدينة الكريمة من جهة القبلة على ميلين اثنين منها مسجد قباء وهو مسجد حسن عدل (140) التربيع مستوى الطول والعرض ، ظاهر البركة كان النبى صلى الله عليه وسلم يأتيه راكبا وماشيا ، وروى الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال

---

140) (ن 1) على التربيع

الصلاة فى مسجد قباء كعمرة ، وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من توضأ فأحسن وضوءه ثم جاء مسجد قباء فركع فيه أربعة ركعات كان ذلك كعمرة على عمرة (141) وفى وسطه مبرك الناقة بالنبى صلى الله عليه وسلم وعليه شبه روضة صغيرة يتبرك الناس بالصلاة فيه وفى صحته مما يلى القبلة شبه محراب على مصطبة هو موضع ركوع النبى صلى الله عليه وسلم وبأعلى المحراب مكتوب ما نصه بسم الله الرحمن الرحيم لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ، هذا مقام النبى صلى الله عليه وسلم جدد هذا المسجد فى تاريخ سنة احدى وسبعين وستمائة وطول المسجد مائة وعشرون خطوة وعرضه كذلك وله باب واحد من جهة المغرب ومئذنته عالية جدا بيضاء تظهر على بعد ، وأمام بابه بئر كبير عذبة معينة ، يأتى الماء منها الى المدينة ، وفى قبلة المسجد دار أبى أيوب الانصارى ويلى دار أبى أيوب وهى دار بنى النجار دار عائشة وبازائها دار عمر ودار فاطمة ودار أبى بكر رضى الله عنهم ، وقباء كانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة المكرمة والطريق اليها بين دائق النخيل المتصلة والنخيل يحدق بالمدينة وجهاتها كلها ، وأعظمها نخلا جهة القبلة وجهة الشرق وعند قفولنا من قباء . أتينا مسجد الفتح الذى أنزلت على النبى صلى الله عليه وسلم فيه سورة الفتح فتبركنا برؤيته وشفعنا ما شاء الله فى بقعته ، وبظاهر المدينة الكريمة من جهة الجوف على مقدار ثلاثة أميال منها جبل أحد وبه مشهد حمزة رضى الله عنه ومشاهد الشهداء بازائه وفى طريق أحد ، مسجد على رضى الله عنه ومسجد سليمان الفارسى رضى الله عنه ، وبخارج المدينة الكبيرة من جهة الشرق بقيع الغرقد فأول ما يلقى الخارج من باب البقيع على يساره مشهد صفية عمة النبى صلى الله عليه وسلم أم الزبير بن العوام رضى الله عنهما وأمامه قبر مالك بن انس رضى الله عنه وعليه قبه صغيرة مختصرة البناء

---

141) (ن 2) كان ذلك كمعمرة .

وأمامه قبر السلالة الطاهرة النبوية ابراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم وعليه قبة بيضاء وبقربه عقيل بن أبى طالب وعبد الله بن أبى جعفر الطيار رضى الله عنهم ، وبأزائهم روضه فيها أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم بأزائها روضه صغيرة فيها ثلاث من بنات النبى (142) صلى الله عليه وسلم تليها روضة العباس بن عبد المطلب والحسن بن على ورأس الحسن الى رجلى العباس رضى الله عنهما وهى قبة كبيرة مرتفعة فى الهواء والقبران مرتفعان عن الارض متسعان مغشبان بألواح ملصقة ابدع الصاق مرصعة بصفائح الصفر ومكوكبة بمسامير على أبدع صفة وأجمل منظر وعلى هذا الشكل قبر ابراهيم بن النبى صلى الله عليهم وسلم وفى آخر البقيع قبر عثمان الشهيد ذى النورين رضى الله عنه ، وعليه قبة كبيرة مختصرة عالية وعلى مقربة منه مشهد فاطمة بنت أسد أم على بن أبى طالب رضى الله عنهما وعلى القبر مكتوب ما ضم قبر أم أحد كفاطمة بنت أسد رضى الله عنهما وعن بنيها ومشاهد هذا البقيع المكرم أكثر من أن تحصى لانه مدفن الجمهور من الصحابة المهاجرين والانصار رضى الله عنهم وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من مات فى أحد الحرمين حاجا أو معتمرا بعثه الله يوم القيامة لا حساب عليه ولا عذاب وفى طريق آخر بعث من الامين يوم القيامة وعن ابن عمر عنه عليه السلام من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فانى أشفع لمن يموت بها وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من جاءنى زائرا لا يهمه الا زيارتى كان حقا على الله سبحانه أن أكون له شفيعا ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من زارنى بعد وفاتى فكأنما زارنى فى حياتى .

وفى كتاب الشفاء لابن سبع رحم الله ان بعض العلماء قال ومما خص الله به نبيه صلى الله عليه وسلم من الآيات الظاهرة والعلامات

---

142) ن 2 من اولاد النبى

143) الجوف: الشمال وقد ذكر شكيب أرسلان توجيهات لهاته الكلمة فى الجزء 1 ص 34 .

الزاهرة الشعاع الذى يرى فوق المدينة كالاكليل يتطاير من موضع لا يخفى على من يتأمله وهذه كرامة أفرد بها المدينة دون سائر البلدان .
والمدينة المكرمة أربعة أبواب وهى تحت سورين فى كل سور باب يقابله باب آخر الواحد منها حديد كله ويعرف بباب الحديد ويليه بـــاب الشريفة ثم باب القبلة ثم باب البقيع المذكور ، وقبل سور المدينة من جهة الغرب بمقدار غلوة هو الخندق الشهير الذكر الذي صنعه النبى صلى الله عليه وسلم عند تحزب الاحزاب وبينه وبين المدينة المكرمة عن يمين الطريق العين المنسوبة للنبى صلى الله عليه وسلم وعليهــا خلــق عظيــم وبنيان مستدير ومنبع العين وسطه كأنه الحـــوض المستطيل ، وتحته سقايتان مستطيلتان باستطالة الخلق ، قد ضرب بين كل سقاية وبين الحوض المذكور جدار، فحصل الحوض محدقا بجدارين وهو يمد السقايتين المذكورتين ويهبط اليهما على أدراج عددها خمسة وعشرون درجا وماء هذه العين المباركة يعم أهل الارض فضلا عن أهل المدينة ، وللمدينة المكرمة سقاية ثالثة داخل باب الحديد يهبط اليها على أدراج وماءها معين وهو بمقربة من الحرم الكريم ، والمدينـــــة الكريمة فى مستو من الارض شريف نزيه وسماها عليه السلام طيبة لان من توجه نحوها يجد رائحة طيبة على مسيرة أميال ، والمدينة المكرمة متسعة الارجاء مشرقة الانحاء طيبة الهواء كثيرة النخيل والماء ممتدة التخطيط والاستواء حسنة الترتيب والبناء لم أر قط ولم أتنشق ءانق من رباها ولا أعبق من صباها ولا أمرع من روضها ، ولا أمرح مـــن أرضها ولا أصفى من جوها ولا أضوأ من ضوئها ، ولا أشرق من نورها وأفتن من زهرها ولا أرق حاشية من أديمها ولا ألصق بنياط القلب من أرجهــا ونسيمهــا .

أحـــب الحما من أجـل من سكـن الحمـــا
ومن أجـــل من فيهـــا تحـــب المنـــازل

ولم أزل الازم ذلك الحرم الشريف مساء وصباحا وأتنعـــم فى روضته الجنة غدوا ورواحا ، وأرسل دمع اللقاء مدرارا ، وأناجـــى الحبيب ليلا ونهارا ، فتهب نفحات القبول من ذلك الجنــاب ، وتتنفــح أرواح الرحمة فأجلى المحبوب من وراء حجاب ، ويزدحم الناس على الروضة المقدسة فتتلقاهم جنات عدن مفتحة لهم الابواب ، وفى كـل ليلة تتجدد لها من اللطائف والتحف ، والطرائف والزلف ، ما تقصـــر الالسن من نعتها ، وما نرى من آية الا وهى أكبر من أختها ، وقد أثبت جميع ما سمعت ، وجميع ما لقيت من ذلك الحرم النبوى الشريــف فى برنامـــج روايتى . وأكبـــر من لقيت بـــه وأفضلهـــم وأعلمهم باللـــه تعالى وأزهدهم وأكملهم الشيخ الامام الاوحد ، ولى الله تعالى أبو محمد بن أسعد بن على اليافعى ، اليمنى الشافعى ، رضى الله عنه هو أجل العلماء العابدين وأفضل الاولياء الزاهدين ، وأحفل الادباء البلغاء الماجدين آثر الفقر عن الغنى ، واختار الآخرة على الدنيا وتبدل مـــن الجياد ، بالوهاد ، واعتاض من اللدونة بالخشونة فقطع العلائق ، وهجر الخلائق ، ورأى الدنيا ساعة فجعلها طاعة ، وشمر للعبادة كل التشمير وبالغ فى الزهادة حتى ما أبقى من فتيل ولا قطمير ، فخرج من مواطنه الى بلاد اليمن سائحا وانقطع لعبادة مولاه شابا صالحا، مفارقا للامرة، وهاجر دياره الى دار الهجرة ، فاشتهر علما وعقلا ، واشتغل بالحـــق عن الخلق وكفى بالعبادة شغلا ، واستنفد فى طاعة مولاه الجهـــد ، واستشهد فى دنياه الجهد ، وآثر الرغبة عنا والزهد ، وتسوغ صابهـــا كما يتسوغ الشهد ، وأطال فى حنادسها السهد ، وواصل الصيام والقيام حتى أفنى العظم والجلد ، ولقد عاينته وقد الصق بالارض الخـــد وأرسل دموعه حتى سقت الثرى والنجد ، وعلا صياحه متأوها باكيـــا حتى كاد أن يبكى الحجر الصلد . فيرحمه من شاهدوه قد فنى ويرتجى له الخلـــد . فاستقر بالحرم النبوى الشريف وقر فى ذلك الجنات العالى المنيف ، وقسم مجاورته الكريمة . بين الحرمين الشريفين مكة والمدينة

فتارة يكون فى جوار بيت الله ، وتارة يسكن فى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وشرف وكرم . لم يزل على ذلك منذ سنين ، فله من الحجج ما ينيف ، على الخمسين ، ما ملك زيادة على ستر عورته ولا علم أحد من أين يأتيه سد جوعته ، وقد رفع العلم قدره ، واحتقرت العين طمره ، ولو اقسم على الله لأبره :

رب ذي طمرين نضو يأمن العالم شره
لا يرى الا غنيا وهو لا يملك ذره
ثم لو أقسم فى شىء على الله أبره (1)

لقيته بالحرم النبوى الشريف فسمعت منه ، ورويت عنه ، وظهرت لى بركة لقائه ، وأجابة دعائه . نفعنا الله به وبأوليائه وسمعت من لفظه كثيرا من تأليفه الذي سماه كتاب الارشاد والتطريز . فى فضل

---

1) مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم ، كم من أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لابره ، أخرجه الترمذى عن أنس بن مالك ، انظر سنن الترمذي (كتاب المناقب) ، باب 54 — 65 — ، وذكر أبو عمر بن عبد البر فى كتاب الاستيعاب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كم من ضعيف متضعف ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لابره فمنهم البهاء بن مالك ، وأخرج البخاري عن حارثة بن وهب الخزاعى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لابره (كتاب البخاري ، كتاب الايمان — باب 9) وأخرج مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رب أشعث مدفوع بالابواب لو أقسم على الله لابره .

ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز ، وفضل الاولياء والناسكين والفقراء والمساكين ، وهو تأليف بديع السلك ، وأجازه لى وأذن لى فى روايته عنه وأجازنى اجازة تامة وأنشدنى منه قصائد عديدة لنفسه ، من ذلك قصيدة طويلة أحسن فيها ما شاء وأجاد وأولها .

قفى حدثينا من حديث الاحبة   وقد سكروا من كاس راح المحبة
وأقمار حسن قد تجلت ليجتلوا   عرائس أنوار عن الوصف جلت

ومن ذلك قصيدته التى أولها :

تركت هوى ليلى وسعدي بمعزل   وعدت الى تصحيح أول منزل
ونادت بى الاشواق مهلا فهذه   منازل من تهوى رويدك فانزل

وأنشدني لنجم الدين الاصبهاني :

وقد أوطأت نعلى كل أرض   وقد أتعبت نفسى باغتراب
وقد طوفت فى الافاق حتى   رضيت من الغنيمة بالاياب

ومن أعظمهم رياسة ، وأكرمهم سيادة وسياسة ، الشيخ العالم الرئيس جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف الخزجي المصرى (1) السعدى العبادى رضى الله عنه ذو المجادة والاصالة ، والسيادة المأثورة والجزالة ، والحفظ لرسوم العلم والجلالة ، الذي عم بالوفد ، وشهد بالرفد ، وتبوأ بحبوحه المجد ، وسار سيرة الصلحاء الاخيار وورث الاعمال البرة من أسلافه ، وتقيل ذروة العز المكينة ، وأشير اليه بالسمت والعدالة والسكينة ، كبير الرؤساء ، وأثير الكرماء ، وعارض النعماء ، وفاضل العلماء وكامل السؤدد والعلاء ، عكف على

---

1) فى بعض النسخ المطري .

اسماع الحديث واقامة السنة ، لقضاء أوطار أهل الاوطار : لا واهى الهمة ولا ضعيف المنه ، لقي الصدور الاكابر ، فوعي صدره علما كبيرا وسقى زلال الحكمة فأحيا الله به انعاما واناسى كثيرة .

جزته جوازى الخير عنهم عانه   سقاهم بشؤبوب من العدل ساجم

فقد سار فيهم سيرة لم يسر بها   من الناس الا مثل كعب وحاتم

لقيته بالحرم النبوى الشريف تجاه الروضة المقدسة : فسمعت عليه كثيرا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . الاربعين حديثا التى خرجها له الامام الحافظ علم الدين البرزالى الدمشقى فى كتاب الزيارة لابى اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب بن عساكر ، وحدثنى بها عن أبى اليمن بن عساكر المذكور سماعا عليه ، وأجازنيها مع جميع ما يحمله ويرويه اجازة تامة مطلقة عامة ، ومولده فى سنة ست وسبعين وستمائة وما برحت فى ذلك الحرم النبوى الشريف فى بلوغ سول ، ومجاورة اكرم نبى ، وأفضل رسول ، الى أن وصلت الركبان الشامية التى كنا خلفنا خلفنا ، فخرجنا باثر وصولهم ، وهبت علينا نفحات القبول والتكرم ، والشوق فى كل ذلك مكتنف ولا دمع الا منذرف : ولا قلب الا مختطف .

ولولا الترجى للمحبين لم تكن   قلوبهم يوم النوى تعمر الدرا

وكان خروجنا من المدينة الكريمة فى ضحوة يوم الاثنين الثالث والعشرين لذي القعدة المذكورة وسرنا نكفكف أمطار الدموع ، ونخلف المدينة الكريمة بالطرف الرامق والقلب الولوع، وقلبى يتوقف ويتخوف على اللحاق ، ويتخلف عن الرفاق من فرق الفراق ، بعد فرح التلاق فصارعت مرامه وأنشدت أمامه :

لله أي هوى برامه حيث القلوب المستهامه
لم يبق قلب فى الحمى الا وقد أعطى زمامه
بالله يا حادي القلو ب اذا رجعت مع السلامة
فاخدع فؤادى علـه يرعى لمنزله ذمامه

حتى انتهينا الى ذى الحليفة وهى على خمسة أميال من المدينة أحرم من هناك أكثر الناس بالحج مفردين ، وقارنين ومتمتعين . فأحرمت منها بحجة مفرد ، ومنها أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنها هو حرم المدينة الكريمة الى مشهد حمزة رضى الله عنه الى (قبا) ثم سرنا ملبين راغبين لله تعالى مبتهلين ، ولم نزل نسير فى تلك الاودية وهجيرها يلفح . وزفيرها لا يكف عنا ولا يصفح الى أن وافينا وادى الصفراء فنزلنا على نعيمه الذي به حبيبت الذماء ، وان هو الا الاسودان التمر والماء ، وسرنا الى أن نزلنا ببدر وهناك يجتمع من مصر والشام الطريقان ، ويتألف منهما الفريقان . وبمنزلنا ذلك اجتمعنا مع الركب المصري والمحمل الآمري فروينا من عذب ذلك الماء ، وزرنا مشاهد الصحابة الشهداء . ثم رحلنا الى أن وردنا ماء (رابغ) بقرب الجحفة فأحرم هنالك من كان دون احرام . وارتحلنا محرمين الى بلد حرام . الى أن وصلنا (خليص) فوردنا فى ماءها النمير . وتزودنا نموها الكثير ، وارتحلنا الى أن وصلنا الى بطن (مرو) وقد أنسنا بدنو المرام . والاقتراب من بيت الله الحرام . فأدركنا فى تلك الطريق الظلال بقية المقيل ، وخيمنا بين متكاثف ذلك النخيل ، وسرنا الى أن وصلنا مكة شرفها الله تعالى فدخلناها من كداء الثنية التى بأعلاها فى ضحوة يوم السبت الخامس لذى حجة من العام المذكور . والاصوات تصافح الآذان بالتلبية ، والالسنة تضج بالرغبى (145)

---

145) الرعياء مثل الرغبى ، من رغب اليه = ابتهل .

والادعية فياله يوما طرز به العمر وانشرح له الصدر ، ووضع فيه الوزر وأجزل الثواب والاجر . فأعظم بحرمة حرمته وأكرم بمسائه وصحبته وأعبق بكافور غدوته ، وزعفران عشيته ، وعنبر ليلته ؛ وفى ذلك يقول صاحبنا نجم الدين أبو الحسن على بن داوود بن يحيى بن كامل الحنفى الدمشقى ونظمها قبل الوصول الى الكعبة شرفها الله تعالى .

ليلة الوصل بالمليحة أهـــلا بـك يا غايـة الامانـى وسهـلا
طال عمر الصدود دونك حتـــى كدت أقضـى أسى واعدم عقـلا
قد أشاب الفراق راسى حتـــى ظننـى الناس فى الشبيبة كهـلا
يا ليالى الوصال لا صرم الدهـر لنا بعد مـا بلغنـاك حبـلا
كـم بكيناك بالدموع اشتياقـا لا نبالى فى ذاك لومـا وعـذلا
وركبنا نجائب السهـر نطـوى من قفار الافكار وعرا وسهـلا
ولعمرى جميـع ذلـك حلـو غير أن الوصال والله أحـلا
يا جفونـى لك الهنـاء تقضـى زمن البعـد والجفـا وتخـلا
فتملـى بما تمنيـت هـذا ربـع مـى وهذه مـى تجـلا
فاجعلى دمعـك المصون نثـارا فهو أعلـى من اللئالـى وأغلـلا
أترى هـذه منـازل مـى عن يقـين وهـذه مـى أم لا
وهل الدهـر جامـع لمحـب بـك يا حلوة الشمائـل شمـلا
لا تلومى على الجهالـة صبـا لا يرى غير شغله بـك شغـلا
كـان قبـل الهوى عزيـزا فلمـا ذاق طعم الهوى استكـان وذلا
فغدا يبصر الشقـاء نعيمـا ويعـد المـلام فى الحـب جهـلا
طاب يا ربة الستـور سقامـى عندما طاب فى هـواك وجـلا

وأذاب البعاد جسمــى نحــولا وانقضى بالصدود عمــرى وولا
ثم زال الشقا وفــزت بوصــل منــك أعلى مــن الحيــاة محــلا
وبلغت المنــى فلســت أبالــى أقبل الدهــر بعــد ذا أم تولــى

وحين حمدنا السرى ، ووصلنا الى أم القرى وعلمنا أننا أضياف الله فدخلنا منه بأحسن القرى وتبدت لنا الكعبة الغراء فى أستارهــا ، وتجلت لنا المليحة فى حلل أنوارها .

وضعنا جباها فى الثرى قد تهللــت أساريرها منها وزاد سرورهـــا
وطفنا بهــا سبعا وزفت ظلالهــا علــى خائف مثلى أتى يستجيرها

وحين وقع نظرى عليها ، ومثلت لديها ، أنشدت مرتجلا بلسان الخضوع ، وكتبت خجلا بماء الدمــوع .

الهــى هــذا البيت بيتــك جئتــه وعادة رب البيت أن يكرم الضيفا
فهب لى قرى فيه رضاك واننــى من النار خوفــى فلتؤمنى الخوفا

وأخذنا نطوف طواف القدوم ، ونعرف ما لنا من الكرامة بموجوده على المعدوم ، وقضينا الانساك مهتدين فى قضائها ، مقتدين فى شروع أدائها ، وعدنا الى البيت الحرام نطوف به ونستلم ، ونقبل أركانه ونلتزم، ونصبر عند تقبيل الحجر على الاصطدام والاضطرام ، ونغتفر الزحام عند الورود على منهله والمنهل العــذب كثير الزحام ، ونستنزل الالطــاف ونستلذ المقام بين الركن والمقام ، ونشرب من ماء زمزم مــا يروى الاوام ، ويبرى من السقام ، والقلب يتشبث بأهداب تلك الخيام ، ويوطن نفسه دون بقية الجسد على المقام ، والطرف يذرف دموع المذنب الخاطى، واللسان يردد لنجم الدين مهلل بن محمد الدمياطى :

يروق لى منظر البيت العتيق اذا بدا لطرفى فى الاصباح والطفـل
كـان حلته السوداء قـد نسجت من حبـة القلب أو من أسود المقل

والبيت المكرم له أربعة أركان ، وهو قريب من التربيع ودكر أن ارتفاعه فى الهواء من السطح الذي يقابل الصفا وهو بين الحجر الاسود واليمانى تسع وعشرون ذراعا وسائر الجوانب ثمان وعشرون بسبب انصباب السطح الى الميزاب فأول أركانه الركن الذى ميه الحجر الاسود ومنه ابتداء الطواف ويتقهقر الطائف عنده قليلا كأنه يمس جميعـه بيده والبيت المكرم عن يساره وأول ما يلقى بعده الركن العراقى وهو ناظر الى جهة الشمال ثم الركن الشامى وهو ناظر الى جهة المغرب ثم الركن اليمانى وهو ناظر الى حيز الجنوب ثم يعود الى الركن الاسود وهو ناظر الى جهة المشرق وعند ذلك يتم الطائف شوطا واحدا ومـن الركن الذى فيه الحجر الاسود الى الركن العراقى أربعة وخمسون شبرا وذلك داخل الحجر ، وأما من خارجه غمنه اليه أربعون خطوة وهـى مائة وعشرون شبرا ومن خارجه يكون الطواف . ومن الركن الشامى الى الركن اليمانى ما من الاسود الى العراقى لانه الصفح الذى يقابله ومن اليمانى الى الاسود ما من العراقى الى الشامى داخل الحجـر لانه الصفح الذى يقابله أيضا وباب البيت المكرم فى الصفح الذى بين ركن الحجر الاسود والركن العراقى وهو قريب من الحجر الاسـود بعشرة أشبار وذلك الموضع الذى بينهما من صفح البيت يسمى الملتزم وهو موضع استجاب الدعوة على ما ورد عن النبى صلى الله عليـه وسلم ومن الحجر الاسود الى الارض ستة أشبار فالطويل يتطامـن لتقبيله والقصير يتطاول لـه والحجر الاسود مرأى بديع ورونق صقيل هو قيد الابصار حسنا وفى وسطه مما يلى جانبه الذى على يمين المستلم له اذا وقف نقطة بيضاء صغيرة مشرقة تلوح كأنها خال فى تلك الصفحة المباركة ، وفى هذه الشامة البيضاء أثر أن النظر اليها يجلو البصر فيجب

على المقبل أن يقصد بتقبيله من الشامة المباركة ما استطاع ، وللحجر عند تقبيله لدونة ورطوبة يتنعم بها الفم حتى يود اللاثم ان لا يقلع فمه عنه فهو أعذب من رضاب الكعاب ، وأشهى من شم العرب الاتراب، وتلك من خواص العناية الالاهية فيه ، روى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : انزل الحجر من الجنة أشد بياضا من اللبن ، فسودته خطايا بنى آدم . وروى الترمذى أيضا من طريق عبد الله بن عمر أن الحجر الاسود والركن اليمانى ياقوتان من الجنة ولولا ما طمس من نورها لاضاءتا ما بين المشرق والمغرب ، وفى رواية غيره ولابرءا من استلمهما من الخرس والجذام والبرص ومن حديث ابن عباس أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحجر والله ليبعثنه الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق يشهد على من استلمه بحق وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : كنت طائفا مع النبى صلى الله عليه وسلم بيت الله الحرام فقلت فذاك أبى وأمى ما هذا البيت . فقال يا على أسس الله تعالى هذا البيت فى دار الدنيا كفارة لذنوب أمتى . فقلت : فذاك أبى وأمى يا رسول الله ما هذا الحجر الاسود . قال : تلك جوهرة كانت فى الجنة أهبطها الله الى الدنيا لها شعاع كشعاع الشمس فاشتد سوادها وتغير لونها مما مسها من أيدى المشركين .

وفى حديث آخر قال دحيت الارض من مكة وأول من طاف بالبيت الملائكة وما من نبى هرب من قريـة (146) الا هرب الا الله بمكة يعبده بها حتى يموت وأن قبر نوح وهود وصالح وشعيب واسماعيل فيما بين زمزم والمقام .

---

146) قرية فى بعض النسخ من قومه .

وفى حديث آخر أن حول الكعبة من قبور الانبياء ثلاثمائة قبر نبىء وان ما بين الركن اليمانى والركن الاسود لقبور سبعين نبيا (147) .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال الركن يمين الله فى الارض يصافح بها عباده كما يصافح أحدكم أخاه وان الركن والمقام ياتيان يوم القيامة كل واحد منهما مثل أبى قبيس لهما عينان وشفتان يشهدان لمن وافاهما (148) بالوفاء .

وروى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما أتيت الركن اليمانى قط الا وجدت جبريل عنده قائما يقول يا محمد استلم .

وفى حديث آخر أنه قال ما أتيت الركن اليمانى قط الا وجدت عنده جبريل عليه السلام قائما يقول يا محمد استلم ، وفى حديث آخر أنه قال ما آتيت الركن اليمانى قط الا وجدت عنده جبريل وهو يقول يا واحد يا ماجد لا تسلبنى نعمة أنعمت بها على ، وفى حديث ابن عباس قال وقف جبريل عليه السلام وعليه عصابة خضراء قد علاها الغبار فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذا الغبار الذى علا عصابتك أيها الروح الامين قال ان الملائكة أمروا بزيارة هذا البيت فازدحمت على الركن فهذا الغبار الذى ترى ما تثير الملائكة بأجنحتها .

وروى أن عباس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل ينزل كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة على هذا البيت ستون للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين .
(والباب الكريم) مرتفع من الارض بأحد عشر شبرا أو نصف وهو من

---

147) (زاد فى ن 2) وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : الكعبة محفوفة بسبعين الف من الملائكة يستغفرون لمن طاف بها ويصلون

148) (ن 2 و 3) لمن راياهما .

غصة مذهبة الصنعة رائق الصفة يستوقف الابصار حسنا وخشوعا للمهابة التى كسا الله بيته وعضادته كذلك والعتبة العليا (149) كذلك وعلى رأسها لوح ذهب خالص ابريز فى سعته مقدار شبرين وللباب نقرتا غضة كبيرة تان يتعلق عليهما قفل الباب وهو ناظر للشرق وسعته ثمانية أشبار وطوله ثلاثة عشر شبرا وغلظ الحائط الذى ينطوى عليه الباب خمسة أشبار وداخل البيت المكرم مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كلها رخام مجزع قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج مفرطة الطول متوسطة فيه وبين الاعمدة أقواس من الغضة عددها ثلاثة عشر ، واحدها من ذهب خالص وظاهر البيت كله من الاربعة الجوانب مكسو ستورا من الحرير الاكحل وفى أعلاها رسم بالحرير الابيض فيه مكتوب :

(ان أول بيت وضع الناس الذى ببكة(1) مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفرفان الله غنى عن العالمين) ، واسم الخليفة الامام وفى سعته قدر ثلاثة أذرع يطيف بها كلها قد شكل فى هذه الستور من الصنعة الغريبة أشكال محاريب رائقة ورسوم مقروءة مرسومة بذكر الله تعالى وبالدعاء للامام العباسى الآمر باقامتها وعدد الستور من الجوانب الاربعة أربعة وثلاثون سترا ، وقد وصلت كلها فجاءت كأنها ستر واحد يعم الجوانب الاربعة محيطة الاعلى والاسفل وثيقة العرى والازار لا تخلع الا من عام الى عام عند تجديدها . فسبحان من خلد لهذا البيت الكريم الشرف الى يوم القيامة (والبيت العتيق) مبنى بالحجارة الكبار الصم قد رص بعضها على بعض والصقت بالعقد الوثيق الصاقا لا تحيله الايام ولا تفصمه الازمان وله خمسة مضاو عليها زجاج عراقى بديع النقش وفيه باب يسمى باب الرحمة يصعد منه الى سطح البيت الكريم داخله الادراج ولمعاينة البيت الكريم هول

149) ن 2 العقبة وصفها بالعليا .

(1) سميت مكة (بالميم) لقلة مائها من قول العرب مك الفصيل ضرع امه من اللبن وامتكه اذا امتص كل ما فيه .

يشعر النفوس الذهول ، ويطيش الافئدة والعقول ، فلا تبصر الا لحظات خاشعة وعبرات هامعة والسنة الى الله تعالى داعية ضارعة لا يمل النظر اليه ولا يسأم الطواف به ، ولا يبرح التلفت له ، ولا تزال القلوب مشغوفة بحبه اذا غابت عنه ابدا (هذا البيت المكرم) وهو عروس الفلك الارضى ، واقتضى النص أنه أول موضع للناس .

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع الناس فقال المسجد الحرام ثم بيت المقدس وسئل كم بين وضعهما فقال أربعون سنة وفى الخبر أول ما خلق الله القلم وأول مسجد وضع فى الارض المسجد الحرام وأول جبل وضع فى الارض أبو قبيس وقيل ان أول من بناه فى الارض آدام عليه السلام ولما أهبط من الجنة قالت له الملائكة طف حول هذا البيت فقد طفنا به قبلك بألفين ودحيت الارض من تحته ، وقيل أول من بناه ابراهيم (150) عليه السلام ثم بناه قوم من العرب من جرهم ثم هدم فبنته العمالقة ثم هدم فبنته قريش .

وروى أبو هريرة قال : كانت الكعبة زبدة بيضاء على وجه الماء عليها ملكان يسبحان الله تعالى قبل خلق الارض بألفى سنة وسئل على رضي الله عنه عن أول بيت وضع فى الارض فقال له انه كان قبل هذا البيت بيوت كثيرة ولكنه أول بيت وضع الناس مباركا فيه الهدى والرحمة والبركة ، وقد ورد فى الآثار ان ابراهيم عليه السلام لما بنى الكعبة أمره الله سبحانه أن يقف على جبل من جبال الارض وأحياله الاولين والآخرين الى يوم القيامة وأمره أن ينادي فى الناس أن ربكم بنى بيتا فحجوه فأجابه كل من سبق القضاء بحجه واحياهم حتى سمعوا خطابه وهو أحد الاحياءات الخمسة التى يتطور فيها الآدمى وينام فيها وقيل أنه كان فى موضعه بيت فرفع الى

---

150) ن 3 بناه فى الارض .

السماء الرابعة فالملائكة تطوف به فى السماوات كالبيت الذى بمكة ، وقد صح فى الشريعة وتواتر أنه أحب بقاع الارض الى الله وانما سميت بكة لانها تبك أعناق الجبابرة وتقطعهم وقيل لان الناس يتبكون فيها أى يزدحمون فى أيام الحجيج وبكة ومكة اسمان على مسمى واحد وقيل مكة البلد وبكة موضوع المسجد والصحيح هو الاول والمراد من الوضع المذكور فى الآية أن الله سبحانه وضعه متعبدا للناس وقبلة لهم تنبيها على تخصيصه وتشريفه ووصفه بالبركة ظاهر لانه يحمل لمن حجه أو اعتمره الخير والزيادة التامة وتكفير الذنوب والآيات التى فيه هى مقام ابراهيم وأمن من دخله ، وأثر القدم فى الصخرة الصماء وغوصه فيها الى الكعبين . . .

واثباته الى الآن مع ذهاب سائر آيات الانبياء وحفظه مع كثرة أعدائه كما قال تعالى ويتخطف الناس من حولهم (وورد فى الأثر) أنه لما ارتفع بنيان الكعبة وضعف ابراهيم عن رفع الحجارة وقام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه ، ولما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الكعبة قال مرحبا بك من بيت ما أعظمك وأعظم حرمتك . وفى الحديث عنه عليه السلام ما من أحد يدعو الله عند الركن الاسود الا استجاب الله له ، وكذلك عند الميزاب وعنه عليه السلام من صلى خلف المقام ركعتين غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وحشر يوم القيامة من الآمنين ، ومن آيات البيت العتيق أنه قائم وسط الحرم الشريف كالبرج المشيد وله التنزيه الاعلى ، وحمام الحرام لا تحصى كثرة وهى من الامن بحيث يضرب المثل بها ولا سبيل ان تنزل بسطحه الاعلى حمامه ولا تحل بوجه ولا على حال فترى الحمام يتخلل على الحرم كله فاذا قربت من البيت عرجت عنه يمينا أو شمالا والطيور سواها كذلك وفى أخبار مكة أنه لا ينزل عليها طائر الا عند مرض يصيبه فاما يموت لحينه أو يبرأ فسبحان من أورثه التشريف والتكريم ، ومن آياته أيضا أن بابه الكريم يفتح فى أيام معلومة والحرم قد غص بالخلق فيدخله

الجميع ولا يضيق عنهم بقدرة الله عز وجل ولله الآيات البينات البراهين المعجزات . سبحانه وتعالى : ومن عجائب اعتناء الله تبارك وتعالى به أنه لا يخلو من الطائفين ساعة فى نهار ولا وقتا من ليل فلا تجد من يخبر أنه رءاه دون طائف به فسبحان من كرمه وعظمه ، وموضوع الطواف مفروش بالرخام البديع وقد اتسع عن البيت بمقدار تسع خطى وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض ، وطواف النساء فى آخر الرخام المفروش ، وقد جدد ترصيعه ونمق تنميقا بديعا فيه تواريخ مرسومة ومنها ما نصه « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة المطاف الشريف سيدنا ومولانا الامام الاعظم ، المفروض الطاعة على سائر الامم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المومنين ، بلغه الله آماله ، وزين بالصالحات أعماله ، وذلك فى شهر وسنة احدى وثلاثين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله (والحجر) من الركن العراقى الى الركن الشامى يقابل الصفح الذى فيه الميزاب ، وفى ارتفاع جدار الحجر ستة أشبار ، وسمته أربعة أشبار ونصف وداخل الحجر مفروش بالرخام المجزع المقطع فى دور الكف الى دور الدينار الى ما فوق ذلك ودونه . ثم الصق بانتظام بديع وتأليف عجيب معجز الصنعة غريب الاتقان رائق الترصيع والتجزيع وفى صحن الحجر بمقربة من جدار البيت المكرم قبر اسماعيل عليه السلام ، والى جانبه مما يلى الركن العراقى قبر أمه هاجر رضى الله عنها ، والميزاب فى أعلى الصفح الذي على البيت بمقدار أربعة اذرع وسعته مقدار شبر ، وقد خرج عن صفح الحجر المذكور من صفر مذهب يغشى الابصار ، وهذا الموضع تحت الميزاب ، وهو أيضا مظنة استجابة الدعوة (بفضل الله تعالى) (152) وموضوع المقام الكريم وهو الذى يصلى خلفه يقابل ما بين الباب الكريم والركن العراقى ، وعليه قبة خشب مركنة محدودة بديعة النقش ، قد نصبت على الموضع الذي كان فيه المقام وبازاء المقام

---

(152) هذه الجملة لا توجد فى نسخة 2 .

الكريم منبران كبيران حسنان فيهما ضروب من قطع الخشب الملون (153) المتخير المنتقى المستجاد ، والجديد منها منقش من جميع جهاته ووجوه درجه وتاجه المذهب بأبدع نقش وأحدقه ، وصنائعه مقسومة على تصنيف وتشجير منطبعة كانطباع نسيج الديباج الهاشمى واليوسفى فى الاعتدال والرونق مسمر بمسامير الفضة الخالصة المذهبة ، مقضب بصفائح الفضة المرغشة منقوش عليه برسم الذهب ما نصه : (مما عمل برسم الحرم الشريف فى شهور سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة) .

ومن فضائل البيت الشريف ما خصه الله تعالى به من بئر زمزم وما جعله الله فى هذا الماء . من الفوائد والمنافع لكل ما شرب له فمن ذلك ما رواه جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماء زمزم لما شرب له ومنها ما رواه ابن العباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق ، ومنها ما رواه الضحاك بن مزاحم قال : بلغنى أن التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق وان ماءها يذهب بالحمى والصداع وان الاطلاع فيها يجلو البصر وانه سيأتى عليها زمان تكون فيه أعذب من النيل والفرات وقبة بير زمزم تقابل الركن الاسود ، ومنها اليه أربع وعشرون خطوة وداخلها مفروش بالرخام الابيض الناصع البياض (وتنور البير) المباركة فى وسطها وهو من رخام قد ألصق الصاقا لا تحيله الايام وقد حف به من أعمدة الرصاص الملصقة ابلاغا فى قوة لزه ورصه اثنان وثلاثون عمودا قد خرجت لها رؤوس قابضة على حافة البير دائرة بالتنور كله ودوره أربعون شبرا وارتفاعه أربعة أشبار ونصف وغلظه شبر ونصف وقد استدارت بداخل القبة سقاية لملأ ماء للوضوء وحولها مصطبة دائرة يرتفع الناس اليها ويتوضئون عليها وفى ماء زمزم أمر عجيب وذلك أنه اذا شرب عند خروجه من

---

153) ن 2 الخشب المكون .

قراراته يوجد حاسة الذوق كاللبن عند خروجه من الضرع دفيئا وهو لما شرب له ، واذا صب منه من يجد أعياء أو كسلا من أمر متعب للبدن وجد الراحة والنشاط عليه وبظاهر جدار القبلة المباركة مكتوب بالخط الرائق المذهب ما نصه ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من طاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين وشرب من ماء زمزم غفر الله ذنوبه كلها بالغة ما بلغت تقبل الله ممن عمل بهذا الحديث ، ودعا لمن أسس هذه السنة الحسنة من هذا الحرم الشريف فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة .

وتلى قبة بير زمزم من ورائها قبة الشراب وهى المنسوبة للعباس رضى الله عنه لانها كانت سقاية الحاج ، وهى كذلك له لان فيها يبرد ماء زمزم وتلى هذه القبة العباسية على انحراف عنها قبة أخرى وهاتان القبتان مخزنان لاوقاف البيت الكريم من مصاحف وكتب وشمع وغير ذلك والمسجد الحرام تطيفه به من جهاته الاربع ثلاث بلاطات على ثلاث سوار من الرخام منتظمة كأنها بلاط واحد ، ذرعها فى الطول أربعمائة ذراع وفى العرض ثلاثمائة ذراع فيكون تكسيره محققا ثمانية وأربعين مرجعا وعدد سواريه الرخامية أربعمائة سارية وأربع وثمانون سارية حاشا الجبصية التى منها فى دار الندوة وعند باب ابراهيم .

(وللحرم الشريف) أربعة أئمة وكل واحد من الائمة الاربعة صلاته تحت حطيم له مصنوع من الخشب البديع النجارة ، فالمالكية تصلى قبالة الركن اليمانى ، والشافعية خلف المقام والحنفية قبالة الميزاب فى البلاد الآخذ من المغرب الى الجنوب والحنبلية تقابل ما بين الحجر الاسود والركن اليمانى فى البلاط الآخذ من المغرب الى الشمال . ويطيف بهذه المواضع كلها دائر البيت العتيق وعلى بعد منه يسيرا مشاعيل توقد فى صحاف من حديد فوق خشب مركوزة فيتقد الحرم الشريف كله نورا ، وتوضع بين أيدى الائمة فى محاريبهم وللحرم الشريف سبع صوامع أربع فى الاربعة الجوانب وواحد فى دار الندوة ، وأخرى على باب الصفا وأخرى على باب ابراهيم وللحرم الشريف نيف وأربعون

بابا ، ولها أسماء منها باب القائــد ويسمى أيضا باب الخياطين وبــاب العباس رضى الله عنه وباب على رضى الله عنه وباب بنى شيبه وباب الرباط وباب الندوة وباب دار المجلة وباب السدة وباب العمرة وباب ابراهيم عليه السلام وباب جزورة وباب جياد وباب غزوة ، ومن باب الصفا الى باب الصفا ست وسبعون خطوة والصفا أربعة عشر درجا ، وهو على ثلاثة أقواس مشرفة والدرجة العليا متسعة كأنها مصطبة وقد أحدقت به الديار وفى سعته سبع عشرة خطوة ، والميل سارية خضراء وهى خضرة صياغية وهى الى ركن الصومعة التى على الركن الشرقى من الحرم الشريف وفيها يرمل فى السعى الى الملين الاخضرين ، وهما أيضا ساريتان خضراوان على الصفة المذكورة الواحدة منهما بازاء باب على رضى الله عنه فى جدار الحرم الشريف وعن يسار الخارج من الباب والميل الآخر يقابله فى جدار دار وعلى كل واحد منهما بأزاء لوح قد وضع على رأس السارية كالتاج منقوش فيه برسم مذهب « ان الصفا والمروة من شعائر الله » (الآية) ، وبعدها أمر بعمارة هذا الميل عبد الله وخليفته أبو محمد المستضىء بأمر الله أمير المومنين أعز الله نصره ، سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة . فجميع خطا الساعى من الصفا الى الروة أربعمائة خطوة وثلاث وتسعون (154) خطوة ، وادراج المروة خمسة وهــــى بقوس واحد كبير ، وسعته سعة الصفا سبع عشرة خطوة والخطوة ثلاثة أقدام ، وما بين الصفا والمروة (مسيل) هو اليوم سوق حافلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب والمبيعات وغيرها . ومكة شرفها الله تعالى هى بلدة قد وضعها الله تعالى بين جبال محدقة بها وهى بطن واد مقدس كبيرة مستطيلة تسع من الخلائق عددا لا يحصيهم الا الله عز وجل وهى البلد المباركة التى سبقت لها ولاهلها الدعوة الخليلية الابراهيمية ، قال الله عز وجل : « أو لم نمكن لهم حرما آمنا تجبى اليه ثمرات كل شىء » فبرهان ذلك فيها ظاهر الى يوم القيامة ، وذلك أن أفئدة الناس تهوى

154) ن 2 وثلاث وسبعون ، وهو خطأ .

اليها من الاصقاع النائية ، والاقطار الشاحطة ، فالطريق اليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة والثمرات تجبى اليها من كل مكان ، فهى أكثر البلاد نعما وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر ، ولو لم يكن لها من المتاجر الا أوان الموسم ، ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب فيباع فيها فى يوم واحد فضلا عما يتبعه من الايام من البر الى الدر ، ومن الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت وسائر الاحجار من أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعقاقير الهندية الى غير ذلك من جلب الهند والحبشة الى الامتعة العراقية واليمانية الى السلع الخراسانية ، والبضائع المغربية ، الى ما لا ينحصر ولا ينضبط ، ما لو غرق على البلاد كلها لا قام لها الاسواق النافقة ، وعم جميعها بالمنفعة التجارية حاشا ما يطرأ بها مع طول العام من اليمن وسواها فما على الارض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر الا وهى موجودة فيها وهى تغص بالنعم والفواكه والخضر على اختلافها ولا تنقطع منها مع طول العام ولكل نوع من هذه الانواع فضيلة موجودة فى حاسة الذوق فيفضل فيها أنواعه الموجود فى سائر البلاد فهذه بركة لا خفاء لها (ولها ثلاثة أبواب) أولها باب المعلى ومنه يخرج الى الجبانة المباركة وهى بالموضع الذى يعرف بالحجون وعن يسار المار اليها جبل فى أعلاه ثنية عليها علم شبيه البرج يخرج منها الى طريق العمرة وتلك الثنية تعرف بكداء بفتح الكاف والمد وهى التى عنى حسان بقوله (تثير النقع موعدها كداء) . وعن يمينك اذا استقبلت الجبانة المذكورة مسجد فى مسيل بين جبيلين يقال أنه المسجد الذى بايعت فيه الجن النبى صلى الله عليه وسلم وبهذه الجبانة المباركة مدفن جماعة من الصحابة والتابعين ، والاولياء والصالحين رضوان الله عليهم أجمعين ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من مات فى أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا وقال عليه السلام الحجون والبقيع يوخذ بأطرافهما وينتشران فى الجنة ووقف عليه السلام على ثنيه الحجون وليس بها يومئذ مقبرة فقال يبعث الله تعالى من هذه

البقعة ومن هذا الحرم يوم القيامة سبعين ألفـا فيدخلون الجنة بغير حساب . يشفع كل واحد منهم فى سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلـة البدر . وعلى هذا الباب المذكور طريق الطائف وطريق العراق والصعود الى عرفات ، وهذا الباب المذكـور بين الشرق والشمال وهو للشـرق أميل ، (ثم باب المسفل) وهو الى جهة الجنوب وعليه طريق اليمن ومنه كان دخول خالد بن الوليد رضى الله عنه يوم الفتح . ثم باب الزاهر ويعرف أيضا بباب العمرة وهو غربى ، وعليه طريق مدينة الرسـول صلى الله عليه وسلم وطريق الشام وطريق جدة ومنه يتوجه الى التنعيم وهو أقرب ميقات المعتمرين ، يخرج من الحرم اليه على باب العمرة ، ولذلك خصص بهذا الاسم ، والتنعيم من البلد على فرسخ وهو طريق حسن فسيح فيه الآبار العذبة التى تسمى بالشبيكة ، وعندما تخرج من البلد بنحو ميل تلقى مسجدا بازائه حجر موضوع على الطريق كالمصطبة يعلوه حجر آخر مسند فيه نقش دائر الرسم يقال انه الموضع الـذى جلس فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مستريحا عند مجيئه مـن العمرة ، فيتبرك الناس بتقبيله ومسح الخدود فيه وحق لهم ذلك ، وعلى جانبى الطريق من هذا الموضوع جبال أربعة جبلان من هنا وجبلان من هنا عليها أعلام من الحجارة ، يقال انها الجبال المباركة التى جعل ابراهيم عليه السلام اجزاء الطير عليها ، ثم دعاهن حسبما ذكرا الله فى كتابه ، ثم بعد هذا الموضوع بمقدار غلوة تلقى على قارعة الطريق المتوجهة الى العمرة من جهة اليسار قبرين قد علتهما أكوام من الصخر العظـام يقال أنهما قبرابى لهب وامرأته فما زال الناس فى القديم الى هلم جرا يتخذون سنة رجمهما بالحجارة حتى علاهما من ذلك جبلان عظيمان ، وعند اجتيازك الزاهر وهو مبنى على الطريق يحتوى على ديار وبساتين تمر بالوادى المعروف بذى طوى الذى نزل النبى صلى الله عليه وسلم عند دخول مكة ، وكان ابن عمر رضى الله عنهما يغتسل فيه وحينئـذ يدخلها وحولها أبار تعرف بالشبيكة وفيه مسجد يقال أنه فيه مسجد

ابراهيم عليه السلام فتأمل بركة هذا الطريق ومجموع هذا الاثار المقدسة التى اكتنفته ثم تجىء الوادى الى مضيق تخرج منه نى الاعلام التى وضعت حجزا بين الحل والحرم وما هو داخلها الى مكة حرم وما هو خارجها حل وهى كالابراج مصفوفة كبار وصغار ، واحد بأزاء آخر على مقربة منه تأخذ من أعلى جبل يعترض عن يمين الطريق فى التوجه الى العمرة وتشق الطريق الى أعلى جبل عن يساره ، ومنه ميقات المعتمرين وفيها مساجد مبنية يصلى المعتمرون فيها ويحرمون منها ومسجد عائشة رضى الله عنها خارج هذه الاعلام بمقدار غلوتين واليه يصلى المالكيون ومنه يحرمون وأما الشافعيون فيحرمون من المساجد التى حول الاعلام المذكورة قال الشيخ محيى الدين النورى رحمه الله تعالى جاء عن الحسن البصرى رضى الله عنه أنه قال فى رسالته المشهورة الى أهل مكة ان الدعاء يستجاب هناك فى خمسة عشر موضعا ، فى الطواف وعند الملتزم وتحت الميزاب وفى البيت وعند زمزم وعلى الصفا وعلى السعى وفى المروة وفى السعى وخلف المقام وفى عرفات وفى المزدلفة وفى منى وعند الجمرات الثلاث ، وأما بمشاهدها المقدسة وأثارها العظيمة فهى أكثر من أن تحصى ، ومكة شرف الله تعالى كلها مشهد كريم كفاها شرفا ما خص الله تعالى به من مثابة بيته العظيم وما سبق لها من دعوة الخليل ابراهيم ، وانها حرم الله وأمنه وكفاها أنها منشأ النبى صلى الله عليه وسلم الامى الذى آثره الله بالتشريف والتكريم وبعثه بالآيات البينات والذكر الحكيم ، فهى مبدأ نزول الوحى والتنزيل ومهبط الروح الامين جبريل .

وكانت مثابة أنبياء الله ورسله الاكرمين ، وهى أيضا مسقط رؤوس جماعة الصحابة القرشيين المهاجرين الذين جعلهم الله مصابيح الدين . ونجوما للمهتدين . فمن مشاهدها التى عايناها قبة الوحى وهى فى دار خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها .

وفيها كان أبناء النبى صلى الله عليه وسلم بها ، وقبة صغيرة أيضا فى الدار المذكورة .

وفيها كان مولد فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، وهذه المواضع المقدسة مغلوقة مصونة قد بنيت بناء يليق بمثلها ، وكتب بداخل القبة الاولى ما نصه « بسم الله الرحمان الرحيم تقرب الى الله تعالى بعمارة هذا الموضع الشريف المنسوب الى خديجة رضى الله عنها ومسكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومهبط الوحى الكريم العبد المفتقر الى رحمة الله تعالى ، مولانا السلطان بن السلطان الملك المظفر يوسف بن عمر بن على خادم الحرمين الشريفين بلغه الله تعالى غاية آماله ، وتقبل منه صالح أعماله ، وذلك بتاريخ شهر صفر سنة ست وثمانين وستمائة وكتب بداخل القبة الصغيرة هذا موضع مولد فاطمة رضى الله عنها » وموضع الولادة شبه صهريج صغير وفيها محتبى النبى صلى الله عليه وسلم شبيه القبة وفيه مقعد فى الارض شبيه الحفرة داخله فى الجدار قليلا وقد خرج عليها من الجدار حجر مبسوط كأنه يظل المقعد المذكور ، قيل أنه الحجر الذى غطى النبى صلى الله عليه وسلم عند اختبائه فى الموضع المذكور وفى زقاق هذه الدار على مقربة منها مصطبة فيها متكأ يقصد الناس اليها ، ويصلون فيها ويتمسحون بأركانها لان فى موضعها كان قعود النبى صلى الله عليه وسلم ومن مشاهدها الكريمة أيضا مولد النبى صلى الله عليه وسلم والتربة التى هى أول تربة مست جسمه الطاهر بنى عليها مسجد لم يـر أحفل بناء منه أكثره ذهب منزل وكان دارا لعبد الله بن عبد المطلب ابى النبى صلى الله عليه وسلم .

والموضع المقدس الذى سقط فيه صلى الله عليه وسلم ساعة الولادة السعيدة المباركة التى جعلها الله رحمة للناس أجمعين محفوف بالفضة كأنه صهريج صغير سطحه فضة فيا لها تربة شرفها الله تعالى بأن جعلها مسقط أطهر الاجسام ومولد خير الانام صلى الله عليه

وعلى آله وأهله وأصحابه الكرام ، وسلم تسليما وعليه مكتوب ما نصه : هذا ما أمر بعمله عبد الله وخليفته الامام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد أمير المومنين أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره ، في سنة ست وسبعين وخمسمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله ، وعلى مقربة منه أيضا يشرف عليه جبل أبي قبيس وهو في الجهة الشرقية يقابل ركن الحجر الاسود وفي أعلاه رباط مبارك فيه مسجد وعليه سطح مشرف على البلدة الشريفة ومنه يظهر حسنها وحسن الحرم واتساعه وجمال الكعبة المقدسة القائمة وسطه ، وهو أول جبل خلقه الله ، وفيه قبر آدم عليه السلام ، وفيه موقف النبي صلى الله عليه وسلم عند انشقاق القمر له بقدرة الله تعالى وهو أحد أخشبي (1) مكة ، والاخشب الثاني الجبل المتصل بقيقعان في الجهة الغربية ، وبسفح أبي قبيس مسجد محتفل البناء عليه مكتوب هذا المسجد ، هو مولد علي ابن أبي طالب رضوان الله عليه ، وفيه تربى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان دارا لابي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وكافله ومن جبال مكة المشهورة بعد جبل أبي قبيس جبل حراء وهو في الشرق منها على مقدار فرسخ أو نحوه وهو جبل مبارك كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يتنابه يتعبد في غار فيه وأول آية نزلت في القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الجبل المذكور ومن جبال فيها أثر كريم ومشهد عظيم ، الجبل المعروف بأبي ثور ، وهو في الجهة اليمنية من مكة على مقدار فرسخ وأزيد فيه الغار الذي آوى اليه النبي صلى الله عليه وسلم ومعه صاحبه الصديق رضي الله عنه حسبما ذكر الله تعالى في كتابه العزيز ، وخص الله نبيه بآيات مبينات ، ومن مشاهدها الكريمة أيضا دار الخيزران وهي الدار التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعبد الله فيها سرا مع الطائفة الكريمة المبادرة للاسلام من

---

1) الخشب : المنحوت من القسي ، الطويل العاري العظام ، والجبل الغليظ واخشب مكة ابو حنين .

أصحابه رضى الله عنهم حتى نشر الله الاسلام منها على يد الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكفى بهذه الفضيلة الكريمة ، ومـن مشاهدها أيضا دار أبى بكـر الصديق رضى الله عنه وهى اليـوم دار سكة الامير ويقابلها جدار فيه حجر مبارك يتبرك الناس بلمسه يقال أنه كان يسلم على النبى صلى الله عليه وسلم متى اجتاز عليه وذكر أنه صلى الله عليه وسلم جاء يوما الى دار أبى بكر الصديق رضى اللـه فنادى به ولم يكن حاضرا فانطق الله عز وجل الحجر المذكور ، وقال يـا رسول الله ليس بحاضر ، وكانت من احدى آياته المعجزات صلى اللـه عليـــه وسلـــم .

ثم تلبعـت لقاء العلماء والمحدثين واستقريـت المجاورين منهـم جماعة جملة يضيق هذا المجموع عنهم ويتسع برنامج روايتى لهم فهم فيه على الكمال والتمام ومن أعظمهم قدرا وأرفعهم خطرا ، وأشرفهم مكانة وذكرا الشيخ الفقيه الخطيب بالحرم الشريف وصاحب الصلاة به ، فارس المنابر وامام الامـة ، ومقتدي فرق الامة . ولى الله عـز وجل أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر المكى المالكى المشتهر بخليل نفع الله تعالى به أحد السبعة الابدال ، ورب المئاثـر المبرأة عن الخـلاف والجدال والموجود فى بركاته ما يخجـل الغيث فى الانسحاب والانسدال ، والموطأة أكنافة الخاصة والعامة ، فهى معتدلة الكمال ، كاملة الاعتدال ، فالاعناق متعلقة اليه والركبان منثالة عليـه ، ماثلة بين يديه ، سامعون لامره متبركون بمساس طمره ، معترفـون بفضله متصرفون عن اذن من قوله أو فعله ، وكلهم يرد من احسانـه مناهل الكرم ويرود من فضله مواقع الديم ، ويسترشد من نور عمله ما هو أوضح من نار على علم ، ويقتدى بآثاره فيسنك شغف الشوق آداب الخدم ، قد انحلته مواصلة العبادة ، وأكلته الايام بشغف الزهادة فلم تبق منه الا الرسوم على السجادة ، وهو على ذلك من أصبر الخلق وأجلدهم على الحاح السائلين ، واختلاف القاصدين اليه والسالكين

والتكفل بحوائج الاغنياء والفقراء والمساكين ، والنظر لجميعهم فى جميع أمور الدنيا والدين لقيته بحرم مكة الشريف تجاه الكعبة المعظمة وبمنزله أيضا بقرب حرمه الشريف فاكثرت الاختلاف اليه ، وكنت ممن استفاد فى مناسك حجه تفقها ومعاينة بين يديه ، فانتفعت به أعظم الانتفـاع واستفدت بالالتزام له والاتباع ، وسمعت عليه واجازنى جميع ما يحمله ويرويه اجازة تامة ، مطلقة عامـة .

ومن أرجحهم عقلا ، وأوضحهم فضلا ، الشيخ العالم الفاضـل أبو العباس أحمد بن ابراهيم الشافعى رضى الله عنه شيخ علم وذكاء ، وشبح حلم وزكاء حسن الشارة (155) مستحسن الاشارة حافظ العلم محافظ على شيم الحلم عبادة موردها صفوزلال ، وزهادة موعدها روض يانع وظلال ، ودراية تعضدها رواية وسماع . وينعقد عليها اتفـاق واجتماع وقد أثنى عليه كل من أخذ عنه بما أثنى ، ووردت فضائله على الالسن فرادى ومثنى محامده مطلعة فى روض الطرس ، وافـق النقس (156) كل زهرة وزهرة ، وأسانيده مكتوبة فى صحف مكرمـة مرفوعة مطهرة ، لقيته بحرم مكة الشريف تجاه الكعبة المعظمة فسمعت عليه كثيرا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن غير ذلـك وانتفعت به وأجازنى الاجازة التامة المطلقة العامة ، ومولده سنة ست وثمانية وستمائة ، ثم تكاملت الركبان بمكة شرفها الله تعالى فخرجنا الى منى يوم التروية وهو اليوم الثامن لذى حجة فى أمم يرتفع لهـا العجاج ، ويتزاحم بها الفجاج ، وخلائق يغص بهم البسيط الأفيـح ويضيق عنهم المهمة الصحصح (157) ، فترى الارض تميد بهم ميدا وتموج بجمعهم موجا ، فتبصر منهم بحرا طامى العباب ماؤه السراب ، وسفنه الركاب وشرعها الطلائل المرفوعة والقباب ، فمن لم يشاهد هذا

155) الشـارة الهيئـة .
156) النقس المـداد .
157) ما استوى من الارض وكان أجرد صحاصح .

الخروج لم يشاهد من أعاجيب الزمان ما يحدث به فمن هوادج تسيل فى أباطح مكة وشعابها ، ومن محاير كالقباب المضروبة تسير باربابها ، والابل قد زينت تحتها بأنواع التزيين ، فتراها تتهادى تهادى العرائس فى الكلل ، وترفل من قلائد الذهب واستار الدبياج فى الحلى والحلل ، فلا تبصر الا سجفا ، تسحب على وجه الارض ، وتشبه فى وشيها وشى الروض ، خلائق تملأ من الطول الى العرض ، وتذكر مرأى الحشر والعرض ، فسبحان من أحصاهم عددا ، وأراد بهم رشدا ثم نزلنا (بمنى) فعاينا ليلة من لم يعانيها لم يعاين أعذب ليالى الدنيا ، ولم يبصر الارض عادت ثريا يوقد فيها من الشمع والمشاعل ، والسرج ما ترى الارض تتلألأ به نورا ، وتضىء سهولا ووعورا ، وتفوق كواكب السماء سطوعا وظهورا ، فلله هى ليلة الدهر وعروس ليالى العمر ، والبكر التى تهيم بها بنات الفكر ، (ومنى) (1) مدينة عظيمة الآثار واسعة الاختلاط عتيقة الموضع تملأ النفوس بهجة وانشراحا ، قد درست الا منازل حسنة محدثة النزول ، تحف بجانبى طريق ممتد الطول ، كأنه الميدان اتساعا وانفساحا ، فأول ما يلقى المتوجه اليها عن يساره بمقربة منها مسجد البيعة المباركة التى كانت أول بيعة فى الاسلام عقدها العباس رضى الله عنه للنبى صلى الله عليه وسلم مع الانصار ، حسبما اشتهر من ذلك ثم يفضى منها الى جمرة العقبة وهى أول منى للمتوجه الى مكة ، وعن يسار المار اليها وهى على قاعة الطريق مرتفعة بالمتراكم فيها من حصا الجمرات ، ولولا آيات الله البينات فيها لكانت كالجبال الرواسى لما يجتمع فيها على تعاقب الدهور وتوالى الازمنة وعليها مسجد مبارك وبها علم منصوب شبه اعلام الحرم التى ذكرنا

---

1) فى الرحلة العياشية : وبالجملة فأيام منى غر فى اوجه الزمان ، ومواسم فرح وسرور والاهل والايمان ، ومناهل رحمة ومغفرة من الله ورضوان ، ومحال بركة وعافية وامان ، يتجلى فيها الحق لوفده بصفة الجمال ، جزاء على رضاهم قبل ذلك بتجلى الجلال ، فهناك يستصغر المرء ما قاسى فى طريقه من الشدائد فى جنب ما حصل له من النعم والفوائد .

قبل ، وبعد هذه الجمرة العقبية (موضع الجمرة الوسطى) وبها أيضا علم وبينهما قدر الغلوة ، ثم بعدها تلقى الجمرة الاولى ومسافتها عنها كمسافة الاخرى . والصادر من عرفات الى منى أول ما يلقى الجمرة الاولى ثم الوسطى ثم جمرة العقبة ثم بعد الجمرة الاولى يعرج عن الطريق يسيرا ويلقى منحر الذبيح عليه السلام حيث فدى بالذبح العظيم ، وعلى الموضع المبارك مسجد مبنى وهو بمقربة من سفح جبل ثبير ، وفى المسجد المذكور حجر قد ألصق بالجدار فيه أثر قدم صغير يقال أنها أثر قدم الذبيح عليه السلام عند تحركه ، فلان له الحجر بقدرة الله ، فيتبرك الناس بلثمه ومسه ، ثم يفضى من ذلك الى مسجد الخيف المبارك وهو آخر منى من التوجه من المعمور منها بالبنيان ، وأما الآثار القديمة فآخذة الى أبعد غاية أمام المسجد وهو متسع الساحة ، كبير المساحة ، وهو من المساجد المشتهرة بركة وشرف بقعة وكفى بما ورد فى الاثر الكريم ، من أن بقعته مدفن لكثير من الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين ثم صعدنا الى عرفات وتكامل الجمع بها فاجتمع فيها من الخلائق جمع لا يحصى عددهم الا الله عز وجل ، ومن مزدلفة بسيط من الارض فسيح بين منى وعرفات من منى اليها ما من مكة الى منى ، وذلك نحو خمسة أميال ومنها الى عرفات مثل ذلك ومن مزدلفة تسمى المشعر الحرام ، وقبلها بنحو الميل وادي محسر وجرت السنة بالهرولة فيه وهو حد بين مزدلفة ومنى ، لانه معترض بينهما وعرفات بسيط من الارض مد البصر لو كان محشر الخلائق لوسعهم ، وفى آخر ذلك البسيط جبل الرحمة ، وفيه وحوله موقف الناس والعلمان قبله بنحو الميلين فما أمام العلمين الى عرفات حل ومادونهما حرم ، وبمقربة منهما مما يلى عرفات بطن عرنة الذى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه فى قوله صلى الله عليه وسلم عرفات كلها موقف ، وارتفعوا عن بطن عرنة ، فالواقف فى عرنة لا يصح حجه فيجب التحفظ من ذلك وجبل الرحمة المذكور منقطع عن

الجبال قائم فى البسيط وهو حجارة منقطعة بعضها على بعض وكان صعب المرتقى فأحدثت فيه ادراج وطيئة واسعة من أربع جهات أنفق فيها مال عظيم ، وفى أعلى الجبل قبة تنسب الى أم سلمة رضى الله عنها والله أعلم بصحة ذلك وفى وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه ، وحول ذلك المسجد المكرم سطح محدق به فسيح الساحة ، جميل المنظر يشرف منه على بسيط عرفات وفى جهة القبلة منه جدار قد نصبت فيه محاريب يصلى الناس فيها وفى أسفل هذا الجبل المقدس عن يسار المستقبل القبلة فيه دار عتيقة البنيان فى أعلاها غرف لها طيقان تنسب الى آدم صلى الله عليه وسلم ، وعن يسار هذه الدار فى استقبال القبلة الصخرات التى كان عندها موقف النبى صلى الله عليه وسلم وهى فى جبل متطامن وحول جبل الرحمة والدار المكرمة المذكورة صهاريج الماء وجباب ، وعن يسا الدار ويسا القبلة مسجد قديم فسيح البناء بقى منه الجدار القبلى ينسب الى ابراهيم صلى الله عليه وسلم فيه يخطب الخطيب يوم الوقفة وعن يسار العلمين فى استقبال القبلة وادى الاراك وهو أراك أخضر يمتد فى ذلك البسيط مع البصر امتدادا طويلا وكان الوقوف بعرفات يوم الاربعاء التاسع لذى حجة فخطب فى ذلك المقام العظيم ، والمشهد الكريم الشيخ الخطيب الولى أبو عبد الله خليل المذكور آنفا بعد أن جمع بين الظهر والعصر خطبة محبرة . نظم شذورها ، وأحكم فصولها فذرفت منها العيون . ووجلت لها القلوب ، وعلا الضجيج ، وارتفع النشيج وتراكم الحجيج ، ووقف جميع الناس خاشعين ، باكين داعين الى الله عز وجل فى الرحمة والمغفرة متضرعين ، فما شهدت يوما كان أكثر مدامع ، ولا قلوبا خواشع ، ولا أعناقا لهيبة الله تعالى خوانع خواضع ، من ذلك اليوم ، فما زال على تلك الحالة والشمس تلفح وجوههم . والرحمة بفضل الله تعالى تكنف جميعهم ، حتى سقط قرص الشمس وتمكن غروبها ، ولما حان الوقت أشار الامام بيده ونزل عن موقفه فدفع الناس

بالنفر دفعا (158) وارتجت منه الارض ورجفت له الجبال فيا له موقفا ما أعظم مراءاه وأرجى فى النفوس عقباه ، جعلنا الله تعالى ممن خصصه فيه برضاه ، وتغمده برحماه ، انه منعم كريم ، غفور رحيم ، وروى ابن المبارك عن أنس بن مالك قال وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفات وكادت الشمس أن تغرب فقال يا بلال انصت لى الناس ، فقام بلال فقال : انصتوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنصت الناس فقال : معاشر الناس أتانى جبريل آنفا فاقرأنى من ربى السلام وقال ان الله عز وجل غفر لاهل عرفات وأهل المعشر وضمن عنهم التباعات فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا رسول الله هذا لنا خاصة ، فقال هذا لكم ولمن أتى بعدكم الى يوم القيامة ، فقال عمر بن الخطاب كثر خير الله وطاب ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزءا الا الجنة وروى النسائى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تابعوا بين الحج والعمرة فانهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحج المبرور ثواب دون الجنة وفى صحيح مسلم عن ابن هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق يرجع كيوم ولدته أمه .

وفى صحيح مسلم أيضا عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة فانه ليدنو ثم يباهى بهم الملائكة فيقول ما أدر هؤلاء ، وفى طريق آخر أنه سبحانه يباهى بأهل عرفات ويقول : يا ملائكتى أنظروا الى عبادى جاءوا الى من أقصى الارض شعثا غبرا أشهدكم أنى قد غفرت لهم .

---

(1) تباعة الامر عاقبته وما يترتب عليه من اثر .

158) ن بالنفر دفعا : وهو الصواب (المصحح) .

مطبعة فضالة - المحمدية - المغرب